خوزيه ساراماغو

@ketab_n

Follow Me

19.9.2015

انقطاعات الموت

ترجمة : صالح علماني

تقديم : نصر سامي

رواية

جائزة نوبل للآداب 1998

الطبعة الثانية



خوزيه ساراماغو

انقطاعات الموت

ترجمة صالح علماني

مسكيلياني للنشر

العنوان الأصلي للكتاب

Jose Saramago

As intermitências da morte 2005

المؤلّف: خوزيه ساراماغو
عنوان الكتاب : انقطاعات الموت
ترجمة: صالح علماني
تقديم: نصر سامي
تدقيق: هالة العتيري وأنور اليزيدي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الفنان رؤوف العرفاوي
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 22997848(216+) أو 531531622(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 5-35-833-9973-978
الطبعة الثانية مُنقّحة : 2015

لا تغترّ بقشرة الحضارة
فلا وجود، في الداخل، لغير القَطْران.

لا أتذكّر أنّني قرأت كتابا مُبهرا في عرضه وعميقا في تناوله لجوهر الوجود الإنساني بقوّة هذا الكتاب. نصّ معرفيّ فلسفيّ شعريّ مصبوب بدراية العارف في قالب روائيّ يعرض سرديّا عالما مهدّدا بِدُود الخوف والاستبداد والفساد والعمى في أقصى أشكاله، ولكنّه يحوّله ويعيد تشكيله بطريقة رؤياويّة، بعيدا عن تلك المعالجات المبتسرة.

العمى التّام الذّي سيتشكّل في رواية أخرى لساراماغو، فيما بعد، هو ما تحاول هذه الرّواية أن تكتبه مطلقة عليه اسم الموت، ليس الموت الفرديّ الّذي تعوّدناه في شعرنا العربي القديم، بل موت آخر، موت حيّ، متكلّم، يعرف ما يفعل، واع بدوره تمام الوعي، ساخر بالوجود وأهله، كاشف عن أكثر أقنعهتم تفاهة. الرّاوي هنا، وهو «المبصر» الوحيد، يجعل من كلّ شيء خادما لفكرته الأساسيّة، وهي تعرية مجتمعات الزّيف والجهل والفساد السّياسيّ والدّيني والاجتماعي خصوصا.

هذه الرّواية لا تنظر في عينيك، لا تواجهك، بل تنظر معك في الخلفيّة حيث تحدث الأشياء الأكثر قذارة وعنفا. تُنير تلك المنطقة المخفيّة السّوداء المُخيفة، لا تواجهك عينا لعين، وما حاجتها إلى ذلك؟ بل تفتح عينيك لترى الغامض والمدنّس والمرفوض، وتكشف بشاعة حياة الكائن البشري الّذي يمعن في التّظاهر بنقائه وصدقه وبراءة عنصره. نصّ ينتزعك من ذاتك، يخترقك في لين وشاعرية، محترما كلّ قناعاتك، قبل أن يطيح بها هازئا ضاحكا.

«انقطاعات الموت» نصّ نضر، غضّ، مشمس، لا أعرف أحدا قدّم هذا الوصف لنصّ روائيّ من قبل، ملهم للنّفس لأنّه ينزع تدريجيّا قشرة الإنسانيّة الرّهيفة وأقنعتها المتعدّدة، ويضعك بقسوة في مستنقع الإنسانية الموحش المتوحّش ذي المخالب والأنياب. تصبح البهجة الظّاهرة دهشة أوّلا، فسؤالا، ثمّ معرفة طاحنة مُقلقة.

يجعل ساراماغو الوحش الذّي يقيم في أعماقك يظهر ويفتح جناحي شروره ويمارس في العلن وضاعته وخسّته. تتساءل وأنت تقرأ: من أين يأتي ساراماغو بكلّ هذه القدرة على التّحقير من شأن الكائن؟ كيف يتسنّى له العصف بكلّ إرث المواضعات التّافهة والمشترك القيمي القائم على الكذب؟ كيف يسيطر على هذا الحشد من الأفكار ويسيّر عمارته السّرديّة بهذه السلاسة والحذق والمقروئية؟

لدينا في الواجهة نصّ روائي يحضر فيه الرّاوي في بداية بعض الفصول ليلخّص ما سبق أو ليعرض أمرا أو ليبسط موضوعا أو ليعمّق فكرة فلسفيّة، أمّا في الخلفيّة فيعرض المرأة والرّجل وهما يقتلان بدم بارد، يعرض المجتمع وهو يشعر بالألم لأنّ كبار السنّ لا يموتون كما قضت العادة. يعرض مشهد الجنّة الخلفي، حيث الحياة الأبديّة مأساة حقيقيّة وعذاب ما بعده عذاب. لا معنى لشيء اسمه الحبّ، لا معنى للأبوّة، أو للأمومة، أو للإحساس، كلّ شيء في ميزان المجتمع تجارة ومرابيح.

وهي مع ذلك رواية موجعة، متعدّدة الأصوات، تستفيد من التاريخ البرتغاليّ بتهكّم قلّ أن تجده بهذا العمق في نصّ آخر. يستعمل فيها ساراماغو «علبة أدواته» كلّها مرّة واحدة. ويغرس فؤوسه الحادة في لحم الحضارة الفاسد. ويناقش السياسيين ويكشف قذارتهم ولعبهم على كلّ الحبال لضمان بقائهم، وتوظيفهم لكلّ وسيلة مهما كانت من إعلام أو جيش.. حتّى المافيا نفسها، المهمّ بقاء الحكم وبقاء السّلطة. ويعرض خطاب «موظّفي اللّه» المتهافت الّذي يدّعي إدارة المقدّس وتصريف

الأصول. وهو في كلّ ذلك مستفزّ، جريء، غامض كلوحة لرايموندو دي مادرازو، ينتصر للأرض ضدّ عوالم السّماء المغلقة وللمحسوسات القلقة ضدّ المجرّد المعمّى، وفي المحصّلة للإنساني ضدّ الإلهي.

وأنت تقرأ، لن تتردّد في النّظر إلى الرّواية على أنّها نصّ روائي واقعي، ولكنّ هذا الاعتقاد الذّي يمعن الرّاوي في تغذيته بالتفاصيل يغادر رأسك تدريجيّا لتدخل في منطق خاص تصبح بموجبه الأشياء والنّاس والأمكنة وخصوصا الأزمنة شقوقا منسيّة يتسلّل منها ضوء مشكّك غريب يصهر بناره العميقة معارف كثيرة وحكايات مثيرة.

عند روائيّ آخر، تأخذك غواية التشويق، وتغرقك الأحداث، وذلك بديع حقّا. أمّا ساراماغو فإنّه يصرّح في جملة الكتاب الأولى: «لم يمت أحد». ليس وجود الحدث هو المهم ليتقدّم بناء الرّواية، بل غياب الحدث هو المهمّ. وهنا تحديدا، في ليل العالم، نتلمّس مثل العميان بأيادينا الباردة مآسي الإنسانيّة.. ويضعنا الكاتب السّاخر في حضرة الوعي الحادّ بجوهر إنسانيتنا المتعفّن الخرب الفاسد.

يطرح الكتاب أسئلة لا حصر لها في علاقتنا بالزّمن. إنّنا نموت دائما في الأخير.. ماذا لو توقّف الموت عن قتلنا؟ ما معنى الموت أصلا؟ ولماذا نموت؟ في الرّواية يتوقّف الموت عن القتل. ولا نجد لمدة الأشهر السّبعة التّالية في أيّ مكان أيًّ ذكر لوفيات، الناس كالعادة في حضيرتهم هادئون، لا شيء يدعو إلى الذّعر.. لكنّ الأسئلة تتعمّق، والنّاس يدخلون تدريجيا في القلق، وتبدأ الحكومة في الخوف وفي إيجاد الحلول لهذه المأساة الضّاغطة، «الحبل يحيط بعنقنا»، تقول إحدى الشّخصيات. ما الذّي ستفعله الحكومة؟ ما الذّي سيفعله رجال الدّين؟ ما هو ردّ فعل الكنيسة؟ لا موت في الأنحاء، للأسف، وإحساس الكارثة يتعاظم ويتعاظم. هنا يجد ساراماغو مساحات طويلة ليمارس لَعِبَهُ العميق وطريقته الخاصّة في الإغواء والتّشويق، ليدفعك لملاحقة الأحداث. يمعن

في ملاعبة مسلّماتك. يقول على لسان أحد أبطاله: «الموت هو السيّد، يعود أو لا يعود»، تتساءل: «هل يكون الموت هو الحلّ لهذه الإنسانية العطنة الفاسدة؟». تقرأ صرخة إحدى الشخصيّات: «ماذا سيحلّ بنا الآن؟» وتشعر بأنّ الموت كان رحيما بنا وهو يصبغ حياتنا بأحاسيس متنوّعة منها الفقد ومنها الشّوق ومنها الأسى، وتتحسّر على نعمة الموت حين كان هناك أناس يموتون. يتحوّل الخلود إلى سجن أو إلى قيد أو إلى موضوع للمعاناة منذ أن توقّف الموت عن عمله.

يمعن ساراماغو في الإصغاء إلى شكاوي القطاعات المهنيّة في سرد بديع، نرى فيه مجتمعه كاملا دون أقنعة، نعرف مشاكله، نصغي لما يحدث في القاع حيث الآلام هي فراشات حقول زرق ترافق النّاس، الوجع في أقصاه، والخوف في أقصاه، والعلاقات داخل الأسر الّتي تصل إلى صور من البشاعة لا أعتقد أنّ راويا غير ساراماغو عرضها سابقا. تسيطر على النّاس رغبة قتل أقاربهم ممّن تقدّم سنّهم، يضجّون بخلود العجزة. يتساءل بعض الأبطال: «الموت أفضل من هذا المصير». وفي هذا القسم، الذّي هو القسم الجوهري في الرّواية، يصغي الرّاوي إلى مؤسسات التجارة الجنائزيّة وإلى مديري المستشفيات وإلى مسؤولي دور المسنّين وإلى مؤسّسات الاتّصال الاجتماعي وإلى شركات التأمين ويصغي إلى المذاهب الدّينيّة، وإلى الفلاسفة أيضا... في نسيج ساخر كاشف عن التّناقض، يعرّي ما في نفوس النّاس من توحّش وقذارة. نرى حلولا مضحكة في الظاهر لكنّها، في العمق، مُخزية، يكاد القارئ يتساءل: «هل هذا أنا؟، هل هؤلاء نحن؟»، ولا تُبطئ الإجابة. هذا هو الإنسان، لا تغترّ بقشرة الحضارة، فلا وجود، في الدّاخل، لغير القطران.

توقفتُ كثيرا عند موقف الكردينال، وملخّص رأيه أنّ نهاية الموت تعني عدم وجود انبعاث، ودون انبعاث لا معنى لوجود كنيسة، ومعنى كلّ ذلك أنّ التاريخ المقدّس في خطر. نعم، ليس هذا إلاّ أنموذجًا ممّا يسرده

هذا الكتاب الكبير الّذي يذكّرنا بالنّصوص الكبرى في التّاريخ الإنساني.

تقرأ كأنّك تسقط في حفرة، لا مسوّغ للأديان في غياب الموت إذن، السّماويّ نفسه بعيد، والدّين مسألة أرضيّة، لا مستقبل بلا موت، يخترق ذهنك صراخ الكائنات، «الموت أفضل» ، «لا أريد ماء، أريد أن أموت»، يمدّ لسانُ الزمان سُمَّه إلى أوردتك، تتمنّى الموت مثل أبطال ساراماغو. الجميع تقريبا يبدؤون «التضرّع من أجل عودة الموت»، ولكن حتّى في الموت يستعمل الناس الأسلحة الحقيرة نفسها الّتي أفسدت الإنسانيّة وهي الفساد والرّشوة والتّخويف واستعمال شبكات المخبرين الضخمة بل المافيا نفسها لو لزم الأمر.

تحدُث بعد ذلك في الرّواية أحداث كثيرة، لا ألخّصها، حفاظا على ذلك اللّهب المشوّق الحالم المرافق لفعل القراءة، لكنّ الكاتب يُمعن في العبث بنا ومناقشة يقينياتنا، فالموت لا ينتهي، يعود، رحمة بنا، عودة غريبة، لا يعود فجئيّا مخاتلا خوّافا كالمعتاد بل في وضح النّهار مثل «جنتلمان»، لا يطرق الباب، بل يرسل قبل موعده بأسبوع رسالة تخبر بموعد وصوله. أنت أيّها القارئ قبلت الفكرة الغريبة الأولى وستقبل الثّانية دون أن تقول شيئا. العادي ينسحب من أمام ناظريك، دون أن تنشغل، بماذا أفادنا العاديّ حتّى نقدّسه كلّ هذا التّقديس؟ لهذا تقرّر بإرادتك هذه المرّة أن تدخل التّجربة من جديد واعيا هذه المرّة بل ميتقّظ الذّهن داريا بوضاعتك. ومتّفقا أنّ تصحيحا عميقا هو بصدد الحدوث في تصوّرك للوجود وتصوّرك للقيم. هناك دائما فرصة لهندسة الحياة الفردية من جديد، وفرصتك هنا هي كتاب ساراماغو الحاد مثل مدية. والرّائع كقصيدة شعر.

بعد القراءة أنت لست الشّخص الذّي كنته، كنت تعرف قبل القراءة أنّ الموت والحياة شقيقان، لكنّك لم تكن تستشعر المأساة والكارثة في غياب الموت مرّة واحدة وإلى الأبد. كنت تعرف أنّك مستغلّ، ولكن وأنت

تقرأ ستعرف أنّك كنت دائما نهبا لأنذال سرقوك باسم الله وباسم القيم وباسم الموت أيضا، ومارسوا ضدّك نذالاتهم كلّها. بعد القراءة تتيقّظ النّمرة التّي علّموها النّوم في أعماقك، تنبت لها في الظّلمة أنياب ومخالب.. وتنقضّ.

هذه الرّواية واحدة من مراثي الموت الكبرى في تاريخ السّرد، الموت فيها يصبح منتهى آمال الناس وغاية غاياتهم، يقول أحدهم: «إذا لم نمت، فلا مستقبل لنا»، يضجّون بخلود لا يفهمونه، وبجنّة هي صورة أخرى لحياتهم البائسة، فيهرعون إلى الجحيم المحيط بهم حيث ما يزال الموت يؤدّي وظائفه ذاتها، حاملين آباءهم المسنّين وأمّهاتهم ومرضاهم ليموتوا. وهنا تحديدا يكتشفون ما هم عليه، في الحقيقة: كومة حقارات ومخاز تمشي على قدمين.

إنّ حضور البعد الغرائبي، أي تعطيل الزّمن، سمح لرواية كتبت بعصا عون الأمن وقبضة معاون الميكانيكي وثقافة المترجم وروح الصّحفي الجوّال ودقّة المصحّح في جريدة سيّارة وألم المصاب بسكتة دماغية، أن تكون، لا نصّا محلّيا بسيطا يعبّر عن معاناة شخص أو طبقة، بل صرخة في وجه القهر والاستغلال والفساد والمواضعات التّافهة، ودعوة للتفكير في مصير الإنسانيّة التّي غلبت عليه الحقارات بأنواعها. بل لعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ هذا الحشد من الحكايات والملاحم والأساطير والفنون المسمّى «انقطاعات الموت»، ليس إلاّ معالجة فنّية لموضوعة الموت والخلود، وتذكير بأكثر حقائق حياتنا بداهة. «يجب أن نموت لكي تستمرّ الحياة».

نصر سامي

صلالة 2015/1/12

إلى بيلار، بيتي.

وفي كلّ مرّة لا نعرف
من الكائن البشريّ سوى أقلّ.

كتاب التنبؤات

تفكّر في الموت أكثر وبامتياز، وسيكون من الغريب حقّا ألاّ تعرف بسبب هذا الواقع حالات تشخيص جديدة، وميادين جديدة للغة.

فيتغنشتاين

في اليوم التالي لم يمت أحد. ولأنّ الحدث مخالف بالمطلق لأعراف الحياة، فقد أحدث ارتباكا هائلا في النفوس، وهذا تأثير مُسوَّغ بكلّ المعايير، إذ يكفي التذكّر أنّه لا وجود في مجلّدات التاريخ الكونيّ الأربعين لخبر واحد، ولو عن حالة واحدة، بأنّ ظاهرة مشابهة قد وقعت ذات مرة، وأنّ يوما كاملا قد انقضى، بساعاته الأربع والعشرين العجيبة كلّها، محسوبة بين نهاريّة وليليّة، صباحيّة ومسائيّة، دون أن تحدث وفاة واحدة بمرض، أو سقطة قاتلة، أو انتحار مكتمل حتّى النهاية، لا شيء من أيّ شيء، مثلما هي كلمة لا شيء. ولا حتّى واحد من حوادث السيّارات تلك التي تتكاثر بوفرة في مناسبات الأعياد الاحتفاليّة، عندما يتنافس على الطرق العامّة انعدامُ المسؤوليّة البهيجُ أو الإفراط في تناول الكحول أو كلاهما معا لحسم من الذي سيصل إلى الموت أوّلا. لكنّ نهاية السنة لم تخلّف وراءها نثار الوفيات المعهودة والمفجعة، كما لو أنّ أترابوس[1] العجوز المتوعّدة قد قرّرت أن تغمد مقصّها طوال يوم كامل. ومع ذلك، كان هناك دمٌ، ولم يكن قليلا. وبحيرةٍ، باضطراب، برعب، كان رجال المطافئ يسيطرون بمشقّة على غثيانهم وهم يُخرجون من بين الحطام أجسادًا بشريّة بائسة ممزّقة لا بّد لها، وفق المنطق الرياضيّ للتصادَمات، أن تكون ميّتة، بل مشبعة بالموت. ولكنّها على الرغم من خطورة الجراح والكدمات المصابة بها، تظلّ حيّة عند نقلها وهي على تلك الحال إلى المستشفيات، تحت دويّ صفّارات سيّارات الإسعاف

(1) أترابوس (Átropos) إحدى إلهات الجحيم الثلاث عند الرومان، وهي المسؤولة عن قصّ خيط حياة البشر.

المنذرة. لم يمت أيّ شخص من هؤلاء في الطريق. وسيفنّدون جميعهم أشدّ النبوءات الطبيّة تشاؤما، هذا الشيطان البائس لا سبيل إلى إنقاذه، وليس هناك ما يستحقّ إضاعة الوقت بإجراء جراحة له، يقول الطبيب الجرّاح للممرّضة وهي تثبّت الكمّامة على وجهه. وربّما لم يكن ثمّة خلاص بالفعل لذلك البائس في اليوم السابق، ولكنّ الأمر الجلي هو أنّ الضحيّة يرفض الموت في هذا اليوم. وما يحدث هنا، كان يحدث في كلّ أنحاء البلاد. فحتّى انتصاف ليل اليوم الأخير من السنة بالضبط كان لا يزال هناك أناس تقبّلوا أن يموتوا بأقصى امتثال وفيّ لقواعد الموت المعهودة، سواء تلك المتعلّقة بجوهر المسألة، أي قاعدة، لقد انتهت الحياة، أم تلك التي تستجيب لمختلف الأشكال ـ أي أشكال جوهر المسألة ـ التي تتّخذها لحظة الموت، بهذا القدر أو ذاك من الأبّهة والوقار. والحالة المهمّة على نحو خاصّ، نظرا لأهميّة الشخصيّة المعنيّة، هي حالة الملكة الأمّ الجليلة والمسنّة جدا. ففي الساعة الثالثة والعشرين وتسع وخمسين دقيقة من ذلك الحادي والثلاثين من كانون الأوّل (يناير) كان يبدو أنّه من السذاجة المراهنة بعود ثقاب محروق مقابل حياة السيّدة الملكيّة. لقد فُقدت كلّ الآمال، واستسلم الأطباء حيال الأمر الجليّ المحتوم. وكانت الأسرة المالكة تقف بتراتبيّتها حول السرير منتظرة باستسلام إطلاق الأمّ الكبيرة زفرتها الأخيرة. ربّما بضع كلمات، حكمة ورع أخيرة مؤثّرة وبنّاءة في التكوين الأخلاقيّ لأحفادها الأمراء الأحبّاء، وربّما جملة جميلة ومحكمة موجّهة إلى ذاكرة الرعيّة المستقبليّة الجاحدة على الدوام. وبعد ذلك، كما لو أنّ الزمن قد توقّف، لم يحدث أيّ شيء. فالملكة الأمّ لم تتحسّن ولم تزدد سوءا، بل ظلّت كالمُعَلَّقة، جسدها الهشّ يتأرجح على حافّة الحياة، متوعّدا في كلّ لحظة بالسقوط إلى الجانب الآخر، ولكنّه مقيّد إلى هذا الجانب بخيط رفيع لا يُعرف لأيّ نزوة غريبة

يُبقي عليه الموت، لأنّه لا يمكن أن يكون أحد سواه من يُبقي عليه. وها قد صرنا في اليوم التالي، وفيه، لم يكن هناك منذ بدايته خبر آخر سوى هذه القصّة، لا أحد يموت.

كان المساء قد تقدّم كثيرا عندما بدأت تنتشر الإشاعة بأنّه، منذ بدء السنة الجديدة، وبدقّة أكثر، منذ الساعة صفر من هذا اليوم الأوّل من كانون الثاني (يناير) الذي نحن فيه، لا يوجد دليل على حدوث حالة وفاة واحدة في البلاد. يمكن الظنّ، على سبيل المثال، أنّ منشأ الإشاعة هو مقاومة الملكة الأمّ المفاجئة للتخلّي عن الحياة القليلة المتبقّية لديها. ولكن الصحيح أنّ التقرير الطبيّ المعهود الذي يوزّعه المكتب الصحفيّ في القصر على وسائل الاتّصال الاجتماعيّ لا يؤكّد فقط أنّ الحالة العامّة للمريضة الملكيّة قد شهدت تحسّنا ملحوظا خلال الليل، بل إنّها توحي، وحتّى إنّها تشير، باختيار دقيق للكلمات، إلى أنّ استعادتها كاملَ صحّتها احتمالٌ وارد جدّا. ويمكن للإشاعة في أولى مظاهرها أن تكون قد انطلقت بكلّ تلقائيّة من إحدى وكالات الجنازات والدفن، يبدو أنّه ليس هناك من هو مستعدّ لأن يموت في اليوم الأوّل من السنة. أو من مستشفى، هذا الشخص الذي في السرير رقم سبعة وعشرين لا يحلّ ولا يربط. أو من ناطق باسم شرطة المرور، إنّه أمر غامض حقّا، فعلى الرغم من وقوع حوادث كثيرة على الطرق العامّة، إلاّ أنّه لا وجود لدليل على أنّ شخصا واحدا قد مات. والإشاعة التي لم يُكتشف مصدرها قطّ، وإن يكن هذا الأمر ضئيل الأهميّة على ضوء ما سيحدث فيما بعد، سرعان ما وصلت إلى الصحف، إلى الإذاعة، إلى التلفاز، وجعلت على الفور آذان المديرين، والمعاونين ورؤساء التحرير تنتصب متيقّظة، وهم أشخاص مهيّؤون لأن يشمّوا عن بُعد أحداث تاريخ العالم الكبرى، ومدرّبون على تضخيمها كلّما تطلّب الأمر ذلك.

وخلال دقائق قليلة كان ينتشر في الشوارع صحفيّو تحقيقات ميدانيّة يوجّهون أسئلة إلى كلّ كائن حيّ يعترض طريقهم، بينما كانت الهواتف في قاعات التحرير التي تغلي، تهتزّ وترتجّ بجنون تقصٍّ واقعي. أجريت مكالمات مع المستشفيات، مع الصليب الأحمر، مع مستودع الجثث، مع وكالات الدفن، مع مراكز الشرطة جميعها، باستثناء الشرطة السرّيّة لأسباب يمكن تفهّمها، وكانت الإجابات تأتي دائما بالكلمات المقتضبة نفسها، لا يوجد موتى. ومن كانت أوفر حظا هي صحفيّة التحقيقات التلفزيونيّة الشابّة تلك التي روى لها أحد المارّة، وهو ينقل نظراته بينها وبين الكاميرا، واقعةً عاشها شخصيًّا، هي نسخة مطابقة لواقعة الملكة الأمّ آنفة الذكر، فقد قال، كانت تتوالى دقّات منتصف الليل عندما فتح جدّي عينيه، وكان يبدو على وشك الوداع. فتح عينيه فجأة عند الدقّة الأخيرة من ساعة البرج، كما لو أنّه ندم على الخطوة التي كان على وشك أن يخطوها، ولم يمت. تحمّست صحفيّة التحقيقات لما سمعته، ودون أن تولي اهتماما لتوسّلات الرجل واعتراضاته، أرجوكِ يا سيدتي، لا أستطيع، عليّ أن أذهب إلى الصيدليّة، فجدّي بحاجة إلى الدواء، دفعته إلى داخل الوحدة المتنقّلة وصرخت، تعال، تعال معي، فجدّك لم يعد بحاجة إلى دواء. ثمّ أمرت على الفور بالعودة إلى أستوديو التلفزيون، حيث كان يجري إعداد كلّ شيء في تلك اللحظة بالذات من أجل مناظرة بين ثلاثة اختصاصيّين بالظواهر الخارقة للطبيعة، وهم ساحران واسعا السمعة ومنجّمة مشهورة، تمّت دعوتهم بالسرعة القصوى من أجل التحليل وتقديم آرائهم حول ما بدأ يطلق عليه بعض الظرفاء، من أولئك الذين لا يحترمون شيئا، تسمية إضراب الموت. وكانت الصحفيّة الواثقة تعمل منطلقة من أشدّ الأخطاء خطورة، لأنّها فسّرت كلمات مصدر معلوماتها بمعنى أنّ جدّه المحتضر قد ندم، بالمعنى

الحرفيّ، على الخطوة التي كان يوشك أن يخطوها، أي الموت، الوفاة، رعشة الساق، وبالتالي قرّر التراجع. ومع ذلك، فإنّ الكلمات التي تلفّظ بها الحفيد السعيد بالفعل، كما لو أنّه قد ندم، كانت مختلفة اختلافا جذريًّا عن القول الحازم، لقد ندم. وكان يمكن لبعض إضاءات النحو الأوّليّة وقدر أكبر من التآلف مع الدقّة المرنة لأزمنة الأفعال أن تجنّبها الخطأ والتوبيخ التالي الذي كان على الصحفيّة المسكينة، وقد احمرّت من الخجل والمهانة، أن تتحمّله من رئيسها المباشر. وما لم يكن بإمكان هذا وتلك أن يتصوّراه هو أنّ الجملة المذكورة التي تلفّظ بها الشخص المقَابل في بثّ مباشر، ثمّ سُمعت في التسجيل الذي بثّته نشرة أخبار الليل، سيفهمها ملايين الأشخاص بالطريقة الخاطئة نفسها، ممّا أدى إلى نتيجة مربِكة، في مستقبل قريب جدًّا، تمثّلت بنشوء حركة مواطنين مقتنعين قناعة راسخة بأنّه يمكن قهر الموت بعمل إراديّ بسيط. وبالتالي فإنّ اختفاء أشخاص كثيرين في الماضي، اختفاءً غير مستحقّ، إنّما كان يحدث بفعل ضعف معيب في إرادة الأجيال السابقة. ولكنّ الأمور لم تتوقّف عند هذا الحدّ؛ ذلك أنّ الأشخاص، ودون أن يكونوا مضطرّين إلى بذل أيّ جهد محسوس، سيظلّون دون موت. ثمّ ظهرت حركة شعبيّة جماهيريّة أخرى، مزوّدة برؤية مستقبليّة أشدّ طموحا، أعلنت أنّ حلم الإنسانيّة الأعظم منذ بدء الأزمنة، أي التمتّع السعيد بحياة أبديّة هنا على الأرض، قد تحوّل إلى نعمة ينتفع بها الجميع، مثل الشمس التي تولد كلّ يوم والهواء الذي نتنفّسه. وعلى الرغم من تنافس الحركتين، إذا صحّ هذا القول، على الناخبين أنفسهم، كانت هناك نقطة توصّلت فيها الحركتان إلى اتّفاق، وذلك في اختيارهما لمنصب الرئيس الفخريّ، بفضل سموّ مكانته باعتباره رائدا، ذلك الرائد الجسور الذي تحدّى الموت وهزمه في اللحظة الحاسمة. ولم تُعيرا، على حدّ علمنا، أيّة أهميّة

إلى الواقع القائل بأنّ ذلك الجدّ يرقد في حالة كوما عميقة، ولا رجعة منها حسب كلّ المؤشّرات.

مع أنّ كلمة أزمة ليست في الحقيقة هي الأكثر ملاءمة لتوصيف الأحداث شديدة التفرّد التي نرويها، إذ سيكون من السخف، ومن غير المناسب، ومن التعدّي على المنطق العامّ التكلّم عن أزمة في وضع وجوديّ تميّز بغياب الموت تحديدا، إلاّ أنّه يمكن تَفَهُّم أنّ بعض المواطنين الغيورين على حقّهم في الحصول على معلومات صادقة وحقيقيّة، كانوا يسألون أنفسهم، ويسأل بعضهم بعضا، أيّة شياطين أصابت الحكومة التي لم تُبدِ حتّى الآن أدنى إشارة تدلّ على وجودها. صحيح أنّ وزير الصحّة الذي استُجوب وهو يمرّ في استراحة قصيرة بين اجتماعين، قد أوضح لصحفيّين أنه بالنظر إلى عدم توافر معطيات كافية، فإنّ أيّ تصريح رسميّ سيكون بالضرورة مبكّرا، إنّنا نجمع الأخبار التي تصلنا من كافّة أنحاء البلاد. ثمّ أضاف، والحقيقة أنّه لا وجود في أيّ منها لذكر وفيات. ولكن، وكما هو متوقّع، فقد أصابتنا المفاجأة مثلما أصابت العالم بأسره. ومازلنا غير مهيّئين للإعراب عن فكرة أوّليّة حول منشإ الظاهرة والتداعيات التي ستترتّب عنها، سواء التداعيات الفوريّة المباشرة أو المستقبليّة. وكان يمكن له أن يتوقّف عند هذا الحدّ، وهو ما كان سيُشكر عليه إذا ما أُخذت في الاعتبار صعوبات الوضع، ولكنّ الاندفاع المعروف بطلب الهدوء من الناس تجاه كلّ شيء أو لا شيء، وإبقائهم هادئين في الحظيرة كيفما كان، هذا الانتحاء لدى السياسيّين، وخاصّة إذا كانوا في الحكومة، تحوّل إلى طبيعة ثانية فيهم، كي لا نقول آليّة، حركة ميكانيكيّة، اضطرّته إلى إنهاء المداخلة بأسوإ طريقة، باعتباري المسؤول عن حقيبة الصحّة، أؤكّد لمن يسمعونني أنّه لا وجود لأيّ مبرّر للذعر. إذا كنت قد فهمت جيّدا ما سمعته للتوّ، قال

أحد الصحفيّين بنبرة أرادها ألاّ تبدو ساخرة جدّا، فإنّ رأيك الوزاريّ هو أنّ واقع عدم موت أحد أمر لا يدعو إلى الذعر. بالضبط، هذا هو ما قلته ولكن بكلمات أخرى. اسمح لي يا سيادة الوزير بأن أذكّرك أنّه حتّى يوم أمس كان هناك أناس يموتون ولم يكن يخطر ببال أحد أن يكون ذلك مثيرا للذعر، هذا منطقيّ، فالموت أمر عاديّ، ولا يثير الموت الذعر إلاّ عندما يتكاثر، كما في حرب أو وباء على سبيل المثال، هذا يعني عند خروجه عن المألوف، يمكنك قول ذلك، ولكنّك تأتي الآن، حين لا يوجد من هو مستعدّ للموت، لتطلب منّا ألاّ نصاب بالذعر، يبدو لي أن هذا ينطوي على تناقض على الأقلّ. إنّها قوّة العادة، وأعترف أنّ مصطلح الذعر لا مجال له هنا. ما الكلمة الأخرى التي تستخدمها إذا أيّها السيد الوزير، وأسألك لأنّني كصحفيّ واع بواجباتي التي أدّعيها، أهتمّ باستخدام المصطلح الدقيق كلّما كان ذلك ممكنا. استاء الوزير قليلا من الإلحاح، وردّ بجفاء، ليست كلمة واحدة، وإنّما أربع. ما هي أيّها السيّد الوزير، ألاّ نغذّي آمالا زائفة. كان يمكن للعبارة أن تكون، دون شكّ، عنوانا جيّدا ونزيها لجريدة اليوم التالي، غير أنّ المدير، وبعد التشاور مع رئيس تحريره، قدّر أنّه من غير الملائم، حتّى من وجهة نظر مصلحة العمل، إلقاء دلو الماء البارد هذا على الحماسة الشعبيّة. فقال، ضع العنوان المعهود نفسه، سنة جديدة، حياة جديدة.

في البيان الرسميّ الذي بُثّ أخيرا، بعد أن تقدّم الليل، أقرّ رئيس الحكومة بأنّه لم تُسجّل حالة وفاة واحدة في كلّ أنحاء البلاد منذ بدء السنة الجديدة. وطالب بالاتّزان والإحساس بالمسؤوليّة في التحاليل والتفسيرات التي قد تدور حول الحدث، مذكّرا بأنّه لا يمكن استبعاد أن يكون الأمر مجرّد مصادفة طارئة نتيجة اضطراب كونيّ عارض وبلا استمراريّة، بسبب توافق استثنائيّ لمصادفات دخيلة على تعادليّة

المكان – الزمان. وتحسّبا لذلك بدأت اتّصالات استطلاعيّة مع المنظّمات الدوليّة المختصّة من أجل تهيئة الحكومة لعمل أكثر فعاليّة وبأقصى قدر ممكن من التنسيق. وبعد عرض هذه المزاعم العلميّة المبهمة، الموجّهة كذلك، بفعل عدم قابليّتها للفهم، لتهدئة الهرج والمرج السائد، انتهى الوزير الأوّل إلى تأكيد أنّ الحكومة مهيّأة لكلّ الاحتمالات التي يمكن تخيّلها بشريّا، ومصمّمة على أن تواجه بشجاعة، وبمساعدة المواطنين الضروريّة، المشاكل الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والأخلاقيّة المعقّدة التي ستنشأ دون ريب عن انقطاع الموت بصورة نهائيّة، في حالة تأكّد ذلك، وهو أكثر من متوقّع. وهتف بنبرة حادّة، سنتقبّل تحدّي خلود الجسد إذا كانت هذه هي مشيئة الربّ الذي نحمده بصلواتنا على الدوام، لأنّه اختار شعب هذه البلاد الطيّب ليكون أداته. هذا يعني، فكّر رئيس الحكومة عند انتهاء القراءة، أنّ الحبل يحيط بعنقنا. ولم يكن بإمكانه أن يتصوّر إلى أيّ حدّ سيضغط عليه الحبل. وقبل انقضاء نصف ساعة، وبينما هو في السيّارة التي تقلّه إلى بيته، تلقّى مكالمة من الكردينال، مساء الخير أيّها السيّد الوزير الأوّل. مساء الخير يا صاحب السعادة. إنّني أتّصل بك لأطلعك على شعوري العميق بالذهول. وأنا أيضا أشعر بالذهول يا صاحب السعادة، فالوضع خطير جدا، أخطر وضع عاشته البلاد حتّى اليوم. ليس هذا ما أعنيه. ما الذي تعنيه إذا سعادتك. مؤسف جدا، ومن كلّ الوجوه، أنّ حضرتك حين حرّرت التصريح الذي استمعتُ إليه للتوّ لم تأخذ بالاعتبار ما يشكّل مرتكزات ديانتنا المقدّسة ودعامتها الأساسيّة وحجر الزاوية فيها. المعذرة يا صاحب السعادة ، أخشى أنّني لم أفهم ما تودّ الوصول إليه. من دون الموت، واسمعني جيدا أيّها السيّد الوزير الأوّل، من دون الموت لا وجود للانبعاث، ومن دون الانبعاث لا وجود للكنيسة. يا للشياطين. لم أسمع

ما قلتَه، كرّره من فضلك. كنتُ صامتا يا صاحب السعادة ، ربّما هو تداخل سببه الكهربة الجويّة، أو مشكلة في التغطية، فالقمر الاصطناعيّ يغيب أحيانا، وحضرتك كنتَ تقول. كنتُ أقول ما على كلّ كاثوليكيّ أن يعرفه، وحضرتك لست استثناء، فدون انبعاث لا وجود للكنيسة، أضف إلى ذلك، كيف استقرّ في ذهنك أنّه يمكن للربّ أن يشاء نهايته، تأكيد ذلك فكرة مدنّسة للمقدّسات، وربّما هي أسوأ من التجديف. لم أقل يا صاحب السعادة إنّ الربّ يريد نهايته. لم تقله بهذه الكلمات تحديدا، ولكنّك تقبّلت إمكانيّة أن يكون خلود الجسد مشيئة من الربّ، ولا حاجة لأن يكون المرء دكتورا في المنطق المتعالي كي يعرف أنّ من يقول هذا إنّما يقول ذاك. أرجوك يا صاحب السعادة ، صدّقني، كانت مجرّد جملة موجّهة للتأثير، مجرّد إنهاء للخطبة ولا شيء أكثر، وتعرف جيّدا أنّ السياسة بحاجة إلى هذه الأمور. والكنيسة تحتاج إليها أيضا أيّها السيّد الوزير الأوّل، ولكنّنا نفكّر كثيرا قبل أن نفتح فمنا، لا نتكلّم لمجرّد الكلام، نقدّر التأثيرات عن بُعد، فاختصاصنا، إذا ما أردتَ صورة يكون فهمها أفضل، هو القذائف الموجّهة. إنّني حزين يا صاحب السعادة. لو أنّني مكانك لكنتُ كذلك. وتوقّف الكردينال عن الكلام، كما لو أنّه يُقَدّر الوقت الذي تحتاجه الرمّانة اليدويّة لتسقط، وقال بعد ذلك بلهجة أكثر نعومة ومودّة، أحبّ أن أعرف إن كنتَ قد أطلعت جلالته على التصريح قبل أن تقرأه أمام وسائل الاتّصال الاجتماعيّ. بالطبع يا صاحب الغبطة، فالأمر يتعلّق بموضوع بالغ الحساسيّة. وماذا قال الملك، إذا لم يكن ذلك سرا من أسرار الدولة. بدا له جيّدا. هل علّق بشيء بعد أن أنهى قراءته. رائع. ما هو الرائع. هذا ما قاله جلالته، رائع. أنت تعني أنّه قد جدّف أيضا. لستُ مخوّلا بإصدار أحكام من هذا النوع، لاسيما وأنّ عيشي بأخطائي الذاتيّة يكلّفني مشقّة كبيرة. لا بدّ لي من التكلّم مع الملك،

وأن أذكّره أنّه في مثل هذا الوضع شديد الاضطراب وبالغ الحساسيّة، لا يمكن إنقاذ البلاد من الفوضى المخيفة التي تنقضّ علينا إلا بالحفاظ على الإيمان وعدم إضعاف التعاليم الراسخة لكنيستنا الأمّ المقدّسة. سعادتك من يقرّر، فأنت في مهامّك، سأسأل جلالته ما الذي يفضّله، رؤية الملكة الأمّ محتضرة إلى الأبد، ممدّدة في فراشها الذي لن تعود إلى النهوض منه، بينما الجسد الدنس يحتجز روحها دون وقار، أم رؤيتها تفوز في موتها بمجد السموات الأبديّ والمتألّق. ليس هناك من يتردّد في الجواب، أجل، ولكن خلافا لما تظنّه، ليست الإجابات هي ما يهمّني كثيرا يا سيادة رئيس الوزراء، وإنّما الأسئلة، وأعني بكلّ تأكيد أسئلتنا نحن، لاحظ كيف يكون لأسئلتنا، في آن واحد، هدف ظاهر للعيان ونيّة مخبّأة في الخلف، وإذا كنّا نوجّهها فلسنا نفعل ذلك فقط كي يردّوا علينا بما نحتاج في هذه اللحظة أن يسمعه المستجوَبون من أفواههم بالذات، وإنّما كذلك من أجل تهيئة الطريق للإجابات المستقبليّة. مثلما هي الحال في السياسة إلى هذا الحدّ أو ذاك يا صاحب السعادة. وهو كذلك، غير أنّ مزيّة الكنيسة في أنّها، وإن كان ذلك غير ظاهر أحيانا، عندما تتدبّر ما هو فوق، تحكم ما هو أسفل. ساد صمت جديد، قطعه الوزير الأوّل، إنّني على وشك الوصول إلى بيتي يا صاحب السعادة، ولكن إذا سمحت لي فإنّني مازلت راغبا في استطلاع رأيك في قضيّة موجزة، أخبرني بها، ما الذي ستفعله الكنيسة إذا لم يعد هناك من يموت على الإطلاق؟ على الإطلاق هو وقت طويل جدّا، حتّى عندما يتعلّق الأمر بالموت أيّها السيّد رئيس الوزراء. أظنّ أنّك لم تجبني يا صاحب السعادة. أعيد إليك السؤال، ما الذي ستفعله الدولة إذا لم يعد هناك من يموت على الإطلاق؟ ستحاول الحكومة أن تظلّ على قيد الحياة، وإن كنتُ أشكّ كثيرا في أنّها ستتمكّن من ذلك، ولكن ماذا عن الكنيسة؟ الكنيسة

أيّها السيّد رئيس الوزراء معتادة، بطريقة ما، على الإجابات السرمديّة، بحيث لا يمكنني تصوّرها تقدّم إجابات أخرى. حتّى لو ناقضها الواقع. منذ البدء لم نفعل شيئا آخر سوى مناقضة الواقع، وها نحن موجودون هنا. وما الذي سيقوله البابا. لو أنّني كنت البابا، وليغفر لي الربّ هذه الحماقة بالتفكير في أن أكونه، لأمرت بأن توضع في التوزيع أطروحة جديدة، أطروحة الموت المؤجّل، دون مزيد من التوضيحات، لم يُطلب من الكنيسة قطّ أن تقدّم تفسيرات لهذا الأمر أو ذاك، فاختصاصنا الآخر، إضافة إلى القذائف الموجهة، هو تحييد الروح بالإيمان. طابت ليلتك يا صاحب السعادة، وإلى اللقاء غدا. إذا شاء الربّ ذلك يا سيادة الوزير الأوّل. ودوما إذا شاء الربّ. في الوضع الذي تمضي به الأمور حاليا، لا يبدو أنه بالإمكان تجنّب ذلك، لا تنسَ أيّها السيد رئيس الوزراء أنّ الناس خارج حدودنا مازالوا يموتون بصورة عاديّة تماما، وهذه إشارة طيّبة. مسألة وجهة نظر يا صاحب السعادة، فربّما هم ينظرون إلينا في الخارج على أنّنا واحة، حديقة، فردوس جديد، أو جحيم، لو كانوا أذكياء. طابت ليلتك يا صاحب السعادة، وأتمنّى لك أحلاما هادئة ومعوّضة للنشاط. طابت ليلتك أيّها السيّد الوزير الأوّل، وإذا ما قرّر الموت أن يعود هذه الليلة، فآمل ألاّ يخطر له أن يختار حضرتك. لو لم تكن العدالة في هذا العالم مجرّد كلمة فارغة، لتوجّب أن تكون الملكة الأمّ هي من تغادر قبلي. أعدك بألاّ أشي بك غدا للملك. لَكَمْ أنا شاكر لك يا صاحب السعادة، طابت ليلتك. طابت ليلتك.

في الساعة الثالثة فجرا كان لا بدّ من نقل الكردينال بأقصى سرعة إلى المستشفى مصابا بالتهاب حادّ مفاجئ في الزائدة الدوديّة ممّا تطلّب تدخّلا جراحيّا فوريّا. وقبل أن يمتصّه نفق التخدير، في تلك اللحظة العابرة التي تسبق فقدان الوعي الكامل، فكّر في ما فكّر فيه

كثيرون آخرون، بأنّه قد يموت خلال العمليّة الجراحيّة، ثمّ تذكّر أنّ ذلك لم يعد ممكنا. وأخيرا، في ومضة الصحو الأخيرة، مرّت في ذهنه فكرة أنّه إذا ما مات حقّا، على الرغم من كلّ شيء، فإنّ ذلك سيعني أنّه قد هزم الموت، مع ما ينطوي عليه الأمر من تناقض ظاهريّ. وسيطرت عليه لهفة لا تُقاوم في التضحية بنفسه. وكان على وشك أن يتوسّل إلى الربّ أن يُميته، ولكنّ الوقت لم يُتح له صياغة الكلمات بانتظام. لقد وفّر عليه المخدّر ذلك التوسّل المدنّس للمقدّسات الذي يريد به أن يحوّل سلطة الموت إلى اختصاص ربّ معروف عموما بأنّه واهب الحياة.

على الرغم من أنّه يمكن له أن يكون موضع تهكّم الصحف المنافسة التي استطاعت أن تنتزع من إلهام محرّريها الأساسيّين أشدّ أنواع العناوين الرئيسة تنوّعا وعمقا، دراماتيكيّة حينا، وغنائيّة في أحيان أخرى، وإن كان قلّة منها فلسفيّ أو صوفيّ، حين لا تكون ذات سذاجة مؤثّرة، كما هو عنوان جريدة شعبيّة اكتفت بالسؤال، «وماذا سيحلّ بنا الآن»، مضيفة في النهاية علامة خطّيّة متباهية تتمثّل في إشارة استفهام هائلة، فإنّ العنوان موضوع تعليقنا «عام جديد، حياة جديدة»، قد وقع، على الرغم من ابتذاله المحزن، كالعسل على رقائق الحلوى لدى بعض الأشخاص الذين يفضّلون قبل كلّ شيء، بفعل مزاجهم الطبيعيّ أو تربيتهم المكتسبة، ترسيخ نوع من التفاؤل البرغماتي إلى هذا الحدّ أو ذاك، حتّى عندما تكون لديهم أسباب للارتياب في أنّ الأمر محض ظاهرة، وربّما عابر وسريع الزوال. فبعد أن عاشوا، حتّى أيّام الاضطراب هذه، في العالم الذي كانوا يظنّون أنّه أفضل العوالم الممكنة والمحتملة، سيكتشفون بسعادة أنّ الأفضل، والأفضل حقّا، يأتي الآن، وأنّه صار في متناول اليد، أمام باب البيت، إنّه حياة وحيدة، رائعة، دون الخوف اليوميّ من صرير مقصّ باركا، إنّه الخلود في الوطن الذي منحنا الوجود. الخلود بمنجى من المخاوف الماورائيّة، ومجّانا للجميع، دون مغلّف مختوم بالشمع يُفتح في لحظة الموت، أنت إلى الفردوس، وأنت إلى المطهّر، وأنت إلى الجحيم، في هذا المفترق الذي كان في أزمنة أخرى، أيّها الزملاء الأعزّاء في وادي الدموع هذا المدعوّ الأرض، مفترقا فاصلا لتحديد مصيرنا في

العالم الآخر. وهكذا لم تجد الصحف المتحفّظة أو الإشكاليّة حلاً آخر، ومعها محطّات التلفزة، وكذلك الإذاعات المماثلة، سوى الانضمام إلى مدّ السعادة الجماعيّة العالي الذي راح ينتشر من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، مُنعشا الأذهان الخائفة ومُبعدا عن الأنظار شبح الموت الطويل. ومع مرور الأيّام، ورؤية أنّه لا أحد يموت حقّا، أخذ من كانوا في أوّل الأمر متشكّكين ومرتابين بالانضمام، رويدا رويدا في البدء، وبصورة جماعيّة بعد ذلك، إلى الموجة الهائلة من المواطنين الذين انتهزوا كلّ الفرص المتاحة للخروج إلى الشارع والإعلان، والصراخ، أنّ الحياة، أجل، الحياة صارت جميلة.

وفي أحد الأيّام، كانت هناك سيّدة مترمّلة حديثا، لم تجد طريقة أخرى للإعراب عن سعادتها الجديدة التي غمرها بها الوجود، وإن كان صحيحا أنّها تشعر بأسى خفيف لعلمها بأنّها لن تتمكّن أبدا من الالتقاء بميّتها الذي بكته، لأنّها لن تموت، فخطرت لها فكرة تعليق العلم الوطنيّ في الشارع، على شرفة قاعة طعام بيتها المزهرة. وحدث ما يمكن تسميته إقران القول بالعمل. ففي أقلّ من ثمان وأربعين ساعة انتشر رفع الأعلام في البلاد بأسرها، واحتلّت ألوان ورموز العلم المشهد، وبازدياد ملحوظ في المدن لسبب واضح هو تمتّعها بوجود شرفات ونوافذ أكثر بكثير ممّا هو موجود في الأرياف. وكان من المستحيل مقاومة الحماسة الوطنيّة، لاسيما وأنّه بدأت تنتشر، دون أن يدري أحد من أين تصل، بعض التصريحات المثيرة للقلق، كي لا نقول المتوعّدة بصراحة. منها على سبيل المثال، من لا يعلّق راية الوطن الخالدة على نافذة بيته لا يستحقّ أن يكون حيّا، من لا يرفعون العلم الوطنيّ ظاهرا بوضوح فإنّما يفعلون ذلك لأنّهم باعوا أنفسهم للموت، انضمّ إلى الجميع، كن وطنيّا، اشترِ راية، اشترِ أخرى، اشترِ واحدة أخرى إضافيّة، فليسقط أعداء الحياة. ومن

حسن حظّهم أنّه لم يعد هناك موت. كانت الشوارع ميدانا حقيقيّا لبيارق تخفق مع الريح إن هبّت، وإن لم تهبّ، فإنّ مروحة كهربائيّة موضوعة ببراعة تقوم بهذه المهمّة. وإذا كانت قوّة الجهاز غير كافية كي يخفق العلم برجولة، وجعله يُصدر فرقعات السوط تلك التي تهيّج النفوس الحربيّة، فإنّها تتيح على الأقلّ أن تتموّج ألوان الوطن بصورة مشرّفة. كان بعض الأشخاص، وهم قلّة، يهمسون بحذر شديد أنّ في ذلك مبالغة، هراء، فعاجلا وليس آجلا لن تكون هناك وسيلة أخرى سوى سحب غابة الأعلام المتشابكة تلك، وكلّما عجّلنا بعمل ذلك يكون أفضل، لأنّه بالطريقة نفسها التي تؤدّي زيادة كميّة السُّكَّر في حلوى البودين إلى إفساد المذاق وإرباك عمليّة الهضم، فإن الاحترام الطبيعيّ والعادل للرموز الوطنيّة ينتهي بالتحوّل إلى سخرية إذا ما سمحنا له بالانزلاق لأن يشكّل اعتداء على الحياء، مثل محبّي الظهور بمعاطفهم المطريّة سيّئي الذكر. أضف إلى ذلك، يقولون، إذا كانت الرايات قد رُفعت للاحتفال بواقع أنّ الموت توقّف عن القتل، فلدينا أحد احتمالين، إمّا أن نسحبها قبل أن يدفعنا الضجر إلى البدء بمقت رموز الوطن، وإمّا أنّنا سنُمضي حياتنا، هذا يعني السرمديّة، أجل، لم نخطئ القول، السرمديّة، ونحن نستبدلها في كلّ مرّة يعفّنها المطر، أو تمزّقها الرياح، أو تذهب الشمس بألوانها. قلّة هم الأشخاص الذين كانت لديهم الشجاعة لأن يضعوا على هذا النحو، أمام الملإ، إصبعهم على الجرح. وكان هناك رجل بائس دفع ثمن بوحه اللاوطنيّ ضربا مبرحا، وإذا كان ذلك الضرب لم ينهِ حياته هناك بالذات، فإنّما السبب هو أنّ الموت قد توقّف عن عمله في هذه البلاد منذ بداية العام.

لم يكن كلّ شيء احتفالا، لأنّه إلى جانب بعض من يضحكون، سيكون هناك على الدوام آخرون يبكون، ويفعلون ذلك أحيانا للأسباب نفسها،

كما هو الأمر في هذه الحالة. فقطاعات مهنيّة مهمّة أُصيبت بقلق جدّيّ من الوضع، وبدأت تبثّ التعبير عن استيائها حيال ما يحدث. ومثلما هو متوقّع، جاءت أولى الشكاوى الرسميّة من مؤسّسات التجارة الجنائزيّة. فأربابها الذين جُرّدوا بفظاظة من مادّة تجارتهم الأوّليّة بدؤوا بالحركة التقليديّة المتمثلة في رفع الأيدي إلى الرؤوس وهم يئنّون شاكين في جوقة، ماذا سيحلّ بنا الآن. ولكنّهم بعد ذلك، وحيال كارثة الإفلاس الآتية التي لن ينجو منها أحد من نقابة الجنائز، دعوا إلى لجنة عامة للعاملين في القطاع، وفي نهايتها، بعد خطابات حامية، وكلّها دون جدوى، لأنّها جميعها بلا استثناء كانت تصطدم بجدار منيع يتمثّل في عدم تعاون الموت، ذلك التعاون الذي اعتادوا، من الآباء إلى الأبناء، على أنّه حقّ طبيعيّ لهم، صادقوا على وثيقة تُقدّم لعناية حكومة الأمّة، وثيقة تتبنّى الاقتراح الوحيد البنّاء الذي طُرح للنقاش، اقتراح بنّاء، أجل، وإن يكن مضحكا. سوف يسخرون منّا، نبّه رئيس مائدة الحوار، ولكنّه اعترف بأنّه لا وجود لمخرج آخر، فإمّا هذا الاقتراح، وإمّا دمار القطاع وإفلاسه. وتعلن الوثيقة أنّه، باجتماعهم في لجنة عامة استثنائيّة للنظر في الأزمة الخطيرة التي تداولوا فيها بسبب انعدام التزوّد بالموتى في كافة أنحاء البلاد، توصّل ممثّلو الوكالات الجنائزيّة، بعد تحليل مكثّف ومشترك، سيطر عليه طوال الوقت احترام مصالح الأمّة العليا، توصّلوا في الخلاصة إلى أنّه مازال بالإمكان تجنّب نتائج دراماتيكيّة لما سيسجّله التاريخ كأسوإ نكبة جماعيّة حلّت بنا منذ تأسيس الأمّة، وهذا يعني أن تقرّر الحكومة الإعلان عن إجباريّة دفن أو إحراق جثث كافّة الحيوانات المنزليّة التي تموت موتا طبيعيّا أو بحادث، وأن يكون إنجاز أعمال الدفن تلك إجباريّا ـ بعد وضع الأنظمة اللازمة والمصادقة عليها، من اختصاص الصناعة الجنائزيّة، آخذين بالاعتبار المزايا التي قدّمتها

هذه الصناعة حين كانت خدمة عامّة حقيقيّة في الماضي، وبتعبير أدقّ، أجيالا بعد أجيال. وتواصل الوثيقة، نطالب أيضا بأفضل اهتمام من جانب الحكومة للنظر في أنّ واقع إعادة صناعتنا إلى سابق عهدها لن يكون ممكنا دون توظيف استثمارات ضخمة، ذلك أنّ الأمر ليس نفسه، فهناك اختلاف بين دفن كائن بشري، وبين أن ننقل إلى مثواه الأخير قطا أو طائر كناري، ولماذا لا نقول فيلا من سيرك أو تمساح حوض مائيّ، ولا بدّ بالتالي من إجراء تعديل من أعلى إلى أسفل على تقاليدنا المتعارف عليها، مستفيدين من دعم العناية الإلهيّة لهذا التحديث الذي لا مفرّ منه ومن الخبرة المكتسبة منذ الاعتراف الرسميّ بمقابر الحيوانات، وبكلمة أخرى، فإن هذا الميدان الذي لم يكن يمثّل حتّى الآن سوى جزء هامشيّ من صناعتنا، وإن كنّا لا ننكر أنّه مربح جدّا، سيتحوّل من جهة أخرى إلى نشاطنا الوحيد، وسيجنّبنا ضمن حدود الإمكان، فصل المئات إن لم يكن الآلاف من العاملين المتفانين والقيّمين ممّن واجهوا ببسالة، طوال أيّام حياتهم، صورة الموت الرهيبة، والذين يدير لهم الموت ظهره الآن بصورة مهينة. بعد عرض ما نرجوه منكم يا سيادة رئيس الوزراء، وبالنظر إلى ما تستحقّه مهنتنا من حماية، وهي مهنة اعتُبرت ذات نفع عامّ على امتداد آلاف السنين، نأمل أن تتفضّل وتأخذ بالاعتبار، ليس فقط ضرورة الإسراع في اتّخاذ قرار مؤيّد، وإنّما كذلك، وبصورة موازية، افتتاح خطّ قروض مخفّضة، أو ما هو أفضل، وما سيكون ذهبا على أزرق، أو ذهبيّا على أسود، وهذان هما لونانا الجنائزيان، كي لا نقول ما يمثّل أدنى حدّ من العدالة الأوّليّة، منحنا قروضا لا تُردّ تساعد على تنشيط وتأهيل سريع لقطاع يتعرض وجوده للتهديد أوّل مرّة في التاريخ، وماً قبله بكثير، في كافّة حقب ما قبل التاريخ، إذ لم تفتقد جثّة بشريّة قط من يأتي لدفنها، عاجلا أو آجلا، ولو اقتصر الأمر

على تغطيتها بتراب الأرض السخيّة. وبكلّ احترام نلتمس من سيادتكم الاستجابة لمطلبنا.

ولم يتأخّر كثيرا كذلك مديرو وإداريّو المستشفيات، سواء الحكوميّة منها أو الخاصّة، في طرق باب الوزير الراجعين إليه بالنظر، أي وزير الصحّة، للإعراب أمام الجهات المختصّة عن قلقهم وجزعهم المرتبطين، مهما بدا ذلك مستغربا، بمسائل لوجستيّة أكثر ممّا هي صحيّة. وكانوا يؤكّدون أنّ العمليّة الدوّارة المعهودة بمرضى يدخلون، ومرضى يشفون، ومرضى يموتون، قد تعرّضت لانقطاع في الدارة، إذا صحّ هذا القول، أو إذا شئنا التحدّث بمصطلحات أقلّ تقنيّة، تعرّضت لازدحام وعرقلة في حركة السير، كما السيّارات، والسبب يكمن في البقاء غير المحدود لعدد متزايد باطّراد من المرضى المقيمين بسبب خطورة أمراضهم أو الحوادث التي كانوا ضحيّة لها وكانت ستودي بهم، لو أنّ الظروف كانت طبيعيّة، إلى الحياة الأخرى. الوضع صعب، كانوا يتعلّلون، فقد بدأنا نضع المرضى في الممرّات، ونعني أكثر ممّا هو معهود عادة، وكلّ شيء يشير إلى أنّه خلال أقلّ من أسبوع سنصطدم ليس فقط بقلّة الأسرّة، وإنّما كذلك بعدم معرفة أين نضع الأسرَّة التي مازالت متوافرة، بعد امتلاء الممرّات والقاعات، وعدم وجود أمكنة، وصعوبة التحرّك. صحيح أنّ هناك طريقة لحلّ المشكلة، انتهى المسؤولون عن المستشفيات إلى القول، وإن كان هذا الحلّ يخالف قَسَمَ أبوقراط، والقرار، في حال اتّخاذه، لا يمكن أن يكون طبّيّا ولا إداريّا، بل يجب أن يكون سياسيّا. ولأنّ وزير الصحة يفهم جيّدا وتكفيه نصف كلمة، فقد عمد، بعد استشارة رئيس الوزراء، إلى إصدار البيان التالي، آخذين بالاعتبار الازدحام المتزايد للنزلاء المقيمين الذي بدأ يضرّ بصورة جدّيّة بسير العمل الممتاز حتّى الآن في نظام مستشفياتنا، ونتيجة مباشرة لازدياد أعداد الأشخاص

الذين هم في حالة حياة معلّقة وسيبقون على هذه الحال لزمن غير محدود، دون أيّة إمكانيّة في الشفاء أو حتّى مجرّد التحسّن، على الأقلّ إلى أن يتوصّل البحث الطبّي إلى الأهداف الجديدة التي وضعها نصب عينيه، فإنّ الحكومة تنصح وتوصي إدارات المشافي بأن تعمد -بعد تحليل صارم لوضع المرضى الإكلينيكيّ الذين هم في هذه الحال، كلّ حالة على حدة، وبعد التأكّد من انعدام إمكانيّة تحسّن كلّ حالة ممّن هم في وضع احتضاريّ- إلى تسليمهم لرعاية أسرهم، مع تعهّد الهيئات الصحيّة المسؤولة بأن توفّر للمرضى، دون تحفّظ، كلّ وسائل العلاج والفحوص التي يرى الأطبّاء المشرفون عليهم أنّها ضروريّة وينصحون بها. ويستند قرار الحكومة هذا إلى مقدّمة سهلة ومقبولة من جانب الجميع، بأنّ أيّ مريض في مثل هذا الوضع، أي على حافّة الموت الذي يُنكَر عليه، سيكون أقلّ من مبالٍ، حتّى في لحظة صحو عابرة، بالمكان الذي هو فيه، سواء أكان في حضن أسرته الحاني أم في قاعة أحد المستشفيات المزدحمة، لاسيما أنّه لن يتمكّن من الموت سواء أكان هنا أم هناك، مثلما لن يتمكّن هنا أو هناك من استعادة عافيته. وتريد الحكومة أن تنتهز هذه الفرصة لتطلع الأهالي على تواصل الإيقاع الحثيث في أشغال البحث التي ستوصلنا، وهذا ما نأمله ونثق به، إلى معرفة مُرضية بأسباب الاختفاء المفاجئ للموت، تلك التي مازالت غامضة حتّى اللحظة. ونُطلع الرأي العامّ في الوقت نفسه على أنّ لجنة موسّعة من مختلف المذاهب، تضمّ ممثّلين عن مختلف الديانات سارية المفعول، وفلاسفة من مختلف المدارس الناشطة، وهي جهات لها كلمتها في هذه الأمور، قد تولّت المهمّة الحسّاسة في التأمّل حول ما سيكون عليه مستقبل بلا موت، وستحاول في الوقت نفسه صياغة تدابير معقولة للمشاكل الجديدة التي سيضطرّ المجتمع إلى مواجهتها، وأولى تلك المشكلات هي التي اختصرها البعض

بهذا السؤال القاسي، ما الذي سنفعله بالمسنّين إذا لم يعد الموت موجودا ليقطع عليهم ولعهم المفرط بالحياة المديدة؟

دور المسنّين ممّن تجاوزوا المرحلة العمريّة الثالثة أو الرابعة، تلك الهيئات الخيريّة التي أنشئت لراحة عائلات لا تجد الوقت ولا الصبر لتنظيف المخاط، ورعاية العضلات المنهوكة والنهوض في الليل لوضع المبولة، لن تتأخّر طويلا، مثلما حدث للمستشفيات ومؤسّسات الدفن، في ضرب رأسها بحائط المبكى. ومن أجل إحقاق العدالة لمن يستحقّها، لا بدّ لنا من الاعتراف بأنّ الحيرة التي تنازعتهم بين مواصلة استقبال النزلاء من عدمها، كانت أحد أشدّ أشكال الحيرة غمّا والتي يمكن لها أن تتحدّى الجهود الدقيقة والموهبة التخطيطيّة لأيّ قيّم على إدارة الموارد البشريّة. في البدء، لأنّ المحصّلة النهائيّة، وهذا ما يميّز المعضلات الحقيقيّة، ستكون على الدوام هي نفسها. فهم المعتادون حتّى الآن، مثل زملائهم أصحاب الحقنة الوريديّة وإكليل الزهور ذي الشريط البنفسجيّ، على الثقة بتواصل دورة الحياة والموت وعدم توقّفها، أحدهما يأتي داخلا والآخر يمضي خارجا، لم تكن دُور المسنّين ترغب قطّ ولو بالتفكير في مستقبل عمل لا تنتقل فيه أهداف عنايتها من الوجه والجسد، إلاّ لجعلهما أكثر مدعاة للرثاء في كلّ يوم يمرّ، وأكثر انحطاطا، وأكثر توعّكا وتحلّلا بصورة محزنة، الوجه ينكمش بتجعّد بعد تجعّد، مثل حبّة زبيب عنب، الأعضاء ترتجف وتتردّد، مثل سفينة تمضي دون طائل بحثا عن البوصلة التي وقعت في البحر. فقد كان كلّ نزيل جديد مصدر بهجة لبيوت الأفول السعيد على الدوام، له اسم سيكون من الضروريّ حفظه في الذاكرة، وعادات خاصّة مجلوبة من العالم الخارجيّ، ونزوات تميّزه وحده، مثل ذلك الموظّف المتقاعد الذي عليه في كلّ يوم أن يغسل بعمق فرشاة الأسنان لأنّه لا يطيق رؤية بقايا

معجون أسنان عليها، أو تلك العجوز التي ترسم أشجارا لأجيال عائلتها ولا تُصيب أبدا في الأسماء التي عليها أن تعلّقها على الأغصان. ولبضعة أسابيع، إلى أن يساوي الروتين الاهتمام المتوجّب بالنزلاء، سيكون هذا النزيل هو الجديد، ومدلَّل الجماعة، وسيكون كذلك للمرّة الأخيرة في حياته، حتّى لو بقيت أبديّة، هذه الأبديّة التي تسطع - مثلما يقال عادة عن الشمس - جميعَ سكّان هذه البلاد المحظوظة. نحن الذين نرى انطفاء نجم النهار ونظلّ أحياء، دون أن يدري أحد كيف أو لماذا. أمّا الآن، فالنزيل الجديد، اللهم إلاّ إذا كان يشغل منصبا مازال موجودا ويُثري ميزانيّة البيت، سيكون شخصا مصيره معروف سلفا، لن نراه يخرج من هنا ليموت في بيت أو في المستشفى، مثلما كان يحدث في الأزمنة الغابرة، حين كان نزلاء آخرون يوصدون أبواب غرفهم بالمفتاح على عجل، كي لا يدخل الموت ويأخذهم هم أيضا، ونحن نعلم أنّ ذلك كلّه ماض لن يعود، غير أنّه على أحد ما في الحكومة أن يفكّر في مصيرنا، فالمصير الذي ينتظرنا نحن، وكلاء ومديري وموظفي بيوت الأفول السعيد، هو أنّه لن يوجد من يلتقطنا عندما تحين الساعة التي يكون علينا فيها أن نُنزل أذرعنا، لاحظ أنّنا لم نعد أسيادا كذلك لما كان بطريقة مّا ملكا لنا، على الأقلّ بسبب العمل الذي تجشّمناه طوال سنوات وسنوات، وهنا لا بدّ أن يُفهم أنّ الكلمة صارت للموظّفين، وما نريد قوله إنّه لن يكون هناك مكان لهؤلاء الذين هم نحن في بيوت الأفول السعيد، إلاّ إذا أخرجنا عددا من النزلاء، وقد خطرت الفكرة نفسها للحكومة عند وقوع تلك المناقشة حول اكتظاظ المستشفيات، في أن تتولّى العائلة واجباتها، قالوا، ولكنّ ذلك يستدعي أن يكون هناك في العائلة من يمتلك ما يكفي من التفكير السليم في الرأس وما يكفي من الطاقة في بقيّة البدن، وهما هبتان لا تستمرّ مدّة صلاحيّتهما، مثلما

نعرف من خبرتنا الخاصّة ومن المشهد الذي يقدّمه العالم، إلاّ بقدر ما تستمرّ زفرة بالمقارنة مع هذا الخلود الذي دُشّن حديثا. والعلاج، إلاّ إذا كان هناك رأي أوسع خبرة، سيكون في مضاعفة بيوت الأفول السعيد، ليس مثلما هي الحال الآن، باستخدام دُور وقصور صغيرة عرفت أزمنة أفضل، وإنّما بتشييد بنايات كبرى من جذورها، على شكل بنتاغون مثلا، أو على شكل برج بابل أو متاهة كنوسوس، بناء أحياء في أوّل الأمر، وبعد ذلك مدن، وبعدها ميتروبول، أو بكلمات أكثر فجاجة، مقابر للأحياء تلقى فيها الشيخوخة الوبيلة والمحتومة الرعايةَ مثلما يشاء الربّ، حتّى أنّنا لا ندري إلى متى، لأنّ أيّامها بلا نهاية. القضيّة شائكة، ونشعر أنّ من واجبنا لفت انتباه الجهات المختصّة، لأنّه مع مرور الوقت، لن يكون هناك مزيد من المتقدّمين في العمر فقط في بيوت الأفول السعيد، وإنّما ستكون هناك حاجة أكبر فأكبر كذلك إلى مزيد من الناس للاهتمام بهم، وستكون الحصيلة أنّ هرم الأعمار سينقلب سريعا رأسا على عقب، فتكون هناك كتلة هائلة من المسنّين في الجزء العلويّ، كتلة دائمة النموّ، تبتلع مثل تنّين أفعوانيّ الأجيال الجديدة التي ستتحوّل بدورها إلى عاملين مساعدين وإداريّين في بيوت الأفول السعيد، وبعد أن تقضّي الشطر الأكبر من حياتها في رعاية مسنّين من كلّ الأعمار، سواء أكانت أعمارا عاديّة أم أعمارا ألفيّة، حشود من الآباء، والأجداد، وأجداد الأجداد، وأجداد من الجيل الثالث، والرابع، والخامس، والسادس، وإلى ما لا نهاية، تجتمع جيلا بعد جيل، مثل أوراق تنفصل عن الأشجار وتسقط على أوراق فصول الخريف الماضية، mais où sont les neiges d'antan[1]، لتنضمّ إلى جحر النمل غير المتناهي لمن يستهلكون الحياة ويفقدون، شيئا فشيئا، أسنانهم وشعرهم، إلى كتائب ضعيفي البصر والسمع، إلى المصابين

(1) بالفرنسية في الأصل: ولكن حيث هي ثلوج الماضي.

بالفتاق، وملتهبي القصبات، ومن انكسر عنق عظم فخذهم، والمصابين بشلل نصفيّ، وبالنحول العامّ، بعد أن صاروا الآن خالدين، وهم لا يستطيعون كبح ريالتهم التي تسيل على ذقونهم، أنتم أيّها السادة الذين تحكموننا، ربّما لا تريدون أن تصدّقونا، ولكن ما سيحلّ بنا هو أسوأ الكوابيس التي يمكن أن يكون قد حلم بها كائن بشريّ، لم يُر شيء مشابه حتّى في الكهوف المظلمة، عندما كان كلّ شيء خوفا ورهبة، ونقول هذا نحن من لدينا خبرة أوّل بيت للأفول السعيد، صحيح أنّ كلّ شيء آنذاك كان صغيرا جدّا، ولكن لا بدّ للمخيّلة من أن تفيدنا في شيء مّا، وإذا أردتَ منّا أن نكلّمك بصراحة، وبالقلب في راحة اليد، فإنّ الموت أفضل، أيّها السيّد رئيس الوزراء، الموت أفضل من هذا المصير.

تهديد رهيب يقترب سيُعرِّض للخطر وجود صناعتنا، هذا ما صرّح به أمام وسائل الاتّصال الاجتماعيّ رئيس اتّحاد شركات التأمين، مشيرا إلى آلاف مؤلّفة من الرسائل، تُورد الكلمات نفسها تقريبا، كما لو أنّها مستنسخة عن نموذج وحيد، راحت ترد في الأيّام الأخيرة إلى الشركات متضمّنة أمرا بالإلغاء الفوريّ لبوالص تأمين موقّعيها على حياتهم. ويؤكّد هؤلاء أنّه -مع الأخذ بالاعتبار الواقع العامّ والمعلوم بأنّ الموت قد وضع حدّا لأيّامه- قد صار من السخف، كي لا نقول من الغباء، مواصلة دفع أقساط تأمين مرتفعة جدّا لن تنفع، لانعدام أيّ نوع من التعويض، إلاّ في المزيد من إثراء الشركات. 1(ويذهب بعضهم إلى ما هو أبعد من ذلك، مطالبين باستعادة المبالغ المدفوعة، ولكن يُلحظ على الفور أنّ مطالبته تلك ليست سوى محاولة، ليرى إن كان بإمكانه التحيّل. وعلى سؤال الصحفيّين الحتميّ حول ما تفكّر في عمله شركات التأمين لمواجهة صلية المدفعيّة الثقيلة التي انقضّت عليها فجأة، ردّ رئيس الاتّحاد بأنّه على الرغم من أنّ المستشارين القانونيّين يعكفون،

في هذا الوقت بالذات، على دراسة متأنّية لبنود بوالص التأمين ذات الحروف الدقيقة جدّا بحثا عن أيّه إمكانيّة تأويليّة تسمح، ودائما ضمن أشدّ حدود الصرامة القانونيّة بالطبع، بأن يُلزَم المؤَمّنون على أنفسهم، أولئك الهراطقة، ولو كَرْهًا، بواجب مواصلة الدفع ماداموا أحياء، هذا يعني، بكلّ بساطة، أنّ الاحتمال الأكبر سيكون الوصول إلى اتّفاق بالتراضي، اتّفاق جنتلمان، يتمثّل في تضمين البوالص بندا موجزا، سواء للتصحيح الحاليّ أم للسريان المستقبليّ، يُقَرُّ فيه سِنُّ الثمانين للموت الإجباري، بالمعنى المجازيّ طبعا. سارع الرئيس إلى إضافة هذه الجملة الأخيرة مبتسما بمداراة. وبهذه الطريقة ستتقاضى شركات التأمين الأقساط، بصورة طبيعيّة قصوى، حتّى تاريخ بلوغ المؤمَّن عليه السعيد عيد ميلاده الثمانين، ويمكن له حينذاك، باعتباره قد تحوّل إلى شخص ميّت افتراضيّا، أن يبادر إلى قبض مجموع مبلغ التأمين المتراكم، ويمكن للزبائن، في حال رغبتهم، أن يجدّدوا العقد لثمانين سنة أخرى، وفي نهايتها، ومراعاة للإجراءات، يسجّل الزبون وفاته ثانية، ويكرّر إجراءات التأمين السابقة وهكذا دواليك. سُمعت همسات إعجاب ومحاولة بدء تصفيق من جانب الصحفيّين السريعين في الحسابات التأمينيّة، فشكرهم الرئيس بإيماءة من رأسه. لقد كانت اللعبة متقنة استراتيجيّا وتكتيكيّا إلى حدّ أنّه بدأت تصل إلى شركة التأمين في اليوم التالي رسائل تعتبر الرسائل السابقة ملغاة وباطلة المفعول. وكان جميع المشتركين يعلنون أنّهم مستعدّون لقبول اتّفاق الجنتلمان المقترح، والذي بفضله يمكن القول، دون مبالغة، إنّه واحد من تلك الحالات النادرة التي يكسب فيها الجميع دون أن يخسر أحد. وخاصّة شركات التأمين التي نجت بأعجوبة من الكارثة. ويُنتظر في الانتخابات القادمة أن يعاد انتخاب رئيس اتّحاد شركات التأمين نفسه للمنصب اللامع الذي يتولاّه.

يمكن قول أيّ شيء عن الاجتماع الأوّل للجنةِ مختلفِ المذاهب باستثناء أنّه جرى على ما يرام. والإثم، إذا كان ثمّت متّسع هنا لهذا المصطلح الثقيل، تتحمّله المذكّرة الدراماتيكيّة التي سلّمتها بيوت الأفول السعيد إلى الحكومة، وخاصّة تلك الجملة التهديديّة الأخيرة، الموت أفضل، أيّها السيّد رئيس الوزراء، الموت أفضل من هذا المصير. فعندما كان الفلاسفة المنقسمون، كالعادة، إلى متشائمين ومتفائلين، بعضهم عابسون وبعضهم باسمون، يستعدّون لأن يبدؤوا للمرّة الألف النزاع الأبديّ حول الكأس التي لا يُعرف إذا كانت نصف ممتلئة أم نصف فارغة، وهو نزاع إذا ما أحيل إلى المسألة التي اجتمعوا من أجلها، سينتهي إلى الاختزال، في كلّ الاحتمالات، إلى مجرّد سرد لمنافع ومضارّ كون المرء قابلا للموت أو بقائه حيّا إلى الأبد. وتقدّم مندوبو الأديان مشكّلين جبهة موحّدة مشتركة يتطلّعون بها إلى تركيز النقاش في الميدان الجدليّ الوحيد الذي يهمّهم، هذا يعني القبول الواضح بأنّ الموت كان أساسيّا بالمطلق من أجل تحقيق ملكوت الربّ، وبالتالي فإنّ أيّ نقاش حول مستقبل بلا موت سيكون عبثيّا فضلا عن أنّه تجديف، لأنّه يستدعي الافتراض مسبقا، دون مفر، بأنّ الربّ غائب، كي لا نقول مختف. وهذا ليس بالموقف الجديد، فالكردينال نفسه أشار بالإصبع إلى العقدة التي تفترضها هذه الرواية اللاهوتيّة لتربيع الدائرة عندما أقرّ في محادثته الهاتفيّة مع الوزير الأوّل، وإن كان بكلمات أقلّ وضوحا بكثير في الحقيقة، بأنّه إذا انتهى الموت فلن يكون ثمّة انبعاث، ومن دون انبعاث لن يكون من معنى لوجود الكنيسة.

ولأنّ الكنيسة، جهرا وعلانية، هي وسيلة العمل الوحيدة التي يمتلكها الربّ على الأرض، كما يبدو، كي يصوغ المسارات المؤدّية إلى ملكوته، فإنّ النتيجة الجليّة وغير القابلة للدحض هي أنّ التاريخ المقدّس برمّته سينتهي دون مفرّ إلى طريق مسدود. هذا التعليل اللاذع خرج من فم الفيلسوف المتشائم الأكبر سنّا والذي لم يكتف بذلك، بل أضاف قائلا، الأديان جميعها، مهما قلّبناها، لا مسوّغ لها في الوجود سوى الموت، إنّها بحاجة إليه مثل حاجة الفم إلى الخبز. ولم يزعج مندوبي الأديان أنفسهم بالاعتراض، بل على العكس، فقد قال أحدهم، وهو شخص مشهور في القطاع الكاثوليكيّ، معك حقّ أيّها السيّد الفيلسوف، فهذا هو بالضبط مسوّغ وجودنا، كي يقضّي الناس حياتهم كلّها والخوف معلّق برقابهم، وعندما تحين ساعتهم، يقبلون بالموت خلاصا، وماذا عن الفردوس، فردوس أو جحيم، أو لا شيء، فما يحدث بعد الموت يهمّنا أقلّ بكثير ممّا يُعتقد، فالدين أيّها السيّد الفيلسوف هو مسألة أرضيّة، وليس له أيّ علاقة بالسماء، ليس هذا هو ما اعتدنا سماعه، لا بدّ لنا من قول شيء لجعل البضاعة جذّابة. هذا يعني أنّكم لا تؤمنون في الواقع بالحياة الأبديّة. نتظاهر بأنّنا نؤمن. لم يتكلّم أحد خلال دقيقة. أظهر أكبر الفلاسفة المتفائلين ابتسامة غامضة وخفيفة على وجهه، بهيئة من رأى للتوّ تجربة مخبريّة صعبة تتوّج بالنجاح. مادام الأمر كذلك، تدخّل فيلسوف من الجناح المتفائل، لماذا إذن، تخشون انتهاء الموت إلى هذا الحدّ. نحن لا نعرف إن كان قد انتهى، ما نعرفه فقط هو أنّه توقّف عن القتل، وهذا ليس الشيء نفسه. أوافقك الرأي، ولكنّني أحافظ على سؤالي لأنّ الشكّ لم يُحلّ، لأنّ كلّ شيء سيكون مباحا إذا كانت الكائنات البشريّة لا تموت، وهل سيكون ذلك سيّئا، سأل الفيلسوف الأكبر سنّا، بالقدر نفسه الذي لا يكون مباحا فيه أيّ شيء. ساد صمت. كان قد

أُوكل إلى الرجال الثمانية الجالسين حول المنضدة أن يتأمّلوا في شأن نتائج مستقبل بلا موت، وأن يصوغوا انطلاقا من معطيات الحاضر توقّعا معقولا للمسائل الجديدة التي سيكون على المجتمع مواجهتها، فضلا عن - ونعتذر لهذا القول - تفاقم حدّة المسائل القديمة. سيكون من الأفضل عدم فعل أيّ شيء، قال أحد الفلاسفة المتفائلين، فمسائل المستقبل سيتولّى المستقبل حلّها، السيّئ في الأمر أنّ المستقبل هو اليوم، قال أحد المتشائمين، لدينا هنا، إضافة إلى مذكّرات أخرى، المذكّرات التي أعدّتها ما تسمّى دور الأفول السعيد، والمستشفيات، والوكالات الجنائزيّة، وشركات التأمين، وباستثناء حالة هؤلاء الأخيرين الذين يجدون على الدوام طريقة للاستفادة من أيّ وضع، يجب الاعتراف بأنّ التوقّعات لا تقتصر على كونها قاتمة وحسب، وإنّما هي كارثيّة، رهيبة، تتجاوز في خطورتها ما يمكن لأشدّ مخيّلة هذيانيّة أن تتصوّره، دون نيّة منّي في أن أكون ساخرا، وهو ما سيُعتبر سيّئا جدّا في الظروف الراهنة، قال عضو ليس أقلّ شهرة من القطاع البروتستانتيّ. يبدو لي أنّ هذه اللجنة قد ولدت ميتة، دور الأفول السعيد على حقّ، فالموت أفضل من هذا المصير، قال الناطق باسم الكاثوليكيّين. فسأله أكبر المتشائمين سنّا، ما الذي تفكّرون في عمله فضلا عن الاقتراح بحلّ اللجنة الفوري، وهو ما يبدو أنكم راغبون فيه. من جانبنا، ككنيسة كاثوليكيّة رسوليّة رومانيّة، سننظّم حملة تراتيل وطنيّة للتضرّع إلى الربّ كي يتدخّل بعنايته من أجل عودة الموت بأسرع ما يمكن ليوفّر على الإنسانيّة البائسة أهوالا أسوأ. وهل للربّ سلطة على الموت، سأل أحد المتفائلين. إنّهما وجها العملة ذاتها، فالملك في جانب، والتاج على الوجه الآخر. بما أنّ الأمر كذلك، فربّما يكون الموت قد انسحب بأمر من الربّ. سنعرف في حينه أسباب هذه المحنة، وحتّى ذلك الحين سنُدخل الصلوات والمسابح في العمل.

فابتسم البروتستانتيّ، سنفعل نحن الشيء نفسه، وأعني الصلوات، وليس المسابح بالطبع، وسنُخرج مواكب إلى شوارع البلاد كافّة مطالبين بالموت بالطريقة نفسها التي قمنا بها ad petendam pluviam، «من أجل الاستسقاء»، ترجم الكاثوليكيّ ما قاله باللاتينيّة، فعاد البروتستانتيّ إلى الابتسام وقال، لن نصل نحن إلى هذا الحدّ، فهذه المواكب لا تشكّل جزءا من نزواتنا. وماذا عنّا نحن، سأل أحد الفلاسفة المتفائلين بنبرة بدت إعلانا عن قرب انضمامه إلى الصفوف المعارضة، ما الذي سنفعله اعتبارا من الآن، بعد أن بدا أنّ الأبواب كلّها قد أُوصدت. بادئ ذي بدء، علينا رفع الجلسة، أجابه الأكبر سنّا، وبعد ذلك، سنواصل التفلسف، فهذا ما ولدنا له، وإن يكن حول الفراغ، لأجل ماذا، لا أدري لأجل ماذا، لماذا إذن، لأنّ الفلسفة تحتاج إلى الموت بقدر ما تحتاج إليه الأديان، وإذا كنّا نتفلسف فلأنّنا نعرف أنّنا سنموت، وقبلنا قال السيد مونتيني إنّ التفلسف هو تعلّم الموت.

وحتّى دون أن يكون بعض الناس فلاسفة، بالمعنى الشائع للمصطلح على الأقلّ، فقد توصّلوا إلى تعلّم الطريق. والتناقض الغريب هو أنّهم لم يتعلّموا كيف يموتون هم أنفسهم، لأنّ ساعتهم لم تكن قد حانت بعد، وإنّما تعلّموا كيف يحتالون لاجتذاب الموت إلى آخرين، من أجل مساعدتهم. والحيلة المستخدمة، كما سنرى بعد قليل، هي مظهر آخر من مظاهر قدرة الجنس البشريّ التي لا تنضب على الابتكار. ففي قرية لا على التعيين، على بعد كيلومترات قليلة من الحدود مع أحد البلدان المجاورة، كانت تعيش أسرة فلاّحين فقراء لديهم، لسوء خطاياهم، ليس قريبا واحدا، وإنّما قريبان اثنان، في حالة الحياة المعلّقة، أو كما يفضّل آخرون تسميتها، حالة موت متوقّف. أحدهما جدّ من أجداد الزمن الغابر، بطريرك متصلّب الطباع، حوّله المرض إلى خرقة بائسة، وإن لم

يُفقده بالكامل قدرته على الكلام. وكان الآخر وليدا عمره شهور قليلة، لم يتوفّر معها الوقت ولو لتعليمه كلمة حياة أو كلمة موت، ويرفض الموت الحقيقيّ الظهور له. لن يموتا، وليسا حيّين، الطبيب الريفيّ يزورهما مرّة كلّ أسبوع ويقول إنّه لم يعد بالإمكان عمل شيء من أجلهما ولا ضدّهما، ولا حتّى حقن أحدهما أو كليهما بعقار مميت، من تلك التي كانت تشكّل منذ زمن غير بعيد الحلّ الجذريّ لأيّ مشكلة. وأكثر ما يمكن فعله، ربّما يكون دفعهما خطوة باتّجاه المكان الذي يفترض وجود الموت فيه، ولكنّ ذلك سيكون بلا جدوى، بلا طائل، لأنّ الموت في هذا الوقت بالذات، صار صعب المنال، فهو يخطو خطوة أيضا ويُبقي على المسافة الفاصلة نفسها. ذهبت الأسرة لطلب مساعدة الكاهن الذي استمع، رفع عينيه إلى السماء، ولم يجد كلمات يردّ بها إلاّ القول إنّنا جميعنا بين يدي الربّ وإنّ الرحمة الإلهيّة لا متناهية. أجل، يمكن لها أن تكون لا متناهية، ولكن ليس بما يكفي لمساعدة أبينا وجدّنا على الموت بسلام ولا لإنقاذ الطفل البريء المسكين الذي لم يُلحق الضرر بأحد. وكنّا على هذه الحال، لا نتقدّم ولا نتأخّر، بلا علاج ولا أمل، عندما تكلّم العجوز، فليقترب أحدكم، قال. هل تريد ماء، سألته إحدى بناته. لا أريد ماء، أريد أن أموت. أنتَ تعلم أنّ الطبيب يقول إنّ ذلك غير ممكن يا أبتاه، تذكّر أن الموت قد انتهى، الطبيب لا يفهم شيئا، فدائما ومذ كانت الدنيا هي الدنيا، كانت هناك زمان ومكان لموت أحدنا، الآن لا، بل نعم الآن، اهدأ يا أبي، سترتفع حرارتك، لستُ محموما، وحتّى لو كنتُ محموما فسوف أقول الكلام نفسه، استمعي إليّ بانتباه، إنّني أسمعك، اقتربي أكثر، قبل أن ينكسر صوتي، قل ما تريد. همس العجوز بضع كلمات في أذن ابنته. فكانت ترفض بحركات من رأسها، ولكنّه يلحّ ويلحّ. لن يَحُلّ هذا أيّ شيء يا أبتاه، تلعثمت مذهولة وشاحبة من الخوف، بل سيحلّ

الأمر. وإذا لم يُحلّ، لن نخسر شيئا في التجربة، وإذا لم يُحلّ الأمر، المسألة بسيطة، تعيدونني إلى البيت، وماذا عن الطفل، الطفل يعود أيضا، وإذا ظللتُ هناك، سيظل معي. حاولت الابنة التفكير، وكان يُقرأ على وجهها الارتباك، وأخيرا سألته، ولماذا لا نعيدكما وندفنكما هنا، تصوّري وجود ميّتين اثنين في بيت واحد في بلاد لا يمكن فيها لأحد، مهما حاول، أن يتمكّن من الموت، كيف ستفسّرين ذلك، أضيفي إلى ذلك أنّ لديّ شكوكا، في ظلّ هذه الأوضاع، أنّ الموت لن يتركنا ندخل، هذا جنون يا أبي، ربّما يكون جنونا، ولكنّني لا أرى وسيلة أخرى للخروج من هذا الوضع، نحن نريدك حيّا وليس ميتا، ولكن ليس في هذه الحال التي ترينني بها هنا، حيّ ميت، وميت يبدو حيّا، إذا كان هذا ما تريده، سننفّذ مشيئتك، أعطني قبلة. قبّلت الابنة جبينه وخرجت لتبكي. ومن هناك، وهي مستحمّة بالدموع، ذهبت لتخبر بقيّة الأسرة بأنّ أباها قرّر أن ينقلوه في هذه الليلة بالذات إلى الجانب الآخر من الحدود، حيث مازال الموت، حسب فكرته، ساري المفعول في تلك البلاد، ولا مفرّ له من قبوله. قوبل الخبر بشعور معقّد من الاعتزاز والاستسلام. اعتزاز لأنّه لا يُرى في كلّ يوم شيخ يقدّم نفسه على هذا النحو، بقدميه، إلى الموت الذي يهرب منه، واستسلام لأنّ من يخسر واحدا يخسر مائة، وماذا يمكن لنا أن نفعل، ففي مواجهة ما لا بدّ من حدوثه ستكون كلّ القوى دون جدوى. ومثلما هو مكتوب بأنّه لا يمكن الحصول على كلّ شيء في الحياة، والعجوز الشجاع لن يخلّف في بيته سوى أسرة فقيرة وشريفة لن تنسى تكريم ذكراه. والأسرة لا تتكوّن فقط من هذه الابنة التي خرجت لتبكي والطفل الذي لم يسبّب أيّ أذى للعالم، وإنّما هناك كذلك ابنة أخرى وزوجها، وهما أبوا ثلاثة أطفال يتمتّعون لحسن الحظّ بصحّة جيّدة، إضافة إلى عمّة عزباء تخطّت سنّ الزواج منذ زمن طويل. أمّا الصهر

الآخر، زوج الابنة التي خرجت لتبكي، فيعيش في بلد بعيد، هاجر إليه ليكسب عيشه، وسيعلم غدا أنّه فقد في آن واحد ابنه الوحيد وصهره الذي يقدّره. هكذا هي الحياة، تعطي شيئا فشيئا بيد إلى أن يأتي اليوم الذي تنتزع فيه كلّ شيء باليد الأخرى. ضئيلة، في هذه الرواية، هي أهميّة صلة قربى عدد من الفلاّحين الذين لن يعودوا للظهور، في الغالب، مرّة أخرى، وهذا ما نعرفه أفضل من أيّ شخص آخر، غير أنّه بدا لنا أنّه لن يكون مستحسنا، حتّى من وجهة نظر تقنيّة - سرديّة، أن ننهي بسطرين سريعين هؤلاء الأشخاص بالتحديد، وهم الذين سيكونون أبطال أحد أشدّ الأحداث دراميّة في هذه القصة التي لا تُصدّق، مع أنّها حقيقيّة، عن انقطاعات الموت. ها قد ذكرناهم إذن. ولم يكد ينقصنا إلاّ القول إنّ العمّة العزباء قد أبدت شكّها بالسؤال، ما الذي سيقوله الجيران حين يكتشفون غياب هذين اللذين كانا، دون أن يموتا، مؤهّلَين للموت. والعمّة العزباء لا تتكلّم عموما بمثل هذا الأسلوب المتحذلق، المنمّق، وإذا كانت قد فعلت ذلك الآن فإنّما فعلته كي لا تنفجر بالبكاء، وهو ما كان سيحدث لو أنّها تلفّظت باسم الطفل الذي لم يسبّب أيّ أذى للعالم أو بكلمة أخي. وقد أجابها أبو الأطفال الثلاثة الآخرين، سنخبر الجيران ببساطة بما جرى وننتظر النتائج، ولسوف نُتّهم على الأقلّ بتهمة الدفن السرّيّ، خارج المقبرة، ودون علم السلطات، والأدهى أنّنا سنفعل ذلك في بلد آخر، فقالت العمّة، عسى ألاّ تنشب أيّ حرب بسبب ذلك.

كان الوقت قرابة منتصف الليل عندما خرجوا باتّجاه الحدود. فقد تأخّرت القرية في الالتحاف بالملاءات، كما لو أنّ الشكوك تخامرها بأنّ هناك شيئا غريبا يُحاك. وأخيرا خيّم الصمت على الشوارع، وراحت أنوار البيوت تنطفئ واحدا فواحدا. رُبطت البغلة إلى العربة، وبعد ذلك، وبجهد جهيد، على الرغم من خفّة وزنه، أنزل الصهرُ والابنتان

الجدّ، وطمأنوه عندما سألهم، بصوت منطفئ، إن كانوا قد أحضروا الرفش والمعول، لقد أحضرناهما، اطمئنّ، ثمّ صعدت أمّ الطفل وهي تحمله بين ذراعيها وقالت، الوداع يا بنيّ فلن أعود لرؤيتك، وهذا غير صحيح، لأنّها ستذهب أيضا في العربة مع أختها وزوج أختها، فثلاثة أشخاص لن يكونوا كثيرين لإنجاز المهمّة. ولم تشأ العمّة العزباء توديع الراحلين اللذين لن يرجعا وانزوت في الحجرة مع أبناء أختها. ولأنّ أطر العجلات المعدنيّة تُحدث ضجّة على أرضيّة الشارع المرصوفة دون انتظام، مع ما يرافق ذلك من مجازفةٍ ببدء ظهور السكّان الفضوليّين من النوافذ ليعرفوا إلى أين يذهب جيرانهم في مثل هذه الساعة، فقد قاموا بالدوران في التفافة كبيرة عبر دروب ترابيّة إلى أن وصلوا أخيرا إلى الطريق العامّ، خارج القرية. لم يكونوا بعيدين جدّا عن الحدود، ولكنّ السيّئ هو أنّ الطريق العامّ لن يوصلهم إلى هناك، لأنّه عليهم في نقطة معيّنة أن يخرجوا عن الطريق ويواصلوا عبر دروب تكاد لا تتّسع للعربة، وهذا كلّه دون الحديث عن أنّه عليهم اجتياز المقطع الأخير سيرا على الأقدام، وأن يشقّوا طريقهم بين آجام كثيفة وهم يحملون الجدّ بطريقة لا يعلمها إلاّ الله. ولحسن الحظّ أنّ الصهر يعرف جيّدا تلك الأماكن، ففضلا عن أنّه جابها لكونه صيّادا، فإنّه مارس في بعض الأحيان كذلك هواية التهريب. احتاجوا إلى نحو ساعتين من أجل الوصول إلى المكان الذي عليهم ترك العربة فيه، وهناك بالذات خطرت للصهر فكرة نقل الجدّ على متن البغلة، واثقا من قوّة قوائم الدابة. فكّوا البهيمة، وخفّفوا عنها السرج والعُدّة الزائدة عن الحاجة، وبجهد عظيم حاولوا رفع العجوز. كانت المرأتان تبكيان، آه يا أبي الحبيب، آه يا أبي الحبيب، ومع البكاء راحت تفارقهما القوّة القليلة المتبقّية لديهما. وكان الرجل المسكين نصف فاقد للوعي، كما لو أنّه قد اجتاز فعلا أولى

عتبات الموت. لن نتمكّن من رفعه، هتف الصهر بيأس، ولكن خطر له فجأة بأنّ الحلّ سيكون في ركوبه هو أوّلا على متن البغلة وسحب الجد إليه بعد ذلك، ليصير أمامه في وضع متصالب مع البغلة، سأرفعه وهو في حضني، لا توجد طريقة أخرى، وأنتما تساعدان من تحت. ذهبت أمّ الطفل إلى العربة لترتّب وضع الدثار الذي يغطّي ابنها، كي لا يبرد الصغير المسكين، ثمّ رجعت إلى حيث أختها. واحد، اثنان، ثلاثة، قالوا معا، ولكنّ النتيجة كانت لا شيء، فقد بدا جسد الجدّ ثقيلا الآن كأنّه من رصاص، والشيء الوحيد الذي استطاعوا تحقيقه هو تركه على الأرض. عندئذ حدث أمر لم يُشهد مثله قطّ، نوع من المعجزة، أعجوبة، شيء خارق. وكأنّ قانون الجاذبيّة قد توقّف للحظة، أو صار مفعوله معكوسا، من أسفل إلى أعلى، أفلت الجدّ برفق من أيدي ابنتيه، وطفا من تلقاء نفسه، وارتفع حتى ذراعي الصهر الممدودتين. والسماء التي كانت منذ بداية الليل مغطّاة بغيوم كثيفة تهدّد بالمطر، انشقّت وسمحت بظهور القمر. يمكننا أن نواصل، قال الصهر، ثمّ توجّه إلى زوجته، أنت تقودين البغلة. وفتحت أمّ الطفل الدثار قليلا لترى كيف هو ابنها. كانت جفونه المطبقة أشبه ببقعتين صغيرتين شاحبتين، وكان الوجه رسما مشوّش الملامح. عندئذ أطلقت صرخة جابت كلّ المدى المحيط وجعلت الحيوانات المفترسة ترتجف في كهوفها، لا، لن أكون أنا من تحمل ابنها إلى الجانب الآخر، لم أجئ به إلى الحياة كي أسلّمه بيدي إلى الموت، خذا الأب، وأنا سأبقى هنا. اقتربت منها أختها وسألتها، هل تفضّلين مواصلة رؤيته، سنة بعد سنة، وهو يحتضر، أنت لديك ثلاثة أبناء أصحّاء، وتتكلّمين دون معرفة، ابنك كأنّه ابني، إذا كنتِ تشعرين بأنّه كذلك، احمليه أنت، فأنا لا أستطيع، وأنا يجب ألاّ أفعل، فذلك سيكون كما لو أنّي أقتله، وما هو الفرق؟ لا يمكن للحمل إلى الموت والقتل أن يكونا الشيء نفسه، في

هذه الحالة على الأقلّ، فأنت أمّ الطفل وليس أنا، أتستطيعين حمل أحد أبنائك، أو جميعهم؟ أظنّ أنّني أستطيع، ولكنّني لا أستطيع أن أقسم على ذلك، إنّني على حقّ إذن، إن كان هذا ما تريدينه فانتظرينا هنا، سنأخذ أبي. ابتعدت الأخت، أمسكت البغلة من اللجام وسألت، أننطلق، وأجابها زوجها، فلننطلق، ولكن ببطء، لا أريد أن يفلت منّي ويسقط. كان القمر المكتمل يلمع. وفي مكان إلى الأمام توجد الحدود، ذلك الخطّ الذي لا يُرى إلاّ على الخرائط. سألت المرأة، كيف سنعرف أنّنا وصلنا، فقال الزوج، الأب سيعرف ذلك. فهمت المرأة ما يعنيه ولم توجّه مزيدا من الأسئلة. واصلا المسير، مائة متر، عشر خطوات، وفجأة قال الرجل، لقد وصلنا، هل انتهى الأمر، أجل. ووراءهما كرّر صوت، لقد انتهى الأمر. وكانت أمّ الطفل تحتضن ابنها الميت بذراعها اليسرى آخر مرّة، بينما يدها اليمنى تثبّت على كتفها الرفش والمعول اللذين نسيهما الآخران. فلنتقدّم أكثر قليلا، حتّى شجرة الدردار تلك، قال الصهر. وفي البعيد، على أحد السفوح، كانت تظهر أضواء قرية. وبدا من خطوات البغلة أنّ الأرض طريّة، لا بدّ أنّ الحفر سهل فيها. وأخيرا قال الرجل، هذا المكان يبدو لي جيّدا، الشجرة ستكون علامة لنا عندما نأتي إليهما ببعض الزهور. تركت أمّ الطفل الرفش والمعول يسقطان، ووضعت ابنها برفق على الأرض. وبعد ذلك، تلقّت الأختان جسد الأب بألف حذر كي لا ينزلق، ودون أن تنتظرا مساعدة الرجل الذي كان يترجّل عن البغلة، وضعتاه إلى جوار حفيده. كانت أمّ الطفل تبكي، وتكرّر بالتناوب، ابني، أبي، فجاءت أختها وعانقتها وهي تبكي أيضا وتقول، هكذا أفضل، هكذا أفضل، فحياة هذين البائسين لم تكن حياة. جثت كلتاهما على الأرض تتشاطران الأسى على الميّتين اللذين جاءا ليخدعا الموت. كان الرجل يحفر مستخدما المعول، ويزيح بالرفش التراب المفتّت، ثمّ يعود إلى

الحفر من جديد. إلى أسفل، كانت الأرض أشدّ صلابة، أشدّ تماسكا، وحجريّة بعض الشيء، وبعد نصف ساعة من العمل المتواصل بلغت الحفرة العمق الكافي. لم يكن هناك تابوت ولا كفن، استقرّ الجسدان على الأرض العارية وليس عليهما إلاّ الملابس التي كانا يرتديانها. جمع الرجل والمرأتان قواهما، هو من حفرة القبر، وهما خارجها، كلّ واحدة منهما في جانب، وأنزلوا ببطء جسد العجوز، هما تمسكان به من ذراعيه المفتوحتين على شكل صليب، وهو يحتضنه حتّى لامس القاع. لم تتوقّف المرأتان عن البكاء، أمّا عينا الرجل فكانتا جافّتين، ولكنّه كان يرتعش بكامله، كما لو أنّه أصيب بحمّى عنيفة. وكان ما يزال عليهم القيام بالأسوإ. فوسط الدموع والنحيب أنزل الطفل، ووضع إلى جانب الجدّ، ولكنّه لم يكن في وضع جيّد هناك، مجرّد حزمة صغيرة تافهة، حياة بلا أهميّة، متروكة جانبا كما لو أنّها لا تنتمي إلى الأسرة. عندئذ انحنى الرجل، وتناول الطفل عن الأرض، ووضعه فوق صدر الجدّ، ثم قاطع له يديه فوق جسده الصغير، الآن أجل، إنّهما في وضع مريح، مستعدّين لراحتهما، يمكننا البدء بإلقاء التراب عليهما، بحذر، قليلا قليلا، لأنّه مازال بإمكانهما أن ينظرا إلينا لبعض الوقت، كي يتمكّنا من وداعنا، لنسمع ما يقولانه، وداعا يا ابنتيّ، الوداع يا صهري، الوداع يا خالي وخالتي، الوداع يا أمّاه. عندما امتلأت حفرة القبر، سوّى الرجل التراب كي لا يُلحظ وجود أناس مدفونين إذا ما مرّ أحد من هناك. ووضع حجرا عند الرأس وحجرا آخر عند الأقدام، ثمّ نثر على القبر الأعشاب التي كان قد قطعها من قبل بالمعول، نباتات أخرى، حيّة، ستحتلّ خلال أيّام قليلة مكان هذه الأعشاب الذاوية، الميتة، اليابسة، التي ستدخل في دورة تغذية الأرض نفسها التي نبتت منها. قاس الرجل بخطوات واسعة المسافة بين الشجرة والقبر، فكانت اثنتي عشرة خطوة، ثمّ وضع الرفش

والمعول على كتفه وقال، هيّا بنا. كان القمر قد اختفى، وكانت السماء مغطّاة بالغيوم من جديد. وبدأ المطر بالهطول عندما انتهوا من ربط البغلة إلى العربة.

الممثّلون في الواقعة الدراميّة التي وُصفت للتوّ بدقّة مضى زمانها، في رواية فضّلت حتى الآن أن تقدّم للقارئ الفضوليّ، وهذا مجرّد قول، رؤية بانوراميّة للأحداث، جرى تصنيفهم، عند دخولهم غير المنتظر إلى المشهد، على أنّهم فلاّحون فقراء. وهذا الخطأ الذي كان حصيلة انطباع متسرّع من الراوي، وتفحّص لم يتجاوز ما هو سطحيّ، يتوجّب الآن، واحتراما للحقيقة، أن يُصحّح فورا. فالأسرة الفلاحيّة الفقيرة، والفقيرة حقّا، لا تتمكّن أبدا من امتلاك عربة ولا تتوفّر لها إمكانيّة القيام بأود حيوان يحتاج لتغذية كبيرة كما هي البغلة. فالأمر يتعلّق إذن بعائلة من صغار المزارعين، أناس يتمتّعون بوضع مريح في تواضع الوسط الذي يعيشون فيه، أناس حصلوا على تعليم وإعداد مدرسيّ كافٍ لأن يتمكّنوا من الخوض في ما بينهم في حوار لا يقتصر على سلامته النحويّة فقط، وإنّما أيضا مع ذلك الذي اعتاد البعض، لنقص في خبرة أفضل، على تسميته مضمونا، وآخرون يسمّونه جوهرا، وآخرون ممّن هم أكثر التصاقا بالأرض يسمّونه مخّ الكلام. ولولا ذلك ما كان يمكن على الإطلاق للعمّة العزباء أن تتمكّن من صياغة تلك الجملة الجميلة التي عُلّق عليها سابقا، ما الذي سيقوله الجيران عندما يكتشفون غياب هذين اللذين كانا، دون أن يموتا، مؤهّلين للموت. وبعد أن صحّحنا الخطأ، وأعيدت الحقيقة إلى نصابها، سنرى الآن ما يقوله الجيران. فعلى الرغم من الاحتياطات المتّخذة، كان هناك من رأى العربة واستغرب خروج أولئك الثلاثة في مثل ذلك الوقت. وقد كان هذا هو بالضبط السؤال الذي

وجّهه الجار المراقب إلى نفسه، إلى أين يذهب هؤلاء الثلاثة في مثل هذه الساعة، وقد أعيد السؤال في صباح اليوم التالي، بتغيير طفيف، موجّها إلى صهر المزارع العجوز، إلى أين كنتم ذاهبين في تلك الساعة من الليل. وقد أجاب من وُجّه إليه السؤال بأنّه كان عليهم أن ينجزوا أمرا، لكنّ الجار لم يبدِ اقتناعه بالجواب وقال، إنجاز أمر في منتصف الليل، وبالعربة، مع زوجتك وأخت زوجتك، يا له من أمر غريب، قد يكون غريبا، ولكن هذا ما حدث، ومن أين كنتم قادمين عندما بدأ بزوغ الضياء في السماء، هذا أمر لا يعنيك، معك حقّ، اعذرني، الحقيقة أنّ هذا ليس من اختصاصي، ولكن إذا كان بإمكاني على أي حال أن أسألك كيف هي حال صهرك، مثلما هو، والطفل الصغير؟ مثلما هو أيضا، آه، يسعدني أن يتحسّن الاثنان، شكرا، إلى اللقاء، إلى اللقاء. خطا الجار بضع خطوات، ثمّ توقّف، ورجع إلى الوراء، بدا لي أنّني رأيت شيئا في العربة، بدا لي أنّ أخت زوجتك كانت تحمل طفلا بين ذراعيها، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الاحتمال الأكبر هو أنّ الكتلة المطروحة التي بدا لي أنّني رأيتها مغطّاة ببطّانيّة، كانت صهرك، لاسيما إذا أخذنا بالاعتبار... إذا أخذنا ماذا بالاعتبار؟ إذا أخذنا بالاعتبار أنّكم عندما رجعتم كانت العربة فارغة ولم تكن أخت زوجتك تحمل أيّ طفل بين ذراعيها، يبدو لي أنّك لا تنام في الليل، نومي خفيف جدّا، وأستيقظُ بسهولة، استيقظتَ عندما ذهبنا واستيقظتَ عندما رجعنا، هذا ما يسمّى: «توافق»، الأمر كذلك، وتريدني أن أخبرك بما حدث؟ إذا شئتَ ذلك، تعال معي. دخلا إلى البيت، حيّا الجار النساء الثلاث، لا أريد الإزعاج، قال مرتبكا، وظلّ ينتظر. ستكون أوّل شخص يعلم بالأمر، قال الصهر، ولستَ مضطرّا إلى حفظ السرّ لأنّنا لن نطلب منك ذلك، لا تقل لي أيّ شيء أكثر ممّا تودّ قوله، لقد مات صهري والطفل هذه الليلة، حملناهما إلى الجانب

الآخر من الحدود، حيث مازال الموت يمارس نشاطه، فصرخ الجار، لقد فتلتموهما، يمكن القول نعم بطريقة مّا، لأنّهما كانا غير قادرين على الذهاب على أقدامهما، ويمكن القول لا بطريقة مّا، لأنّنا فعلنا ذلك بأمر من صهري، أمّا الطفل، ويا للمسكين، فلم تكن له مشيئة ولا حياة يعيشها، وقد دُفنا تحت شجرة دردار، يمكن القول إنّهما دفنا متعانقين. رفع الجار يديه إلى رأسه وقال، والآن؟ فقال الصهر، الآن ستذهب وتخبر القرية بأسرها، وستقوم الشرطة باعتقالنا، وربّما سنُحاكم وندان ويُحكم علينا بما لم نفعله، بل فعلتموه، قبل متر من الحدود كانا حيّين، وبعد متر صارا ميّتين، فقل لي متى قتلناهما، وكيف، لو أنّكم لم تأخذوهما، أجل، سيكونان هنا، ينتظران الموت الذي لا يأتي. كانت النساء الثلاث الصامتات، الهادئات، ينظرن إلى الجار. فقال، إنّني ذاهب، الحقيقة أنّني كنت أفكّر في أنّ شيئا قد حدث، ولكنّني لم أتخيّل قطّ أن يكون هذا هو ما حدث، فقال الصهر، هناك شيء آخر أودّ قوله لك، ما هو؟ أن ترافقني إلى الشرطة، وهكذا لن تضطرّ إلى التنقّل من باب إلى باب لتروي للناس الجرائم الرهيبة التي اقترفناها، انظروا، قتلة أبيهم، قتلة أطفال، أيّها الربّ المقدّس،أيّ مسوخ تعيش في هذا البيت، لن أروي الأمر بهذه الطريقة، أعرف ذلك، فلترافقني إلى الشرطة، متى؟ الآن بالذات، لا بدّ من ضرب الحديد وهو حام، هيّا بنا.

لم تجر إدانتهم ولا محاكمتهم. وكما النار في نثار البارود، انتشر الخبر بسرعة في كلّ أنحاء البلاد، وندّدت وسائل الاتّصال بأولئك المشينين، بالأختين القاتلتين، والصهر أداة الجريمة، وذُرفت الدموع على العجوز والطفل البريء كما لو أنّهما الجدّ والحفيد اللذان يتمنّى الجميع لو أنّهما كانا جدّهم وحفيدهم، والصحف حسنة الظنّ التي تعمل بارومترًا للأخلاق العامّة، أشارت بالإصبع للمرّة الألف إلى

انحطاط القيم الأسريّة التقليديّة المتواصل الذي هو منبع، وسبب، وأصل كلّ الشرور حسب رأيها، وهنا بدأت تصل، بعد ثمان وأربعين ساعة، معلومات حول ممارسات مماثلة تحدث في كلّ المناطق الحدوديّة. فعربات أخرى، وبغال أخرى، حملت أجسادا هامدة، وسيّارات إسعاف زائفة قامت بالدوران والالتفاف عبر دروب مهجورة حتّى وصلت إلى المكان الذي عليها إنزال المرضى النهائيّين فيه، ويكونون على العموم مثبّتين خلال الطريق بأحزمة الأمان، أو مخبّئين، في حالة تستحقّ اللوم، في محفظة الأمتعة تغطّيهم بطّانيّة. سيّارات من كلّ الماركات والموديلات والأسعار تحمل إلى تلك المقصلة الجديدة التي شفرتها - مع الاعتذار لهذا التشبيه الحرّ - خطّ حدوديّ شديد الرهافة، وغير مرئيّ بالعين المجرّدة، تحمل التعساء الذين أبقاهم الموت، في هذا الجانب، في حالة غمّ معلّق. وليس كلّ العائلات التي تصرّفت على هذا النحو يمكن لها أن تدّعي في الدفاع عن نفسها الأسباب المحترمة بطريقة مّا، وإن كانت قابلة للنقاش، والتي قدّمها مزارعونا المعروفون والمغمومون الذين بدؤوا ذلك التهريب، دون أن يكون لديهم أيّ تصوّر للنتائج. فالبعض لم ير في ذريعة الذهاب لإخلاء الأب أو الجدّ في أرض أجنبيّة سوى طريقة نظيفة وفعّالة، والتعبير الدقيق هو جذريّة، للتخلّص من الثقل الميت الحقيقيّ الذي يشكّله المحتضرون في بيتهم. ووسائل الاتّصال التي ندّدت بشدّة في السابق بابنتيّ وصهر العجوز الذي دُفن مع الحفيد، ثمّ ضمّوا إلى استنكارهم ذاك العمّة العزباء المتّهمة بالمشاركة في الجريمة والتواطؤ، صارت تسم الآن بالقسوة وعدم الوطنيّة أشخاصا ذوي مظهر محترم يعمدون في ظروف الأزمة الوطنيّة الخطيرة هذه إلى إسقاط قناع النفاق الذي كانوا يخبّئون خلفه طبعهم الحقيقيّ. وعلى إثر ضغوط من حكومات البلدان الثلاثة المجاورة والمعارضة السياسيّة الداخليّة، أدان

رئيس الحكومة العمل غير الإنسانيّ، ودعا إلى الحياة، وأعلن أنّ القوّات المسلّحة ستتّخذ على الفور مواقع لها على طول الحدود لتمنع مرور أيّ مواطن في حالة قصور جسديّ نهائيّ، سواء أكانت المحاولة بمبادرة شخصيّة أم مدبّرة بقرار متعسّف من الأقارب. أمّا في العمق، في العمق، وهذا ما لم يتحدّث عنه الوزير الأوّل بالطبع، فلم تكن الحكومة تنظر بعين السوء إلى خروج يخدم، في التحليل الأخير، مصلحة البلاد بقدر ما يساعد على تخفيض ضغط ديموغرافيّ في تزايد مستمرّ منذ نحو ثلاثة شهور، وإن لم يصل بعد إلى حدود مثيرة للقلق. كما أنّ رئيس الحكومة لم يقل إنّه، في هذا اليوم بالذات، قد اجتمع سرّا مع وزير الداخليّة بهدف التخطيط لنشر حرّاس، أو جواسيس، في جميع مناطق البلاد، من مدن وبلدات وقرى، بمهمّة إطلاع السلطات على أيّ تحرّك مريب صادر عن أشخاص مقرّبين من مرضى في حالة موت معطّل. قرار التدخّل من عدمه سيُدرس في كلّ حالة على حدة، ذلك أنّه ليس من أهداف الحكومة الكبح الكامل لهذا النوع الجديد من الهجرة، وإنّما توفير ارتياح جزئيّ لقلق حكومات البلدان ذات الحدود المشتركة، بما يكفي لتهدئة الشكاوى لبعض الوقت. لسنا هنا لنفعل ما يريدونه، قال رئيس الوزراء بتسلّط، ولاحظ وزير الداخليّة، مازالت الدساكر الصغيرة والملكيّات والبيوت المعزولة خارج الخطّة، فقال رئيس الحكومة، هؤلاء سنتركهم مطمئنّين، وليفعلوا ما يرونه، فأنت تعرف جيّدا يا عزيزي الوزير، ومن خلال التجربة، أنّه من المستحيل وضع شرطيّ إلى جانب كلّ شخص.

سارت الخطّة خلال أسبوعين بدقّة كاملة تقريبا، ولكن بعض الحرّاس بدؤوا بعد ذلك بالشكوى من أنّهم يتلقّون تهديدات عبر الهاتف، تتوعّدهم، إذا كانوا يريدون أن يعيشوا حياة هادئة عليهم أن يغضّوا

النظر عن التهريب السرّيّ للمرضى النهائيّين، بل أن يغمضوا عيونهم تماما إذا كانوا غير راغبين في أن يضيفوا أجسادهم بالذات إلى أعداد الأشخاص المكلّفين بمراقبتهم. ولم تكن مجرّد كلمات فارغة، وهو ما تأكّد عندما تلقّت أسر أربعة حرّاس إشعارا عبر مكالمات هاتفيّة مجهولة بأنّه عليها التقاطهم من أماكن معيّنة. ومن الحالة التي وجدوهم عليها، يمكن القول إنّهم لم يكونوا ميّتين، ولكنّهم لم يكونوا أحياء كذلك. وحيال خطورة الوضع، قرّر وزير الداخليّة أن يُظهر سلطته للعدوّ المجهول، فأمر بأن يضاعف الجواسيس تحرّياتهم من جهة، وأن يُلغى من جهة أخرى نظام التنقيط وعدّ القطرات، هذا نعم وهذا لا، الذي كان يُطبّق وفقا لتكتيك الوزير الأوّل. وكان الردّ فوريّا، إذ تعرّض أربعة حرّاس آخرين للمصير الحزين الذي تعرّض له السابقون، ولم يكن هناك في هذه الحالة سوى مكالمة هاتفيّة وحيدة موجّهة إلى وزير الداخليّة، يمكن فهمها على أنّها استفزاز أو عمل محدّد بالمنطق المحض، كمن يريد القول، نحن موجودون. ولكنّ الرسالة لم تتوقّف عند هذا الحدّ، بل كانت تتضمّن ملحقا يمثّل اقتراحا بنّاءً، فلنقرّ اتّفاق جنتلمان، قال الصوت من الطرف الآخر للخطّ الهاتفيّ، أن تأمر الوزارة بسحب الحرّاس ونتولّى نحن نقل المرضى مباشرة، من أنتم، سأل مدير الخدمات الذي ردّ على المكالمة، إنّنا أناس محبّون للنظام والانضباط، أناس على قدر كبير من الكفاءة في اختصاصهم، يمقتون الفوضى وينفّذون دائما ما يَعدون به، وباختصار، نحن أناس شرفاء، وهل لهذه الجماعة اسم، أراد الموظف أن يعرف، هناك من يسمّوننا مافيا، وتُكتب maphia، بـ ph، لماذا تُكتب بـ ph، لكي نتميز عن المافيا الأخرى الـ mafia التقليدية، الدولة لا تعقد اتّفاقات مع مافيات، بالطبع لا تعقد اتّفاقيّات على الورق موقّعة ومصادق عليها لدى كاتب بالعدل، لا هذه الاتّفاقيّات ولا غيرها،

ما هو منصبك؟ أنا مدير الخدمات، وهذا يعني أنّكَ شخص لا يعرف شيئا عن الحياة الواقعيّة، لديّ مسؤوليّاتي، ما يهمّنا في الوقت الحاليّ هو أن تنقل اقتراحنا إلى صاحب الاختصاص، أي الوزير، إذا كنت ممّن يصلون إليه، لست ممّن يصلون إلى الوزير، ولكن المرجع المسؤول سيطّلع على هذه المحادثة فورا، لدى الحكومة ثمان وأربعون ساعة كي تدرس الاقتراح، بلا زيادة دقيقة واحدة، ولكن أخبر مرجعك المسؤول بأنّه سيكون هناك تسعة حرّاس في حالة كوما إذا كان الجواب مخالفا لما ننتظره، سأخبره بذلك، وبعد غد في مثل هذه الساعة سأعاود الاتّصال بك لأعرف القرار، لقد دُوّنت الملاحظة، أسعدني التحدّث إلى حضرتك، لا يمكنني مبادلتك هذا الشعور، إنّني واثق من أنّك ستبدأ بتبديل رأيك عندما تعلم أنّ الحرّاس سيعودون سالمين معافين إلى بيوتهم، وإذا كنت لا تزال تحفظ صلوات ممّا تعلّمت في طفولتك، فابدأ بترتيلها كي يكون هذا هو ما سيحدث، أتفهّمُ ما تعنيه، كنتُ أعرفُ أنك ستتفهّمه، وهو كذلك، ثمان وأربعون ساعة، دون زيادة دقيقة واحدة، لن أكون أنا بكلّ تأكيد من سيردّ على مكالمتك، أمّا أنا فإنّني متأكّد من أنّك ستكون أنت، لماذا؟ لأنّ الوزير لن يوافق على التكلّم معي مباشرة، أضف إلى ذلك أنّه إذا مضت الأمور نحو الأسوإ فستكون أنت من تُلقى عليه التبعات، وتذكّر أنّ ما نقترحه هو اتّفاق جنتلمان بين فرسان، أجل يا سيدي، طاب مساؤك، طاب مساؤك. سحب موظف الخدمة الشريط المغنط من آلة التسجيل وذهب للتحدّث مع المرجع المسؤول.

بعد نصف ساعة من ذلك كان الشريط بين يدي وزير الداخليّة. فاستمع إليه، وأعاد سماعه، ثمّ سمعه للمرّة الثالثة، وبعد ذلك سأل، هل مدير الخدمات هذا من الثقات؟ حتّى هذا اليوم لم يكن لديّ أدنى سبب للشك به، أجاب المرجع المسؤول، وآمل ألاّ يكون لديك أقصى سبب، لا

أقصى ولا أدنى، قال المرجع المسؤول الذي لم ينتبه إلى السخرية. أخرج الوزير الكاسيت من آلة التسجيل، وراح يسحب الشريط منه. وعندما انتهى من سحبه وضعه في منفضة سجائر من الكريستال وقرّب منه لهب ولّاعة. بدأ الشريط يتجعّد ويتلوّى، وفي دقيقة واحدة تحوّل إلى تشابك مفتّت ضارب إلى السواد، ولا شكل له. لا بدّ أنّهم هم أيضا قد سجّلوا الحوار مع مدير الخدمات، قال المرجع المسؤول، لا أهميّة لذلك، فيمكن لأي شخص أن يفبرك محادثة هاتفيّة، فباستخدام صوتين وآلة تسجيل يكون لديه أكثر ممّا هو كاف، وما يحسب هنا هو أنّنا أتلفنا شريطنا، وبإحراق الأصل تُحرق مقدّمًا كلّ النسخ الممكنة، لا حاجة لأن أقول لك إنّ عاملة مقسّم الهاتف تحتفظ بالأصول، فلنحتط بإتلاف تلك الأصول أيضا، حاضر يا سيّدي، وإذا ما سمحت لي الآن، سأنسحب وأتركك لكي تفكّر في المسألة، لقد فكّرتُ في الأمر، لا تذهب، لا يفاجئني ذلك في الواقع، فحضرتك تتمتّع بامتلاك تفكير نشيط جدّا، وتلك ميزتك، ما قلته يمكن أن يكون تملّقا لولا أنّه واقعيّ، فالصحيح أنّني أفكّر بسرعة، هل ستوافق على الاقتراح، سأقدّم اقتراحا مضادّا، أخشى أنّهم لن يوافقوا عليه، فالعبارات التي استخدمها المتّصل، فضلا عن أنّها حاسمة، كانت أكثر من متوعّدة، سيكون هناك مزيد من الحرّاس في حالة كوما إذا كان الجواب مخالفا لما ننتظره، هكذا كانت كلماته، يا صديقي العزيز، الجواب الذي سنقدّمه إليهم هو ما ينتظرونه بالضبط، لست أفهم، مشكلتك يا صديقي العزيز، وأقول هذا دون نيّة إغضابك، أنّك عاجز عن التفكير مثل وزير، هذه خطيئتي، وأنا آسف لذلك، لا تتأسّف، فإذا ما استدعوك يوما لخدمة البلاد في وظيفة وزاريّة سترى كيف أنّ التفافة مفاجئة ستحدث في دماغك في اللحظة نفسها التي تجلس فيها على كرسيّ مثل هذا، لا يمكن لك تخيّل الفرق، تغذية الأوهام لن

توصلني بعيدا جدّا، إنّني مجرّد موظّف، أنت تعرف القول القديم، لا تقل أبدا إنّك لن تشرب من هذا الماء، وأمام حضرتك الآن ماء مرّ لتشربه، قال المرجع المسؤول مشيرا إلى بقايا الشريط المحروق، عندما تُتّبع إستراتيجيّة محدّدة جيّدا وتُعرف معطيات القضيّة بصورة كافية، لن يكون من الصعب رسم خطّ عمل مضمون، كلّي آذان مصغية يا سيّدي الوزير، بعد غد، سيقول مدير الخدمات لديك، لأنّه هو من سيردّ على المتّصل، سيكون هو المفاوض من جانب الوزارة، ولا أحد سواه، سيقول إنّنا موافقون على دراسة الاقتراح الذي قدّموه إلينا، ولكنّه يستبق على الفور بأنّ الرأي العامّ ومعارضي الحكومة لن يسمحوا بأن يُسحب آلاف الحرّاس من مهمّاتهم دون تفسير مقبول، ومن الواضح أنّ هذا التفسير المقبول لا يمكن أن يكون بتولّي المافيا الآن العمليّة، هكذا هو الأمر، وإن كان يمكن لك أن تقوله بعبارات منتقاة بصورة أفضل، اعذرني يا سيّدي الوزير، فقد خرجت الكلمات مني دون أن أفكّر فيها، حسن، وبالوصول إلى هذه النقطة، يقدّم مدير الخدمات اقتراحا مضادّا، ويمكن لنا كذلك أن نسمّيه اقتراحا بديلا، بمعنى أنّ الحرّاس لن يُسحبوا، بل سيبقون في أماكنهم التي هم فيها الآن، ولكنّهم يصيرون معطّلين، معطّلون، أجل، أظنّ أنّ الكلمة واضحة تماما، لا شكّ في ذلك يا سيّدي الوزير، فقد عبّرتُ عن مفاجأتي وحسب، لا أرى سببا للمفاجأة، فهذه هي الطريقة الوحيدة المتوافرة كي لا نبدو كأنّنا قد خضعنا لابتزاز عصابة الأوغاد، بالرغم من أنّنا سنكون قد خضعنا في الواقع، المهمّ هو ألاّ يُكشف ذلك، وأن نحافظ على المظاهر، وما يجري في الخلفيّة لن يكون من مسؤوليّتنا، مثل ماذا؟ لنتخيّل أنّنا اعترضنا الآن وسيلة نقل واعتقلنا أولئك الأشخاص، فلا حاجة حينها للقول إنّ هذه المجازفات كانت مضمّنة في الفاتورة التي كان على الأقرباء دفعها، لن تكون هناك فواتير ولا

إيصالات، لأنّ المافيا لا تدفع ضرائب، إنّها مجرّد طريقة للتعبير، والمهمّ في هذه الحالة هو واقع أنّنا جميعنا سنخرج رابحين، نحن سنرفع همّا عن كاهلنا، والحرّاس لن يتعرّضوا لمزيد من الأذى الجسديّ، والعائلات سترتاح وهي تعلم أنّ موتاها الأحياء سيتحوّلون أخيرا إلى أحياء موتى، والمافيا ستقبض مقابل عملها، تخطيط متكامل يا سيادة الوزير، كما أنّه سيستند إلى الضمانة القويّة بأنّ أيّا من المستفيدين لن يفتح فمه، أظنّ أنّك على حقّ، ربّما بدا لك يا صديقي العزيز أنّ وزيرك شخص صفيق، ولا بأيّ حال يا سيّدي الوزير، إنّني معجب فقط بالسرعة التي توصّلت فيها إلى ترتيب كلّ شيء بصورة راسخة ومنطقيّة ومتماسكة جدّا، إنّها الخبرة يا صديقي، إنّها الخبرة، سأذهب لأكلّم مدير الخدمات، وسأنقل إليه تعليماتك، وأنا واثق من أنّه سيؤدّي المهمّة على أحسن وجه، مثلما قلت لك من قبل، لم أجد قطّ أدنى سبب للشّكّ به، ولا أقصى سبب على ما أظنّ، ولا أيّ سبب من هذا النوع، ولا أيّ سبب من ذاك، أجاب المرجع المسؤول الذي فهم أخيرا دقّة اللمسة المازحة.

كلّ شيء، أو كلّ شيء تقريبا من أجل مزيد من الدقّة، جرى مثلما تنبّأ الوزير. ففي الموعد المحدّد بالضبط، لا دقيقة قبل ولا دقيقة بعد، أجرى ممثّل جمعيّة المجرمين التي تسمّي نفسها مافيا اتّصالا هاتفيّا ليسمع ما الذي يريد الوزير أن يقوله له، وتولّى مدير الخدمات بنبرة عالية عبء الواجب الذي أوكل إليه. كان حازما وواضحا، وكان مُقنِعا في المسألة الرئيسة، هذا يعني مسألة بقاء الحرّاس في مواقعهم، ولو معطّلين، ونال سعادة أن يتلقّى مقابل ذلك، وينقل إلى المرجع المسؤول، أفضل الإجابات الممكنة في الظرف الراهن، وهي أنّ اقتراح الحكومة البديل سيدرس باهتمام وبالتالي سيكون هناك اتّصال هاتفيّ آخر بعد أربع وعشرين ساعة. وهذا ما حصل. وبعد الدراسة تبيّن أنّ اقتراح الحكومة يمكن أن يكون مقبولا، ولكن بشرط واحد، ويتمثّل الشرط في أن يشمل التعطيل

فقط أولئك الحرّاس الذين ظلّوا على ولائهم للحكومة، وهذا يعني بكلمات أخرى، أولئك الذين لم تستطع المافيا، ببساطة، إقناعهم بالعمل مع ربّ العمل الجديد، أي المافيا نفسها. فلنبذل جهدنا في فهم وجهة نظر المجرمين. فقد وُضعوا أمام عمليّة معقّدة طويلة الأجل وعلى المستوى الوطنيّ، وصاروا مضطرّين إلى استخدام جزء لا بأس به من عامليهم المجرّبين في زيارة الأسر التي كان يمكن لها في البدء أن تميل إلى التخلّص من أحبّائها المرضى لتوفّر عليهم، بصورة جديرة بالثناء، آلاما ليست غير مجدية وحسب، وإنّما أبديّة كذلك، وكان واضحا أنّ ذلك يناسبهم، قدر الإمكان، وقد استخدموا لهذا الهدف أسلحتهم المفضّلة، أي الفساد، والرشوة، والتخويف، واستغلال خدَمات شبكة المخبرين الضخمة المتوفّرة مسبقا لدى الحكومة. وبهذا الحجر الذي ألقي فجأة في منتصف الطريق تعثّرت إستراتيجيّة وزير الداخلية ملحقة ضررا بالغا بكرامة الدولة والحكومة. ولأنّه علق بين الجدار والسيف، بين إسيلا وكاريبديس[1]، بين المطرقة والسندان، فقد هرع ليتناقش مع الوزير الأوّل في عقدة المعضلة غير المتوقّعة التي ظهرت فجأة. والسيّئ هو أنّ الأمور كانت قد أوغلت بعيدا حيث لم يعد التراجع ممكنا الآن. وعلى الرغم من تمتّع الوزير الأوّل بخبرة أكبر من خبرة وزير الداخليّة، إلاّ أنّه لم يجد مخرجا للخلاف أفضل من اقتراح مفاوضات جديدة تجري الآن بإقرار نوع من النسبيّة، كأن يتحوّل نحو خمسة وعشرين بالمائة من عدد الحرّاس العاملين، كحدّ أقصى، إلى العمل لمصلحة الجانب الآخر. ومرّة أخرى كان على مدير الخدمات أن ينقل إلى محدّث فقد صبره خطّة المصالحة التي يثق رئيس الحكومة ووزير الداخليّة بأنّ الاتّفاق سيكون متناظرا بفضلها، مدفوعين في ذلك بلهفتهما إلى تعزيز الآمال، وأنّ الاتّفاق

(1) إسيلا وكاريبديس escila y Caribdis: اسم دوامة مائية وصخرة ناتئة في مضيق مسينا الذي كان الملاحون القدماء يخشون الإبحار فيه.

سيكون دون تواقيع، على اعتبار أنّه اتّفاق جنتلمان، من تلك الاتّفاقات التي يكفي فيها التزام الكلمة ببساطة، وبغضّ النظر، كما يوضّح لنا معجم اللغة، عن كلّ الشكليّات القانونيّة. كان ذلك جهلا مطبقا بمدى التواء روح المافياويّين وخبثها. ففي المقام الأوّل، لم يقرّوا أيّ موعد للردّ، تاركين وزير الداخليّة المسكين على أحرّ من الجمر، ومتأهّبا لتقديم ورقة استقالته. وفي المقام الثاني، وعندما قرّروا بعد عدّة أيّام أنّه يتوجّب عليهم الردّ، لم يفعلوا ذلك إلاّ ليقولوا إنّهم لم يتوصّلوا بعد إلى أيّ نتيجة حول ما إذا كانت الخطّة مناسبة للمصالحة بالنسبة إليهم أم لا، وبصورة عابرة، كمن هو غير راغب في الأمر، انتهزوا الفرصة للإخبار بأنّه ليس لهم أيّ علاقة بحادث اليوم السابق المؤسف الذي عُثر فيه على أربعة حرّاس آخرين في حالة صحيّة متردية جدّا. وفي المقام الثالث، ولأنّ لكلّ انتظار نهاية، سواء أكانت سعيدة أم تعيسة، فإنّ الردّ الذي نقلته الإدارة العامّة للمافيا إلى الحكومة، عبر مدير الخدمات والمرجع المسؤول، ينقسم إلى نقطتين هما، النقطة أ، لن تكون النسبة العدديّة خمسة وعشرين بالمائة، بل خمسة وثلاثين بالمائة، والنقطة ب، تطالب المنظّمة بأن يُعترف لها بالحقّ، كلّما وجدت ذلك مناسبا لمصالحها، ودون حاجة إلى استشارة السلطات مسبقا، وبالتالي دون الحاجة إلى موافقتها على تحويل حرّاس للعمل في خدمتها، في الأمكنة التي يتواجد فيها حرّاس معطّلون، على أن يكون واضحا أنّ أولئك سيحلّون في أماكن هؤلاء. والمبدأ هو خُذْ الاتّفاق كاملا أو اتركه كاملا. هل ترى طريقة للإفلات من هذا الخيار، سأل رئيسُ الحكومة وزيرَ الداخليّة، لا أظنّ أنّه ثمّت وجود لطريقة كهذه يا سيّدي، لأنّنا إذا رفضنا فسوف نجد أربعة حرّاس معطّلين من الخدمة ومن الحياة في كلّ يوم يمرّ، وإذا قبلنا، فسنكون في قبضة هؤلاء الناس لوقت لا يعرفه إلاّ الله، إلى الأبد، أو على الأقلّ ما دامت هناك عائلات تريد التحرّر بأيّ ثمن من عرقلة المرضى

الذين في بيوتهم، هذا الأمر أوحى لي بفكرة، لا أدري إذا كان عليّ أن أبتهج، لقد قمتُ بأفضل ما أستطيعه أيّها السيّد الوزير الأوّل، وإذا كنتُ قد تحوّلت إلى عقبة من نوع آخر فما عليك إلاّ أن تقول لي كلمة واحدة، قل ما لديك، ولا تكن حسّاسا، ما هي فكرتك؟ أظنّ يا سيادة الوزير الأوّل أنّنا في مواجهة نموذج واضح من العرض والطلب، وما علاقة هذا بموضوعنا؟ إنّنا نتحدّث عن أشخاص ليس أمامهم في هذا الوقت سوى طريقة واحدة للموت، مثلما هي الحال في مسألة الشكّ الكلاسيكيّة حول من ظهر أوّلا، الدجاجة أم البيضة، لا يمكن لنا التمييز هنا أيضا إذا كان الطلب قد سبق العرض، أم أنّ الأمر معكوس، وأنّ العرض هو الذي حرّك الطلب، أرى أن سحبكَ من وزارة الداخليّة ووضعك في وزارة الاقتصاد لن يكون سياسة سيّئة، ليس الاختلاف كبيرا بينهما كما تعتقد يا سيادة الوزير الأوّل، فمثلما يوجد في وزارة الداخليّة اقتصاد، توجد داخليّة كذلك في وزارة الاقتصاد، إنّها أوانٍ مستطرقة إذا صحّ التعبير، لا تَشرد بعيدا، وأخبرني ما هي فكرتك، لو لم يخطر لتلك الأسرة الأولى أنّ حلّ المشكلة يمكن أن يكون في انتظارها في الجانب الآخر من الحدود، فربّما كان الوضع الذي نحن فيه الآن مختلفا، ولو أنّ عائلات كثيرة لم تحاكِ بعد ذلك ما فعلته تلك الأسرة، لما كانت المافيا قد ظهرت لاستغلال تجارة ما كانت لها أن توجد بكلّ بساطة، هكذا هو الأمر نظريّا، وإن كان هؤلاء قادرين، مثلما نعلم، على عصر الماء من حجر لا ماء فيه وبيعه بعد ذلك بسعر أغلى، ولكنّني على أيّ حال مازلت غير قادر على رؤية ما هي فكرتك هذه، إنّها بسيطة يا سيادة الوزير الأوّل، عسى أن تكون كذلك، إنّها بكلمات قليلة تجفيف مصدر العرض، وكيف يمكن التوصّل إلى ذلك، بإقناع العائلات، باسم أقدس المبادئ الإنسانيّة، باسم حبّ القريب والتضامن، كي يحتفظوا بمرضاهم النهائيّين في البيوت، وكيف يمكننا إحداث هذه المعجزة برأيك، إنّني أفكّر في حملة

دعائيّة كبرى في كلّ وسائل الإعلام، الصحف، التلفزيون، الإذاعة، وحتّى المظاهرات في الشارع، وجلسات توضيح، وتوزيع منشورات وملصقات، ومسرح الشارع، وقاعات السينما، وبصورة خاصّة إنتاج مسلسلات دراما عاطفيّة ورسوم متحرّكة، حملة قادرة على التأثير لدرجة استدرار الدموع، حملة تقود الأقارب المنحرفين عن واجباتهم إلى الندم وتجعلهم أشخاصا متضامنين، ناكرين للذات، رحماء، وأنا واثق أنّ العائلات الخاطئة ستعي خلال وقت قصير جدّا قسوة سلوكها الحالي التي لا تغتفر، وترجع إلى القيم السامية التي كانت لا تزال حتّى وقت قريب قاعدتها الراسخة، إنّ شكوكي تتزايد في كلّ لحظة، وأنا أتساءل الآن ألا يتوجّب أن تقدّم إليك حقيبة الثقافة، أو الأديان التي أجد لديك أيضا بعض الميول تجاهها، ويمكن لك كذلك يا سيادة الوزير الأوّل أن تجمع الحقائب الثلاث في وزارة واحدة، وهل توضع معها حقيبة الاقتصاد أيضا؟ أجل، من أجل مسألة الأواني المستطرقة، ولكنّ الحقيبة التي لن تنفع فيها يا صديقي العزيز هي الدعاية، ففكرتك هذه عن الدعاية التي تجعل العائلات تعود إلى حظيرة الأرواح الحسّاسة ما هي إلاّ بلاهة كاملة، لماذا يا سيادة الوزير الأوّل؟ لأنّ حملات من هذا النوع لا نفع فيها في الواقع إلاّ لمن يتقاضى تكاليفها، لقد قمنا بحملات كثيرة، أجل، وبالنتائج المعروفة، وفوق ذلك، بالعودة إلى المسألة التي تشغلنا، لو افترضنا أنّ الحملة ستتوصّل إلى نتائج، فإنّ ذلك لن يتحقّق اليوم أو غدا، وأنا عليّ أن أتّخذ قرارا الآن بالذات، إنّني بانتظار أوامرك يا سيادة الوزير الأوّل. ابتسم رئيس الحكومة بيأس، كلّ شيء مضحك وسخيف، قال، نحن نعرف جيّدا أنّه ليس لدينا خيارات وأنّ الاقتراحات التي تقدّمنا بها لم تنفع إلاّ في زيادة الوضع سوءا، وفي هذه الحال؟ في هذه الحال، وإذا كنّا لا نريد أن نُحمّل ضميرنا مسؤوليّة أربعة حرّاس في كلّ يوم يُدفعون بالضرب حتّى بوّابة الموت، فلا يبقى أمامنا سبيل آخر سوى

قبول الشروط التي عرضوها علينا، يمكننا إطلاق عمليّة بوليسيّة خاطفة، عمليّة مداهمة، ونزجّ في السجن ببضع عشرات من عناصر المافيا، وربّما نفلح بذلك في جعلهم يتراجعون، الطريقة الوحيدة للقضاء على التنّين هي قطع رأسه، أمّا تقليم أظفاره فلا يفيد في شيء، لا بدّ أن يفيد في شيء مّا، سنخسر أربعة حرّاس في اليوم، تذكّر ذلك أيّها السيّد وزير الداخليّة، أربعة حرّاس في اليوم، من الأفضل الاعتراف بأنّنا نجد أنفسنا مقيّدي القدمين واليدين، المعارضة ستهاجمنا بمزيد من القسوة، وستتّهمنا ببيع البلد إلى المافيا، لن يقولوا البلد، بل سيقولون الوطن، وهذا أسوأ، نأمل أن تمدّ لنا الكنيسة يد المساعدة، وأتصوّر أنّ رجالها قابلون للتأثّر بحجّة أنّنا اتّخذنا هذا القرار لإنقاذ حياة الحرّاس، إضافة إلى تقديم بعض الموتى المفيدين لهم، لم يعد بالإمكان التكلّم عن إنقاذ حيوات يا سيادة الوزير الأوّل، فهذا من الماضي، معك حقّ، لا بدّ لنا من ابتكار تعبير آخر. ساد صمت. وبعد ذلك قال رئيس الحكومة، فلننه هذا الأمر، وجّه التعليمات الضروريّة لمدير خدماتك وابدأ العمل بخطّة التعطيل، وعلينا أن نعرف كذلك ما هي أفكار المافيا حول التوزّع الجغرافيّ لنسبة الخمسة والعشرين بالمائة من الحرّاس المطلوبين، النسبة هي خمسة وثلاثون يا سيادة الوزير الأوّل، لن أشكرك لأنّك ذكّرتني بأنّ هزيمتنا أكبر ممّا بدا أنّه لا يمكن تجنّبه في البداية، إنّه يوم حزين، لن تسمّيه هكذا عائلات الحرّاس الأربعة التالين لو أنّها تعلم بما يجري هنا، وماذا لو فكّرنا في أنّه يمكن لهؤلاء الحرّاس الأربعة أن يعملوا غدا لمصلحة المافيا؟ هكذا هي الحياة يا عزيزي حامل لقب وزير الأواني المستطرقة، بل الداخليّة يا سيادة رئيس الوزراء، الداخليّة، هذه هي الوديعة المركزيّة.



قد يظنّ البعض أنّه بعد حالات استسلام كثيرة ومخزية مثلما هو استسلام الحكومة خلال صفقات خذ وهات التي عقدتها مع المافيا، ووصلت بها إلى حدّ القبول بأن ينتقل موظّفون عموميّون بائسون وشرفاء إلى العمل بدوام كامل لمصلحة المنظّمة الإجراميّة، قد يُظنّ، كما قلنا، أنّه ربّما لن يكون ثمّت وضاعة أكبر. ولسوء الحظّ أنّ التوغّل، بالتلمّس، في أراضي السياسة الواقعيّة المستنقعيّة، عندما تمسك البرجماتيّة بعصا قائد الأوركسترا وتقود الفرقة الموسيقيّة دون أن تهتمّ بما هو مدوّن في النوتة، سيكون مؤكّدا أنّ منطق الدناءة المحتوم سينتهي إلى البرهنة على أنّه مازالت هناك بضع درجات وضاعة أخرى يتوجّب نزولها. ومن خلال الوزير المختصّ، أي وزير الدفاع الذي كان يُسمّى وزير الحرب في أزمنة أكثر صراحة، صدرت تعليمات بأن تقتصر مهمّة قوّات الجيش التي نُشرت على طول الحدود على حراسة الطرق الرئيسيّة، وخاصّة تلك المؤدّية إلى البلدان الثلاثة المجاورة، وأن تُترك طرق الدرجة الثانية والثالثة لسلامها الرعويّ، وتُترك كذلك، بسبب العبء، الشبكة الكثيفة من الطرق الجانبيّة، والدروب، والسبل، والمسالك، والطرق المختصرة. ولأنّه لا يمكن فهم ذلك بطريقة أخرى، فإنّه يعني عودة معظم تلك القوّات إلى ثكناتها، وإذا كان صحيحا أنّ الأمر كان مصدر سعادة كبيرة للجنود العاديّين، بمن في ذلك العرفاء والعرفاء المكلّفون بالإطعام الذين ضجروا من نوبات الحراسة والدوريّات النهاريّة والليليّة، فإنّه أدى، بالمقابل، إلى استياء متأجّج في مستوى الرقباء الذين هم، كما يبدو، الأكثر وعيا من بقيّة العاملين في السلك بأهميّة قيم الشرف العسكري

وخدمة الوطن. ومع ذلك، وإذا كانت حركة هذا الاستياء قد صعدت حتّى الملازمين، وإذا كانت قد فقدت قدرا من اندفاعها عند مستوى الملازمين الأوّلين، فالصحيح أنّها عادت لاكتساب قوّة، وقوّة كبيرة، عند وصولها إلى مستوى النقباء. ولم يكن بينهم بالطبع من يتجرّأ على التلفّظ بكلمة مافيا الخطرة بصوت عالٍ، ولكنّهم حين يتجادلون في ما بينهم لا يستطيعون تجنّب الإتيان على ذكر واقع أنّه في الأيّام السابقة على إنهاء الاستنفار جرى اعتراض عدد من الشاحنات التي تنقل مرضى نهائيّين، وكان يجلس فيها، إلى جانب السائق، حارس مكلّف رسميّا، يعرض عليهم، حتّى قبل أن يطلبوا منه ذلك، وثيقة عليها كلّ التواقيع والأختام الضروريّة التي تسمح صراحة، لأسباب تتعلّق بالمصلحة الوطنيّة، بنقل المريض فلان الفلاني إلى وجهة غير محدّدة، ولكنّها تجزم بأنّه يتوجّب على القوّات العسكريّة أن تعتبر نفسها مجبرة على تقديم التسهيلات التي تُطلب منها لتضمن لمستقلّي الشاحنة الفعاليّة التامّة في عمليّة النقل. وما كان يمكن لذلك كلّه أن يستثير الشكوك في نفوس الرقباء الوقورين لو لم تحدث، في سبع مناسبات على الأقلّ، المصادفة الغريبة المتمثّلة في غمز الحارس بعينه للجنديّ وهو يقدّم إليه الوثيقة ليتأكّد من صحّتها. وبالنظر إلى التباعد الجغرافيّ بين الأماكن التي جرت فيها هذه الوقائع في حياة الحملة العسكريّة، فقد استُبعدت على الفور إمكانيّة أن تكون مجرّد إيماءة خاطئة، إذا صحّت هذه التسمية، أو حركة لها علاقة بأشدّ رسائل الإغواء بدائيّة بين أشخاص من الجنس نفسه أو من جنسين مختلفين، والأمر سيان في هذه الحالة. وبالنظر إلى التوتّر الذي بدت مظاهره واضحة على الحرّاس حينذاك، وإن كان صحيحا أنّها بدت على بعضهم بوضوح أكثر من آخرين، ولكنّهم جميعهم كانوا يبدون، بطريقة مّا، كمن يلقي إلى البحر قارورة فيها ورقة تطلب النجدة، وهو ما دفع مؤسّسة الرقباء الفطنة إلى التفكير في أنّه لا بدّ أن يكون مختبئا

في الشاحنات ذلك الهرّ المشهور الذي يجد على الدوام طريقة لترك طرف ذيله ظاهرا عندما يريد أن يكتشفوه. وبعد ذلك جاء الأمر الذي لا تفسير له بالرجوع إلى الثكنات، ثمّ بعض الهمسات هنا وهناك، لا يعرف أحد كيف بدأت ولا أين، غير أنّ بعض النمّامين يُلمِّحون، همسا، إلى أنّها قد تكون ولدت في وزارة الداخليّة نفسها. ردّدت صحف المعارضة أصداء أجواء الهواء الخبيث الذي يسود الثكنات العسكريّة، ونفت الصحف المقرّبة من الحكومة بشدّة أن تكون تلك الأبخرة العفنة تسمّم روحَ كيانِ القوّات المسلّحة، ولكن المؤكّد أنّ الشائعات عن انقلاب عسكريّ يجري التحضير له، وإن لم يكن هناك من هو قادر على معرفة لماذا ومن أجل أيّ شيء، راحت تتعالى في كلّ مكان ودفعت إلى مستوى تال، آنيًّا، الاهتمام العامّ بمشكلة المرضى الذين لا يموتون. وهذا لا يعني أنَّ الأمر قد نُسي تماما، مثلما تؤكّد جملة جرى تداولها آنذاك وكرّرها بكثرة روّاد المقاهي، وتقول، حتّى لو وقع انقلاب عسكريّ، هناك أمر واحد على الأقلّ يمكننا أن نكون واثقين منه، فمهما تكاثر الرصاص الذي سيتبادله الجانبان، لن يتمكّن من قتل أحد. كان يُنتظر بين لحظة وأخرى صدور نداء دراماتيكيّ من الملك لمصلحة الوئام الوطنيّ، وبيان من الحكومة يعلن عن حزمة إجراءات مستعجلة، وتصريح من القيادات العليا للجيش والطيران – لأنّه لا وجود لقوّات بحريّة، بسبب عدم وجود بحر في البلاد – يعلن الولاء المطلق للسلطات الدستوريّة الشرعيّة، وبيان كتّاب، وموقف فنانين، وكونشرتو تضامنيّ، ومعرض ملصقات ثوريّة، وإضراب عامّ تدعو إليه المنظّمتان النقابيّتان معا، ومسرحيّة رعويّة يقيمها الأساقفة تدعو إلى الصلاة والصيام، وموكب غفران للتائبين، وتوزيع مكثّف لمنشورات صفراء وزرقاء وخضراء وحمراء وبيضاء، بل جرى الحديث كذلك عن الدعوة إلى تظاهرة ضخمة يشارك فيها آلاف الأشخاص من مختلف الأعمار والأوضاع ممّن هم في حالة موت معلّق، تجوب الشوارع

الرئيسة على محفّات، وكراسٍ بعجلات، وفي سيّارات إسعاف، أو على كواهل أمتن أبنائهم بنية، مع لافتة ضخمة في بداية التظاهرة تقول، نحن من نمضي حزانى هنا، في انتظاركم أنتم أيّها السعداء، مضحّية بأربع فواصل فقط من أجل الحفاظ على فعاليّة شطري الشعار. وأخيرا لم تكن هناك حاجة لشيء من هذا كلّه. صحيح أنّ الشكوك بمشاركة المافيا المباشرة في نقل المرضى لم تتبدّد، وصحيح أنّها تعزّزت وتأكّدت في ضوء بعض الحوادث التالية، لكنّ ساعة واحدة كانت كافية لأن تؤدّي تهديدات العدو الخارجي المفاجئة إلى تهدئة الخلافات الأخويّة واجتماع شمل الفئات الثلاث، الكهنوت والنبلاء وعامّة الشعب، وهو التقسيم الذي مازال ساري المفعول في هذه البلاد على الرغم من تطوّر الأفكار، والتفافها حول الملك، وحول حكومتها كذلك، وإن يكن مع بعض التحفّظات التي لها ما يبرّرها. والقضيّة، كما هي الحال دائما، يمكن أن تُروى بكلمات موجزة.

فحكومات البلدان الثلاثة المجاورة التي ثارت حفيظتها لاستمرار اجتياح أراضيها من قبل فرق دفن مافياويّة منظّمة أو عفويّة تلقائيّة، قادمة من تلك الأراضي الشاذّة التي لا يموت فيها أحد، وبعد احتجاجات دبلوماسيّة غير قليلة لم تُفد في شيء، قرّرت الحكومات الثلاث في عمل منسّق، أن تدفع قوّاتها وحامياتها الحدوديّة إلى التقدّم، مع أوامر واضحة بإطلاق النار بعد التحذير الثالث. ومن المناسب الإشارة إلى أنّ موت بعض رجال المافيا، ممّن صُرعوا عمليّا من قرب شديد بعد اجتيازهم خطّ الحدود الفاصل، وهي حوادث جرت العادة على تسميتها مصاعب المهنة، قد استُخدمت الآن ذريعة لترفع المنظّمة أسعار قائمة الخدمات التي تقدّمها تحت بند أمن العاملين والمخاطر العمليّاتيّة. وبذكرنا هذا التوضيح الصغير حول سير عمل الإدارة المافياويّة، ننتقل الآن إلى المهمّ. فمرّة أخرى، وبعد تصريف ارتباك الحكومة وتردّد القيادة العليا للقوّات

المسلّحة في مناورة تكتيكيّة واضحة، استعاد الرقباء زمام المبادرة وكانوا، أمام أنظار العالم بأسره، هم الدعاة والمحرّضين - وبالتالي هم الأبطال أيضا - لحركة احتجاج شعبيّة خرجت من البيوت لتطالب، جماهيريًا، في الساحات، وفي الجادّات والشوارع، بعودة القوّات إلى جبهة المعركة فورا. فباستهتار وبعدم تحسّس المشاكل الخطيرة التي تواجهها هذه البلاد في أزماتها الرباعيّة، ديمغرافيّة، واجتماعيّة، وسياسيّة، واقتصاديّة، قامت بلدان الجانب الآخر الثلاثة بخلع الأقنعة أخيرا وكشفت في ضوء النهار عن وجهها الحقيقيّ، وجه الغزاة القساة والإمبرياليّين المتعجرفين. كلّ ما هنالك أنّهم يحسدوننا، هذا ما كان يقال في المتاجر والبيوت، ويُسمع من الإذاعة والتلفزيون، ويُقرأ في الصحف، كلّ ما هنالك أنّهم يحسدوننا لأنّه لا موت في وطننا، ولهذا يريدون غزونا واحتلال أراضينا، كي لا يموتوا هم أيضا. وخلال يومين، في مسيرات منهكة، ورايات خفّاقة، عاد الجنود وهم ينشدون المارسيليز، وماريا الينبوع، ونشيد الميثاق، ولن يروا بلادنا، والراية الحمراء، والبرتغاليّة، وليحفظ الله الملك، والنشيد الأممي، وألمانيا فوق الجميع، ونشيد الماريّات الثلاث، وراية النجوم والخطوط، عاد الجنود إلى المواقع التي كانوا قد جاؤوا منها. وانتظروا الهجومَ والمجدَ بأقدام ثابتة، مسلّحين حتّى الأسنان،. لم يحدث ذلك. فلا هجوم ولا مجد. لأنّه لم يكن ثمّت غزو ولا إمبرياليّة، فما كانت ترمي إليه البلدان الثلاثة المجاورة دون تصريح هو ألاّ يجري دفن هذا النوع الجديد من المهاجرين الاضطراريّين، ولو أنّهم يكتفون بالدفن، فلا بأس، ولكنّهم قد يذهبون كذلك ليقتلوا، ليغتالوا، ليُصفّوا، ليُطفئوا، لأنّهم يجتازون الحدود في تلك اللحظة الدقيقة والمشؤومة وأقدامهم إلى الأمام تسبقهم كي تتمكّن رؤوسهم من ملاحظة ما يجري في بقيّة أجسادهم، بينما يموت عاثرو الحظّ، ويلفظون النفس الأخير. كان المعسكران الشجاعان يقفان وجها

لوجه، ولكنّ الدماء لم تصل في هذه المرّة أيضا إلى النهر. ولاحظوا أنّ ذلك لم يكن بمشيئة جنود هذا الجانب الذي هنا، لأنّ هؤلاء كانوا واثقين من أنّهم لن يموتوا حتّى لو قطّعتهم زخّة رشّاش إلى نصفين. ولا بدّ لنا من التساؤل، وإن بدافع الفضول العلميّ المشروع، كيف يمكن الإبقاء على حياة الجزأين المنفصلين في تلك الحالات التي تبقى فيها المعدة في جانب والأمعاء في جانب آخر. ومهما يكن الأمر، فإنّه ما كان يمكن إلاّ لمجنون كامل يستحقّ التقييد أن تخطر له فكرة إطلاق الرصاصة الأولى. ولكن هذه الرصاصة، والحمد لله، لم تُطلق قطّ. وحتّى في حالة بعض جنود الجانب الآخر الذين قرّروا الانشقاق والهرب إلى مملكة إلدورادو التي لا موت فيها، لم تتمخّض إلاّ عن إعادتهم فورا إلى موطنهم الأصليّ، حيث كان بانتظارهم مجلس حربيّ. وهذه الواقعة التي انتهينا من إيرادها ليس لها أيّ أهميّة على الإطلاق في سياق القصّة الشاقّة التي نرويها، ولن نعود إلى التحدّث عنها، ولكنّنا لم نشأ مع ذلك تركها غارقة في ظلمة دواة الحبر. فالاحتمال الغالب هو أنّ المجلس الحربيّ قد قرّر مسبقا ألاّ يأخذ بالاعتبار، في مداولاته، اللهفة الساذجة إلى حياة الخلود التي تسكن القلب البشريّ منذ الأزل، فأين سينتهي هذا كلّه إذا ما عشنا جميعنا حياة أبديّة، أجل، أين سينتهي كلّ هذا، سيسأل الإدّعاء موجّها ضربة من أخفض أشكال الخطابة، أمّا الدفاع، واسمحوا لنا أن نستبق الأمور، فلن تكون لديه روح للعثور على جواب يرتقي إلى مستوى المناسبة، لأنّه هو أيضا لا يملك أيّ تصوّر عن مآل هذا كلّه. ويؤمل ألاّ ينتهي الأمر على الأقلّ بإعدام أولئك الجنود المساكين رميا بالرصاص. لأنّه سيقال عندئذ، وبكلّ حقّ، إنّهم ذهبوا بحثا عن الصوف ورجعوا مجزوزين.

فلنتحوّل عن هذا الموضوع. ولنتحدّث عن ارتياب الرقباء وحلفائهم الملازمين والنقباء حول مسؤوليّة المافيا المباشرة في نقل المرضى حتّى الحدود، وكنّا قد أشرنا من قبل إلى أنّ هذه الشكوك قد تعزّزت بفعل

بعض الأحداث اللاحقة. وهذه هي اللحظة المناسبة للكشف عنها وعن كيفيّة تطوّرها. ففي محاكاة لما فعلته أسرة صغار المزارعين التي بدأت هذه العمليّة، لم يكن ما تفعله المافيا بكلّ بساطة سوى اجتياز الحدود ودفن الموتى، ولكنّها كانت تتقاضى مقابل ذلك مبلغا طائلا. وفارق آخر، هو أنّها تقوم بالدفن دون أيّ اهتمام بجماليّة المكان، ودون أن تدوّن كذلك في سجلّ العمليّات الإشارات ونقاط العلامات الطبوغرافيّة وقياسات الأبعاد التي يمكن لها في المستقبل أن تساعد العائلات الباكية والنادمة على إساءتها في العثور على المدفن وطلب الصفح من الميت. والآن، لا حاجة لأن يكون المرء مزوّدا بعقل إستراتيجيّ كي يفهم أنّ الجنود المصطفّين في الجانب الآخر من الحدود الثلاثة الأخرى قد تحوّلوا إلى عائق جدّيّ أمام عمليّات الدفن التي كانت تجري حتّى ذلك الحين في ظروف آمنة بالغة الدقّة. ولكنّ المافيا لن تكون جديرة باسمها لو لم تجد حلا للمشكلة. وإنّه لأمر مؤسف في الواقع، واسمحوا لي بهذا التعليق على الهامش، أنّ أشخاصا بالغي الذكاء، مثل من يقودون هذه المنظّمات الإجراميّة قد انحرفوا عن دروب التقيّد بالنظام والقانون السويّة وعصوا الوصيّة التوراتيّة الحكيمة التي تأمر بأن نكسب الخبز بعرق جبيننا، ولكن الوقائع هي الوقائع، وحتى لو كرّرنا عبارة أدامستور[1] الجريحة، آه، لست أعرف عن الغيظ مثل هذا الذي تقوله، ولنترك هنا الحيلة الباعثة على القنوط التي استخدمتها المافيا لتفادي صعوبة بدا، حسب كلّ المؤشّرات، أنّه لا مخرج منها. ومن المناسب التوضيح، قبل أن نواصل، أنّ مصطلح غيظ الذي وضعه الشاعر الملحميّ على فم المارد التعيس كان يعني في ذلك الحين، فقط، الاستياء، الحزن العميق، ولكنّ

(1) أدامستور adamastor أو مارد العواصف، شخصية متخيلة في ملحمة اللوسياداداس، أشهر ملاحم الشعر البرتغالي وأجملها، وتدور حول الكشوف الجغرافية البرتغالية، وبطل الملحمة الأساسي هو الملاح المكتشف فاسكو دي غاما.

عموم الناس قدّروا، منذ زمن وإلى الآن، وقد أحسنوا صنعا، أنّ في ذلك تبديدا لكلمة مدهشة للتعبير عن مشاعر مثل النفور، الاشمئزاز، القرف، وهذه الكلمات، مثلما يمكن للجميع أن يعرفوا، لا علاقة لها بما ذُكر أعلاه. فأيّ حذر مع الكلمات يظلّ قليلا، لأنّها تبدّل رأيها كما الأشخاص. أمّا مسألة الخدعة فلم تكن بالطبع للحشو، والربط، وللترك كي تجفّ، وكان لا بدّ للمسألة من تقليبها، ومن أن يتدخّل فيها مبعوثون بشوارب مستعارة وقبّعات متهدّلة الحافّة، وبرقيّات مشفّرة، وحوارات عبر خطوط سرّيّة، وعبر خطّ هاتفيّ أحمر، واللقاء في مفترقات دروب في منتصف الليالي، وأوراق نقديّة توضع تحت حجر، وكلّ ما نعرفه إلى هذا الحدّ أو ذاك عن مفاوضات أخرى، من تلك التي يلعب فيها الحرّاس بالنرد، إذا صحّ هذا القول. ولا يمكن التفكير كذلك في أنّها، كما في الحالة الأخرى، مجرّد صفقات جانبيّة. ففضلا عن مافيا هذه البلاد التي لا موت فيها، شاركت في المفاوضات على قدم المساواة مافيات البلدان المجاورة، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على استقلاليّة كلّ واحدة من المنظّمات الإجرامية في الإطار الوطني الذي تعمل فيه واستقلاليّة حكومتها. ولم يكن هناك أيّ تقبّل لدخول مافيا أحد هذه البلدان في مفاوضات مباشرة مع إدارة بلد آخر، بل كان أمرا يستوجب اللوم. وبالرغم من كلّ شيء، لم تصل الأمور إلى هذا الحدّ، وقد حال دون ذلك حتّى الآن، مبدأ السيادة الوطنيّة المقدّس والمهمّ جدّا للمافيات والحكومات على حدّ السواء، باعتباره آخر قطرة حياء، وهو مبدأ يبدو واضحا إلى هذا الحدّ أو ذاك بالنسبة إلى الحكومات، ولكنّه سيكون محطّ شكّ بالنسبة إلى الجمعيّات الإجراميّة إذا لم نأخذ بالاعتبار غيرة أعضائها الوحشيّة التي يدافعون بها عادة عن أراضيهم من مطامع هيمنة زملائهم في المهنة. تنسيق ذلك كلّه، ومواءمة ما هو عامّ وما هو خاصّ، وموازنة مصالح هؤلاء مع مصالح

أولئك، لم يكن بالمهمّة اليسيرة، وهو ما يفسّر أنّ الجنود، خلال أسبوعين مديدين ومضجرين من الانتظار، أمضوا الوقت في تبادل السباب بمكبرات الصوت، وإن كانوا يحاذرون على الدوام من عدم تجاوز بعض الحدود، وعدم المبالغة في نبرة الصوت، حتّى لا تصعد الإهانة إلى رأس كولونيل نزق وتشتعل طروادة. وكان أكثر ما أسهم في تعقيد المفاوضات وتأخيرها واقع أنّه لم يكن لدى أيّ من مافيات البلدان الأخرى حرّاس من الشرطة يحقّقون بهم ما يريدونه، فكانت تنقصهم بالتالي وسيلة الضغط الفعّالة التي أدّت إلى نتائج جيّدة هنا. ومع أنّ هذا الجانب الغامض من المفاوضات لم يرشح إلاّ من خلال الشائعات المعهودة، إلاّ أنّ هناك تخمينات بأنّ القيادات الوسطى في جيوش البلدان المجاورة، وبموافقة المراتب العليا على التساهل وغضّ النظر، قد اقتنعت، والله وحده يعلم بأيّ ثمن، بحجج الناطقين باسم المافيات المحلّية، لمغزى غضّ الطرف عن مناورات الذهاب والإياب، والتقدّم والتقهقر التي لا مفرّ منها، وفي ذلك يتلخّص حلّ المشكلة. وقد كان بإمكان أيّ طفل التوصّل إلى مثل هذه الفكرة، ولكنّ توّصله إلى جعلها فعليّة يتطلب بلوغ ما نسمّيه سنّ الرشد، والاقتراب من باب شعبة التجنيد في المافيا ليقول، ميولي جاءت بي إليكم، فافعلوا بي ما تشاؤون.

من المؤكّد أنّ محبّي الاقتضاب، محبّي أسلوب الإيجاز، أسلوب الاقتصاد في اللغة، يتساءلون لماذا، إذا كانت الفكرة بهذه البساطة، تطلّب الأمر كلّ ذلك التعليل من أجل الوصول أخيرا إلى النقطة الحرجة. الجواب على ذلك بسيط أيضا، وسنقدّمه مستخدمين مصطلحا معاصرا، حداثيّا، ونأمل أن نرى فيه تعويضا عن العبارات القديمة التي لطّخنا بها هذه القصّة بالصدإ، مثلما يُحتمل أن يكون رأي البعض، والمصطلح هو background. وحين نقول باكغراوند فإنّ الجميع يعرفون ما الذي يعنيه، ولكنّنا لن نعدم شكوكا لو أنّنا بدلا من باكغراوند قلنا

بابتذال «خلفيّة»، هذا التعبير القديم الآخر الممجوج، والأدهى أنّه أقلّ أمانة على الحقيقة، ذلك أن باكغراوند ليست الخلفيّة وحسب، إنّها كافّة المستويات التي لا حصر لها والموجودة بصورة جليّة بين الموضوع المُراقب وخطّ الأفق. سيكون من الأفضل أن نقول إطار المسألة. أجل، إطار المسألة بالضبط، والآن وقد صارت المسألة، أخيرا، مؤطّرةً لدينا جيّدا، أجل الآن، حان الوقت لكشف ماهية خدعة المافيا لتفادي إمكانيّة وقوع نزاع حربيّ لا ينفع إلاّ في إلحاق الضرر بمصالحها. وكان يمكن لطفل، كما قلنا، أن يتصوّر الفكرة. وقد كانت بكلّ بساطة هي التالية، نقل المريض إلى الجانب الآخر من الحدود، والعودة به إلى الوراء ميتا لدفنه في أحضان مسقط رأسه الأموميّ. إنّها حركة كش مات متقنة إلى أقصى حدود الصرامة، دقيقة ومضبوطة بكلّ ما في الكلمة من معنى. ومثلما نرى، تمّ حلّ المشكلة دون أن يلحق الخزي بأيّ من الأطراف المشاركة، والجيوش الأربعة التي لم يعد لديها مسوّغ للبقاء مستعدّة للحرب على الحدود، صار بإمكانها الانسحاب إلى السلام الحميد، لأنّ ما تقترح المافيا القيام به هو مجرّد الدخول والخروج، ولنتذكّر مرّة أخرى أنّ المرضى يفقدون الحياة في اللحظة نفسها التي يُنقلون فيها إلى الجانب الآخر، ومنذ تلك اللحظة لا يعودون بحاجة إلى البقاء هناك دقيقة واحدة، إنّه الوقت اللازم للموت وحسب، وإذا كان هذا هو أقصر الأوقات على الدوام، مجرّد زفرة وينتهي الأمر، فإنّه يمكن لأحدنا أن يتصوّر، في هذه الحالة، ما هو انطفاء شمعة بصورة مفاجئة دون أن ينفخ عليها أحد. لا يمكن لأشدّ أشكال الموت الرحيم أن تكون بمثل هذه السهولة والعذوبة. والأكثر إثارة للاهتمام في هذا الوضع الجديد الناشئ هو أنّ العدالة في البلد الذي بلا موت وجدت نفسها مجرّدة من المرتكزات التي تتيح لها العمل قانونيّا ضدّ الدافنين، على افتراض أنّها تريد عمل ذلك فعلا، وليست خاضعة لشروط اتّفاق الجنتلمان الذي كان على الحكومة

أن توقّعه مع المافيا. لا يمكن لها اتّهامهم بالقتل، لأنّه ليس قتلا في الواقع إذا أردنا توصيفه تقنيّا، ولأنّ الفعل محطّ اللوم - وليصنّفه بعبارة أفضل من يجد لديه القدرة على ذلك - يُقترف في بلدان أجنبيّة، كما أنّه لا يمكن لومهم على دفن الموتى، لأنّ هذا هو بالضبط قدر الموتى، ولا بدّ من تقديم الشكر لمن قرّر، تحت أيّة تسمية، تولّي مسؤوليّة هذا العمل الشاقّ، سواء من الناحية البدنيّة أو من الناحية المعنويّة. وأقصى ما يمكن التعلّل به هو أنّه لم يتولَّ أيّ طبيب إثبات الوفاة، وأنّ شكليّات الدفن المقرّرةَ لم تكمل، وأنّ القبر غير محدّد جيّدا - كما لو أنّ ذلك أمر غير مسبوق - حيث يكون من شبه المؤكّد أنّ معالم المكان ستضيع مع سقوط أولى الأمطار القويّة، وستنبثق النباتات الطريّة والسعيدة بالذُّبال الخلّاق. ومع أخذ المصاعب بالاعتبار، واحتمال الوقوع في الأساليب الموحلة التي يغوص فيها، بلا ألم ولا رحمة، محامو المافيا المحنّكون في الدسائس، قرّر القانون الانتظار بصبر لرؤية مآل هذه التقليعات. وقد كان ذلك الموقف دون شكّ هو أشدّ المواقف حذرا. فالبلاد في حالة اضطراب لم تعرفها قطّ، والحكومة مرتبكة، والسلطة ذائبة، والأسهم في حالة تَقلّب متسارع، وفقدان الاحترام المتمدّن ينتشر في كلّ قطاعات المجتمع، وربّما لا يعرف الربّ نفسه إلى أين سيوصلنا. تنتشر الإشاعة بأنّ المافيا تفاوض على اتّفاق جنتلمان آخر مع الصناعة الجنائزيّة من أجل إقرار عقلنة الجهود وتوزيع المهمّات، ممّا يعني، باللغة البيتيّة، أن تتولّى الأولى التموين بالموتى، وتساهم الوكالات الجنائزيّة بوسائل دفنهم وتقنياته. ويقال أيضا إنّ اقتراح المافيا قوبل بأذرع مفتوحة من الوكالات التي سئمت تبديد معارفها العريقة، وخبرتها، وبراعتها، وجوقات نواحها، في تنظيم مآتم لكلاب وقطط وكناريّات، وفي بعض الأحيان ببّغاوات، أو سلحفاة معمّرة، أو سنجاب مدجَّن، أو حرذون رفقة اعتاد صاحبه أن يحمله على كتفه. وكانوا يقولون، لم ننزل قطّ إلى مثلٍ هذا الدرك. وها

هو المستقبل ينكشف لهم الآن قويّا ومشرقا، والآمال تتفتّح في الحديقة زهرَ ة زهرة، حتّى صار بإمكانهم القول، مجازفين بالتناقض الجليّ، إنّ حياة جديدة لصناعة الدفن بدأت تطلّ أخيرا. وهذا كلّه بفضل مساعي المافيا الحميدة وخزائن أموالها التي لا تنضب. فهذه المافيا هي التي دعمت وكالات الدفن في العاصمة ومدن البلاد الأخرى لتقيم لها فروعا في أقرب القرى إلى الحدود مقابل تعويضات بالطبع، وهي التي اتّخذت الاحتياطات اللازمة كي يكون هناك على الدوام طبيب ينتظر المتوفّى عند إعادة إدخاله إلى الأراضي وهو في حاجة إلى من يقول إنّه ميت، وهي من توصّلت إلى اتّفاقات مع الإدارات البلديّة كي تكون لعمليّات الدفن الأسبقيّة المطلقة على ما عداها، أيّا كانت الساعة التي يناسبهم إجراء الدفن فيها، ليلا أو نهارا دون أيّ استثناء. كلّ ذلك كان يكلّف أموالا كثيرة بالطبع، ولكنّ تلك التجارة ظلّت جديرة بالمعاناة، بعد أن صارت الإضافات الآن والخدمات الممتازة تشكّل الجزء الأعظم من الفاتورة.

وفجأة، دون سابق إنذار، أُغلق الصنبور الذي كان يتدفّق منه، دون توقّف، ينبوع المرضى المنتهين، ذلك الينبوع السخيّ. بدا كما لو أنّ العائلات، في نوبة وعي مفاجئة، قد تناقلت الكلمة في ما بينها، بأنّه انتهى أمر إرسال أحبّائهم إلى الموت بعيدا، وإذا كنّا، بالمعنى المجازيّ، قد أكلنا لحومهم، فعلينا أن نأكل عظامهم كذلك الآن، ولسنا هنا للنّعم وحدها، عندما كان يتمتع هو - أو كانت تتمتّع هي - بكامل القوّة والصحّة، بل يجب أن نكون حاضرين كذلك في ساعات الشدّة، وفي ساعات الحرج الشديد، عندما يصير هو، أو هي، مجرّد خرقة نتنة لا جدوى من غسلها. انتقلت وكالات الدفن من الوفرة إلى اليأس، ومرّة أخرى إلى الإفلاس، مرّة أخرى إلى مذلّة دفن كناريّات وقطط، وكلاب وحيوانات أخرى، السلحفاة، الببّغاء، أمّا الحرذون فلا، لأنّه لم يكن

هناك حرذون آخر يسمح بأن يُحمل على كتف صاحبه. وبهدوء، دون فقدان أعصابها، ذهبت المافيا لترى ما الذي يحدث. المسألة بسيطة. فالعائلات قالت، وبكلمات مواربة على الدوام، في محاولة لأن يُفهم ما تعنيه بأنّ زمن السرّيّة كان شيئا آخر، حين كان الأحبّاء يُنقلون خفية، في صمت الليل، دون أن يكون للجيران أيّ حاجة بأن يعرفوا إن كانوا لا يزالون في فراش آلامهم، أم أنّهم تبخّروا. كان من السهل حينذاك القول بحزن، يا للمسكين، إنّه في الداخل، حين تسأل الجارة على بسطة السلّم، كيف هي حال الجدّ. أمّا الآن فكلّ شيء مختلف، هناك شهادة وفاة، وهناك لوحة قبر تحمل الأسماء والألقاب في المقبرة، وخلال ساعات قليلة سيعرف الجيران الحاسدون والنمّامون أنّ الجدّ قد مات بالطريقة الوحيدة التي يمكن الموت بها، وهذا يعني، بكلّ بساطة، أنّ الأسرة القاسية والجاحدة نفسها قد أرسلته إلى الحدود. ويعترفون، هذا يُخجلنا كثيرا. استمعت المافيا واستمعت، وقالت إنّها ستفكّر في الأمر. ولم تتأخّر أربعا وعشرين ساعة. فالموتى صاروا يرغبون في الموت، مثلما فعل ذلك العجوز في الصفحة الخمسين، و بالتالي صاروا يُسجّلون في شهادة الوفاة على أنّهم منتحرون. وعاد الصنبور إلى الانفتاح من جديد.



لم يكن كلّ شيء على هذا القدر من القذارة في ذلك البلد الذي بلا موت مثلما رُوي حتّى الآن، فالمافيا لم تتمكّن من نَشب أظفارها المعقوفة في كلّ قطاعات مجتمع منقسم بين الأمل في حياة دائمة والخوف من عدم الموت، ولم تستطع إفساد الأرواح، وإخضاع الأجساد، وتلطيخ القليل المتبقّي من مبادئ الزمن الغابر الحميدة، عندما كان أيّ مغلّف يحتوي شيئا تنبعث منه رائحة الرشوة يعاد فورا إلى مرسله حاملا ردًّا حازما وواضحا من نوع، ابتع بهذا المال دمية لأبنائك، أو لا بدّ أنّك أخطأت في العنوان. كانت الكرامة آنذاك طريقا للسموّ والرفعة في متناول جميع الفئات. وبالرغم من كلّ شيء، وبالرغم من المنتحرين المزيّفين وصفقات الحدود القذرة، فقد ظلّت الروح ترفّ فوق الماء، ليس فوق مياه البحر المحيط، فهذا يلامس أراض أخرى بعيدة، وإنّما فوق مياه البحيرات والأنهار، فوق الضفاف والجداول، فوق المستنقعات التي تخلّفها الأمطار عند مرورها، وفي أعماق الآبار المتلألئة، وهي الأماكن التي يُلحظ فيها، على أفضل وجه، مدى علّو السماء، وكانت ترفّ كذلك، مهما بدا ذلك غريبا، فوق سطح أحواض الأسماك الراكدة. وعندما كانت الروح تنظر إلى السمكة الصغيرة الحمراء الساهية وهي تفتح فمها لأخذ الماء، وتسأل وقد صارت أقلّ سهوا، منذ متى لم يُجدّد الماء؟ كانت تعرف جيّدا ما أرادت السمكة قوله وهي تصعد لتشقّ الطبقة الرقيقة التي يختلط فيها الماء بالهواء، في هذه اللحظة الكاشفة بالضبط ظهرت لها، صافية وعارية، المسألة التي ستكون الأصل في أشدّ مناظرة حماسيّة ومتأجّجة

عرفها تاريخ هذه البلاد التي لا موت فيها. وهنا ما سألته الروح الحائمة فوق ماء الحوض للفيلسوف المتدرّب، هل فكّرتَ من قبل إن كان الموت هو نفسه لكلّ الكائنات الحيّة، سواء أكانت حيوانيّة، بما فيها الكائن البشريّ، أم نباتيّة، بما في ذلك العشبة التي تداس وشجرة السيكويديندرون العملاقة sequoiadendron giganteum بأمتار ارتفاعها المائة، أيكون الموت نفسه هو الذي يقتل إنسانا يعرف أنّه سيموت، وحصانا لن يعرف ذلك أبدا؟ وعادت تسأل، في أيّ لحظة تموت دودة القزّ بعد أن تحبس نفسها في شرنقتها وتوصد الباب على نفسها، وكيف يمكن أن تولد حياة كائن من موتِ آخر، حياة الفراشة من موت الدودة، ويصير الشيء نفسه مختلفا، أم أنَّ دودة القزّ لم تمت لأنّها حيّة في الفراشة؟ فردّ الفيلسوف المتدرّب، دودة القزّ لم تمت، وإنّما الفراشة هي التي ستموت بعد أن تضع بيضها، أعرفُ هذا من قبل أن تولد أنت، قالت الروح التي ترفّ فوق ماء الحوض، فدودة الحرير لا تموت، إذ لا تظلّ داخل الشرنقة أيّة جثّة عند خروج الفراشة منها، وأنت نفسك قلت إنّ إحداهما تولد من موت الأخرى، هذا يسمّى تحوّلا، والجميع يعرفون ما الذي يعنيه ذلك، قال الفيلسوف المتدرّب متأمّلا. إنّها كلمة حسنة الوقع، مليئة بالوعود واليقين، تقول تحوّلا وتواصل قُدما، يبدو أنّكَ لا تعرف أنّ الكلمات هي لافتات تلتصق بالأشياء، وليست الأشياء نفسها، ولن تعرف أبدا ما هي الأشياء، ولا حتّى أيّة أسماء هي أسماؤها في الواقع، لأنّ الأسماء التي تُطلقها عليها ليست سوى هذا بالذات، الاسم الذي أطلقتَهُ عليها. من منّا نحن الاثنين هو الفيلسوف، لا أنا ولا أنت، فأنت لا تتجاوز كونك فيلسوفا متدرّبا، وأنا لستُ سوى الروح التي ترفّ فوق ماء الحوض، فلنتحدّث عن الموت، ليس عن الموت، بل عن الميتات، وقد سألتُ عن سبب عدم موت الكائنات البشريّة، بينما تموت الحيوانات الأخرى، ولماذا لا يكون

سبب عدم موت أحدهم هو السبب في عدم موت الآخر، فعندما تنتهي حياة هذه السمكة الصغيرة الحمراء، وعليّ أن أنبّهك إلى أنّها لن تتأخّر طويلا إذا لم تستبدل لها الماء، هل سيكون بمقدورك أن تتعرّف في موتها على ذلك الموت الآخر الذي يبدو أنّك الآن بمنجى منه، جاهلا السبب؟ مِن قبل، في الزمن الذي كان الناس يموتون فيه، وفي المرات القليلة التي وجدت نفسي فيها أمام أشخاص ماتوا، لم أتخيّل قطّ أنّ موتهم هو نفسه الذي سأموته ذات يوم، لأنّ لكلّ واحد منكم موته الخاص، تحملونه في مكان خفيّ منذ ولادتكم، هو ينتمي إليك، وأنت تنتمي إليه، وماذا عن الحيوانات، وعن النباتات، أعتقد أنّ الأمر نفسه يحدث لها، لكلّ منها ميتته. وهو كذلك، الميتات كثيرة إذن، بقدر كثرة الكائنات الحيّة الموجودة، الموجودة والتي ستُوجد، هذا صحيح بطريقة مّا، إنّكِ تناقضين نفسك، هتف الفيلسوف المتدرب، فميتات كلّ واحد هي ميتاتٌ، إذا صحّ القول، حياةٍ محدودة، تابعة، تموت مع ذاك الذي تُميته، ولكن هناك فوق كلّ الميتاتٍ ميتة أخرى كبرى، هي التي تغطّي مجموع الكائنات البشريّة منذ فجر الجنس البشريّ، هنالك بالتالي تراتبيّة، أفترضُ ذلك، وللحيوانات أيضا، ابتداء من أكثر وحيدات الخليّة ضآلة حتّى الحوت الأزرق، أجل، هي كذلك أيضا، وبالنسبة إلى النباتات، ابتداء من الفطريّات وحيدة الخليّة حتّى شجرة السيكويا العملاقة، وهذه ذكرناها من قبل باللاتينيّة بسبب ضخامة حجمها، يحدث لها جميعها الشيء نفسه، حسب ما أظنّ أنّي أعرفه، هذا يعني أنّ لكلٍّ موته الخاصّ، سواء أكان شخصا أم كائنا ثابتا لا ينتقل من مكانه، أجل، وبعد ذلك ميتتان عامّتان، واحدة لكلّ مملكة من مملكتيّ الطبيعة، بالضبط، فسأل الفيلسوف المتدرّب، وعند ذلك الحدّ ينتهي توزّع المراتب، إلى حيث تصل مخيّلتي، مازلتُ أرى أنّ هناك مِيتة أخرى، الأخيرة، العليا، أيّها تعني،

تلك التي سيكون عليها أن تدمّر الكون، وهذه هي التي تستحقّ بالفعل تسمية موت، مع أنّه لن يكون هناك أحد يتحدّث عنها عند حدوثها، وما سوى ذلك ممّا تحدّثنا عنه لا يتعدّى أن يكون صغائر تافهة، بلا معنى، والموت بالتالي ليس واحدا، أنهى الفيلسوف المتدرّب دون أن يكون بحاجة إلى قول ذلك، هذا هو ما تعبتُ من شرحه لك، وهذا يعني أنّ موتا واحدا، الموت الذي يخصّنا، قد أوقف نشاطه، وأنّ الميتات الأخرى، الخاصّة بالحيوانات والنباتات، مازالت تعمل، إنّها مستقلّة بعضها عن بعض، وكلّ موت يعمل في قطاعه، هل اقتنعتَ، أجل، امض إذن خارجا وأخبر الناس به، قالت الروح التي ترفّ فوق ماء الحوض. وهكذا بدأت المناظرة.

كانت الحجّة الأولى ضدّ النظريّة الجريئة عن الروح التي ترفّ فوق ماء حوض الأسماك هي أنّ الناطق باسمها ليس فيلسوفا أصيلا يحمل لقب فيلسوف، وإنّما هو مجرّد متدرّب لم يصل قطّ إلى ما هو أكثر من بعض المعارف الأوّليّة البسيطة وغير المكتملة من مرجع مختصر، وهي شديدة البدائيّة بقدر بدائيّة أحاديّات الخلايا تقريبا، وكما لو أنّ هذا غير قليل، فهي معارف جمعت بتسرّع، من مزق منفصلة، بلا إبرة ولا خيط يجمع بعضها إلى بعض، حتّى لو كانت متنافرة الألوان والأشكال، وباختصار، هي فلسفة يمكن تسميتها فلسفة المدرسة التهريجيّة أو الانتقائيّة. ولكنّ المسألة الأهمّ ليست هنا. صحيح أنّ جوهر الأطروحة كان من عمل الروح التي ترفّ فوق ماء الحوض، وإن كانت العودة إلى قراءة الحوار الذي دار في الصفحات السابقة كافية لمعرفة أنّ مساهمة الفيلسوف المتدرّب كان لها كذلك تأثيرها في توليد الفكرة المثيرة للاهتمام، على الأقلّ بصفته مستمعا، عاملا دياليكتيكيّا لا غنى عنه منذ سقراط كما هو معروف. هناك شيء على الأقلّ لا يمكن نكرانه،

هو أنّ الكائنات البشريّة لا تموت، ولكن الحيوانات الأخرى تموت. أمّا بالنسبة إلى النباتات، فإنّ أيّ شخص، حتّى من لا يعرف شيئا عن علم النبات، سيعترف دون صعوبة بأنّها تولد، تخضرّ، وبعد ذلك تذبل، ثمّ تجفّ متيبّسة، وإذا كانت هذه المرحلة الأخيرة، بتعفّن أو دونه، لا يمكن تسميتها موتا، فليأت إذن من يقدّم تفسيرا أفضل. وقد يقول بعض المعترضين إنّ كون الأشخاص الذين هنا لا يموتون، بينما جميع الكائنات الحيّة الأخرى تموت، يجب النظر إليه باعتباره دليلا على أنّ ما هو عاديّ لم ينسحب تماما من العالم بعد، وما هو عاديّ، والمعذرة عن هذا القول، هو الموت ببساطة عندما تحين ساعة موتنا. الموت، وعدم التوقّف لمناقشة ما إذا كان هو موتنا المخصّص لنا منذ الولادة، أم أنّه يمرّ قربنا ببساطة ويقرّر التركيز علينا. في البلدان الأخرى يواصل الناس الموت ولا يبدو أنّ سكّانها أكثر تعاسة بسبب ذلك. في البدء، مثلما هو طبيعيّ، كان هناك حسد، وكان تآمر، وجرت محاولة أو أكثر للتجسّس العلميّ من أجل اكتشاف كيف توصّلنا إلى عدم الموت، ولكن نظرا للمشاكل التي انهالت علينا منذ ذلك الحين، فإنّنا نظنّ أنّ الشعور العامّ لدى سكّان تلك البلاد يمكن أن يُترجم كما يبدو بهذه الكلمات، «يا لما نجونا منه».

ونزلت الكنيسة، كما لا يمكن إلاّ أن يكون، إلى ميدان الجدال ممتطية حصان المعركة المعهود، أي القول إنّ مقاصد الربّ ونواياه، مثلما كانت على الدوام، عميقة لا يمكن سبر غورها، وهو ما يعني، بكلمات عاديّة وملطّخة بشيء من التكفير اللفظيّ، أنّه من غير المسموح لنا النظر من فرجة بوّابة السماء لرؤية ما يجري في الداخل. وتقول الكنيسة أيضا إنّ توقّفا مؤقّتا يدوم طويلا إلى هذا الحدّ أو ذاك لأسباب ومفاعيل طبيعيّة ليس بالأمر الجديد، ويكفي تذكّر المعجزات غير المتناهية التي سمح الربّ بتحقّقها خلال العشرين قرنا الماضية، والاختلاف الوحيد في ما

يحدث الآن يكمن في اتّساع المعجزة، لأنّ ما كان يؤثّر سابقا في فرد واحد، بفضل إيمانه الشخصيّ، استُبدل باهتمام شامل، غير شخصانيّ، فبلد كامل يمتلك، إذا صحّ التعبير، إكسير الخلود، وليس المؤمنون وحدهم الذين ينتظرون كما هو منطقيّ أن ينعموا بتميّز خاصّ، وإنّما يشمل كذلك الملحدين، واللاأدريّين، والمهرطقين، والخاطئين، وعديمي الإيمان من كلّ الأنواع، وأتباع الديانات الأخرى، الطيّبين والأشرار والأكثر شرّا، الورعين والمافياويّين، الجلاّدين والضحايا، الشرطيّين واللصوص، القتلة والمتبرّعين بالدم، المجانين وسليمي العقل، جميعهم، الجميع بلا استثناء، كانوا في الوقت نفسه الشهود والمستفيدين من أعظم أعجوبة شهدها تاريخ المعجزات: الحياة الأبديّة للجسد مجتمعة إلى الأبد مع حياة أبديّة للروح. المراتب الدينيّة الكاثوليكيّة، من أسقف فما فوق، لم تستملح النكات الصوفيّة لبعض أطرها المتوسّطة المتعطّشة إلى الأعاجيب، وقد أبلغت ذلك للمؤمنين عبر رسالة حازمة جدّا، ففضلا عن الإشارة إلى مقاصد الربّ ونواياه التي لا يمكن الخوض فيها، تلحّ على الفكرة التي عبّر عنها الكردينال بصورة مرتجلة في بداية الأزمة، في محادثته الهاتفيّة مع رئيس الوزراء، عندما افترض أنّه البابا وتوسّل إلى الربّ أن يغفر له حماقة الزهو تلك، وكانت الفكرة تقترح التنشيط الفوريّ لأطروحة جديدة، أطروحة الموت المؤجّل، استنادا إلى الثقة بحكمة الزمن الممتدحة مرارا وتكرارا، والتي تقول لنا إنّه هناك غد على الدوام لحلّ المشاكل التي تبدو اليوم بلا حلّ. وفي رسالة موجّهة إلى مدير جريدته المفضّلة، أعلن قارئ أنّه مستعدّ لتقبّل فكرة أنّ الموت قد قرّر تأجيل نفسه، ولكنّه يلتمس، بكلّ احترام، أن يخبروه كيف عرفت الكنيسة بذلك، وإذا كانت مطّلعة إلى هذا الحدّ حقّا، فإنّ عليها أن تعرف أيضا كم سيستمرّ التأجيل. وفي ملاحظة من هيئة التحرير، ذكّرت الجريدة القارئ بأنّ

ما طُرح ببساطة هو اقتراح عمل، ولم ينقل إلى حيّز التطبيق حتّى الآن، وهو ما يعني، هكذا تنهي الملاحظة، أنّ الكنيسة تعرف عن المسألة قدر ما نعرف جميعنا، أي أنّها لا تعرف شيئًا. وفي أثناء ذلك كتب أحدهم مقالة يطالب فيها بإعادة النقاش إلى المسألة التي تسبّبت فيه، ألا وهي، إذا ما كان الموت واحدا أم متعدّدا، هل هو موت مفرد، أم ميتات بالجمع؟ وأنتهزُ فرصة وجود الريشة في يدي لأبلغ بأنّ الكنيسة، بافتراضاتها الغامضة هذه، إنّما تسعى إلى كسب الوقت دون أن تلزم نفسها، ولهذا سعت، مثلما هي عادتها، إلى تجبير قائمة الضفدع، وضربِ ضربة على المسمار وضربة على الحافر. تسبّب أوّل هذين التعبيرين الشعبيّين في ارتباك بين الصحفيّين الذين لم يقرؤوا أو يسمعوا طيلة حياتهم مثل هذه العبارات. ومع ذلك، وحيال الأحجية، دفعتهم حماسة المنافسة الشخصيّة إلى أن يسحبوا عن رفوف الخزائن المعاجمَ التي كانوا يستعينون بها في بعض المرّات عند كتابة مقالاتهم وأخبارهم، وانطلقوا في تقصّي ما يعنيه ذلك القول الضفدعيّ في هذا المقام. لم يجدوا شيئًا، أو بكلمة أدقّ، وجدوا الضفدع، ووجدوا القائمة، ووجدوا الفعل جَبَّر، ولكنّهم لم يتمكّنوا من ملامسة المعنى العميق الذي لا بدّ أن يمتلكه اجتماع هذه الكلمات الثلاث معا، إلى أن خطر لأحدهم استدعاء بوّاب عجوز جاء من القرية منذ سنوات طويلة واعتاد الجميع على الضحك منه، لأنّه بعد سنوات من العيش في المدينة، مازال يتكلّم كما لو أنّه يجلس أمام الموقد ويروي قصصا لأحفاده. سألوه إن كان يعرف الجملة فأجاب أجل يا سيّدي، إنّه يعرفها، سألوه إن كان يعرف ما تعنيه، وأجاب أجل يا سيّدي، إنّه يعرف. فقال رئيس التحرير، اشرحها إذن. تجبير أيّها السادة يعني تثبيت عظم مكسور بقطعتي خشب، هذا أمر نعرفه، وما نريد أن تخبرنا به هو ما علاقة هذا بالضفدع، له علاقة كبيرة، فلا أحد يستطيع وضع قطعتي

خشب لقائمة ضفدع، لماذا؟ لأنّها لا تُبقي قائمتها ساكنة أبدا، وما الذي يعنيه هذا، يعني أنّه لا جدوى من محاولة ذلك، لأنّ الضفدع لن تسمح به، ولكن لا يمكن أن يكون هذا هو المعنى المقصود في جملة القارئ، إنّها تُستخدم أيضا عندما نتأخّر لوقت طويل في إنجاز عمل، وإذا ما تعمّدنا إطالة الوقت، فهذا يعني أنّنا نعرقل، وأنّنا نُجَبِّر قائمة الضفدع، أي أنّ الكنيسة تعرقل، وأنّها تُجَبِّر قائمة الضفدع، أجل يا سيّدي، هذا يعني أنّ القارئ الذي كتب كان محقّا تماما، أظنّ ذلك، ولكنّني لا أفعل شيئا سوى مراقبة الدخول من البوّابة، لقد قدّمتَ لنا مساعدة كبيرة، ألا تريدون أن أشرح لكم الجملة الأخرى، أيّ جملة؟ جملة المسمار والحافر، لا، فهذه نعرفها، ونحن نمارسها كلّ يوم.

المناقشة حول الموت والمِيتات التي بدأت جدّيّة بين الروح الحائمة فوق ماء الحوض والفيلسوف المتدرّب، كان يمكن لها أن تنتهي إلى ملهاة أو مهزلة لو لم يظهر مقال الخبير الاقتصادي. فمع أنّ الحسابات الحاليّة، وفق اعترافه هو نفسه، ليست اختصاصه المهنيّ، إلاّ أنّه يعتبر نفسه مطّلعا بما يكفي على الموضوع ليتساءل أمام الملإ من أين ستأتي البلاد بالأموال، بعد حوالي عشرين سنة، بنقطة أكثر أو فاصلة أقلّ، حتى تدفع رواتب التقاعد لملايين الأشخاص الذين هم في وضع الإحالة على المعاش بسبب عجز دائم سيظلّون فيه لقرون وقرون، والأموال التي ستُدفع لملايين آخرين سينضمّون لا محالة إلى أولئك، وسواء أكانت المتواليةُ حسابيّة أم هندسيّة، فإنّ الكارثة مؤكّدة أمامنا في كلّ الأحوال، وقد تكون الفوضى، النكبة، إفلاس الدولة، وقول «فَلْيَنْجُ كلّ من يستطيع النجاة»، ولن ينجو أحد. حيال هذه اللوحة المرعبة لم يجد الميتافزيقيّون حلاّ آخر غير حفظ الفيولا في علبتها، فالكنيسة لم تجد مخرجا سوى العودة إلى عدّها المضجر لحبّات المسبحة ومواصلة انتظار

انقضاء الأزمنة، هذا الذي يمكن له، حسب رؤاها الأُخرويّة، أن يحلّ كلّ شيء دفعة واحدة. وبالفعل، لو عدنا إلى مسوّغات ذلك الاقتصاديّ المثيرة للقلق، فإنّ العمليّة الحسابيّة ستكون بسيطة، ولننظر: إذا كان لدينا العدد كذا من السكّان في الخدمة الفعليّة ويسهمون في التأمين الاجتماعيّ، وإذا كان لدينا كذا من السكّان غير الفاعلين المحالين على المعاش، سواء بسبب الشيخوخة أو بسبب العجز، ويحصلون بالتالي من أولئك على رواتبهم التقاعديّة، ولكون الفئة الشغّيلة في تناقص مستمرّ بالمقارنة مع الفئة غير الشغّيلة، وهذه الأخيرة في نموّ مطّرد مطلق، فلا يُفهم كيف لم ينتبه أحد على الفور إلى أنّ اختفاء الموت، هذه الذروة، القمّة، السعادة القصوى، لم تكن في المحصّلة أمرا طيّبا. فكان لا بدّ للفلاسفة وغيرهم من التجريديّين من المضيّ تائهين في غابات هذيانهم حول الـ «تقريبا» والـ «أظنّ»، وهي الطريقة العامّيّة لقول الـ «كينونة» والـ «عدم»، كيما يقدّم الحسّ العامّ نثرا، مع الورقة والقلم المشهر، لإثبات أ+ب+ت أنّ هناك مسائل أكثر إلحاحا للتفكير فيها. وكما هو متوقّع، مع معرفة الجوانب المظلمة من الطبيعة البشريّة، وابتداء من اليوم الذي نُشرت فيه مقالة رجل الاقتصاد، راح موقف الأهالي الأصحّاء في علاقتهم بالمرضى النهائيّين يتبدّل إلى الأسوإ. فحتّى ذلك اليوم، وعلى الرغم من أنّ الجميع كانوا متّفقين على كثرة التقلّبات والإزعاجات التي يسبّبونها لهم من كلّ نوع، فإنّهم كانوا يفكّرون في أنّ احترام الشيوخ والمرضى عموما يمثّل أحد الواجبات الأساسيّة لأيّ مجتمع متحضّر، وبالتالي، وإن كانوا يتظاهرون بالشجاعة جاعلين من أحشائهم قلبا، ما كانوا ينكرون عليهم الرعاية الضروريّة، بل إنّهم يُحَلّون سلوكهم، في مناسبات معيّنة، بملعقة صغيرة من الشفقة والحبّ قبل إطفاء النور. صحيح أنّ هناك أيضا، مثلما نعرف جيّدا، تلك العائلات القاسية التي

تُسلم قيادها إلى انعدام الإنسانيّة العضال، والتي وصلت إلى حدّ التعاقد مع خدمات المافيا للتخلّص من البقايا البشريّة التعيسة التي تحتضر بلا نهاية بين ملاءتين مضمّختين بالعرق وملطّختين بالإفرازات الطبيعيّة، ولكن هذه العائلات تستحقّ توبيخنا، مثل ذلك التوبيخ الذي سنعبّر عنه في الخرافة التقليديّة حول القصعة الخشبيّة التي رُويت ألف مرّة، وإن كانوا في القصّة قد تخلّصوا، لحسن الحظّ، من الاشمئزاز في اللحظة الأخيرة، والفضل في ذلك، كما سيُرى، يعود إلى طيبة قلب طفل في الثامنة من عمره. إنّها قصّة تُروى بكلمات قليلة، وسنُودعها هنا من أجل تنوير الأجيال الجديدة التي تجهلها، على أمل ألاّ يسخروا منها باعتبارها ساذجة وعاطفيّة. انتبهوا إذن إلى العبرة الأخلاقيّة.

كان يا ما كان، في بلد الخرافات القديم، كانت تعيش أسرة مؤلّفة من أب وأمّ، ومن جدّ هو أبو الأب، وصبيّ هو الطفل الذي ذكرنا أنّه في الثامنة من عمره. ولأنّ الجدّ متقدّم جدًّا في السنّ، كانت يداه ترتجفان ويسقط الطعام من فمه وهم إلى المائدة، ممّا يسبّب غضبا شديدا لابنه وكنّته، فيقولان له طوال الوقت إنّه عليه أن ينتبه إلى ما يفعله، ولكن العجوز المسكين، مهما رغب في الانتباه، لم يكن يتمكّن من كبح الرجفة، ويسوء الوضع أكثر حين يؤنّبانه، وتكون النتيجة أن يلوّث على الدوام، بتساقط الطعام منه، شرشف المائدة أو الأرض، ولن نتكلّم عن الفوطة التي يربطونها حول رقبته ويتوجّب استبدالها ثلاث مرّات في اليوم، عند الفطور، والغداء، والعشاء. كانت الأمور على هذه الحال دون أيّ أمل في التحسّن عندما قرّر الابن وضع حدّ لذلك الوضع المزعج. ظهر في البيت في أحد الأيّام ومعه قصعة خشبيّة وقال لأبيه، ابتداء من الآن ستأكل من هذه وأنت جالس في الفناء لأنّ تنظيفه أسهل، وكي لا تظلّ كنّتك قلقة من كثرة الشراشف والفوط المتّسخة. وكان ذلك هو ما جرى. فعند الفطور،

والغداء، والعشاء، يظلّ العجوز جالسا وحده في الفناء، يرفع الطعام إلى فمه قدر الإمكان، فيضيع النصف في الطريق، وقسم من النصف الآخر يسقط من فمه إلى أسفل، لم يكن ما يسيل كثيرا بالقدر الذي يسمّيه العامّة قناة الحساء. وكان يبدو على الحفيد أنّه غير مهتمّ بالمعاملة القبيحة التي يُعَامَل بها الجدّ، فكان ينظر إليه، ثمّ ينظر إلى أبيه وأمّه، ويواصل تناول الطعام كما لو أنّه ليس هناك ما يعنيه في المسألة. وذات مساء، عند عودة الأب من العمل، وجد ابنه يعمل بسكّين على تشذيب قطعة من الخشب فظنّ، كما هو عاديّ وشائع في تلك الأزمنة البعيدة، أنّ الطفل يصنع لنفسه دمية بيديه. وفي اليوم التالي، انتبه إلى أنّ ما يصنعه الابن ليس عربة، لأنّه لا يظهر على الأقلّ المكان الذي يمكن أن تُركّب فيه العجلات، عندئذ سأله، ما الذي تفعله. فتظاهر الطفل بأنّه لم يسمع وواصل نحت قطعة الخشب برأس السكّين، وقد حدث هذا في زمن كان الآباء فيه أقلّ ذعرا ولا يهرعون لينتزعوا من أيدي أبنائهم مثل تلك الأداة المفيدة جدّا في صنع الدمى. ألمْ تسمعني، ما الذي تفعله بهذه الخشبة، أعاد الأب السؤال، ودون أن يرفع الطفل نظره عن العمل أجاب، إنّني أصنع قصعة خشبية لك عندما تصير عجوزا وترتجف يداك، وحين يكون عليك أن تتناول طعامك في الفناء مثل الجدّ. كانت كلمات مقدّسة. سقطت الغشاوة عن عيني الأب، رأى الحقيقة والنور، وفي اللحظة نفسها ذهب لطلب الصفح من أبيه وعندما حان موعد العشاء ساعده بيديه على الجلوس على الكرسيّ، وبيديه قرّب الملعقة من فمه، وبيديه مسح برفق ما سال على ذقنه، لأنّه مازال يستطيع ذلك بينما أبوه الحبيب لم يعد قادرا على فعله. أمّا ما حدث في ما بعد فلا وجود في التاريخ لأيّ إشارة إليه، ولكنّنا نعلم علم اليقين أنّه إذا كان صحيحا أنّ ما بدأ الصبيّ بصنعه قد توقّف في منتصفه، فإنّه من الصحيح

أيضا أنّ قطعة الخشب مازالت موجودة. لم يشأ أحد أن يحرقها أو يرمي بها، حتّى لا تضيع العبرة في الفراغ، ولأنّه قد يحدث ويكون هناك من يقرّر مواصلة العمل فيها وإنهاءه، وهو احتمال غير مستحيل الحدوث بالكامل إذا ما أخذنا بالاعتبار مدى ضخامة القدرة على البقاء التي تتمتّع بها الجوانب المظلمة المذكورة في الطبيعة البشريّة. ومثلما قال أحدهم، كلّ ما يمكن أن يحدث، سيحدث، والمسألة كلّها مسألة وقت وحسب، وإذا لم نتوصّل إلى رؤيته بينما نحن نمضي هنا، فإنّما السبب هو أنّنا لم نعش بما يكفي. وعلى أيّ حال، وكي لا نُتّهم بأنّنا نرسم دوما بألوان الجانب الأيسر من لوحة المزج، هناك من يتقبّل إمكانيّة اقتباس الحكاية اللطيفة للتلفزيون، فبعد أن أخرجتها إحدى الصحف، ونُفضت عنها شباك العنكبوت، وغبار خزائن الذاكرة الجماعيّة، يمكن لها أن تسهم في أن يعود إلى ضمائر الأسر المشروخة تقديس القيم الروحيّة غير الماديّة ورعايتها، تلك التي كان المجتمع يتغذّى عليها في الماضي، عندما لم تكن المادّيّة السائدة هذه الأيّام قد سيطرت بعد على الإرادات التي كنّا نظنّ أنّها قويّة وكانت في النهاية صورة الضعف الأخلاقي المبرّح نفسها والتي لا شفاء لها. فلنحتفظ مع ذلك بالأمل. ففي اللحظة التي سيظهر فيها الطفل على الشاشة، يمكننا أن نكون واثقين من أنّ نصف سكّان البلاد سيهرعون بحثا عن منديل لتجفيف الدموع، وأنّ النصف الآخر، والذي ربّما يكون رواقي المزاج، سيترك الدموع تسيل على وجهه بصمت، كي يُلاحظ بصورة أفضل كيف أنّ تأنيب الضمير على السلوك السيّئ أو المتساهل ليس مجرّد كلمة فارغة على الدوام. وعسى أن يكون مازال لدينا متّسع لإنقاذ الأجداد.

بصورة غير متوقّعة، وبانعدام حسّ مؤسف في انتهاز الفرص، قرّر الجمهوريّون استغلال الظرف الدقيق ليُسمعوا صوتهم. لم يكونوا

كثيرين، حتّى إنّه لم يكن لهم ممثّلون في البرلمان بالرغم من انتظامهم في حزب سياسيّ ومشاركتهم المنتظمة في الانتخابات. ولكنّهم ينعمون مع ذلك بشيء من التأثير الاجتماعي، لاسيما في الأوساط الفنّيّة والأدبيّة، حيث يوزّعون بين الحين والآخر بيانات تكون جيّدة الصياغة عموما، ولكنّها غير مؤذية على الدوام. ومنذ اختفاء الموت لم يُظهروا ما يشير إلى وجودهم، حتّى إنّهم لم يطالبوا، مثلما هو منتظر من معارضة تدَّعي المواجهة، بتوضيح ما يشاع عن مشاركة المافيا في تهريب المرضى النهائيّين. ولكنّهم يستغلّون الآن حالة الاختلال التي تعيشها البلاد المنقسمة بين الزهو بمعرفة أنّها الوحيدة على الكوكب لا موت فيها وبين القلق من كونها ليست مثل بقيّة العالم، ويطرحون على المنضدة مسألة النظام، لا أقلّ ولا أكثر. فهم الخصوم الواضحون للملكيّة، والمعادون للتاج في التعريف، يعتقدون أنّهم قد اكتشفوا حجّة جديدة تؤيّد ضرورة إقامة الجمهوريّة وإلحاح هذه الفكرة. يقولون إنّه من المخالف للمنطق العامّ أن يكون في البلاد ملك لا يموت أبدا، وحتّى لو قرّر غدا التنازل عن العرش بسبب التقدّم في السنّ أو ضعف القدرات الذهنيّة، فإنّه سيظلّ ملكا، وسيكون الأوّل في متوالية لا نهائيّة من ملوك منزوعِين عن العرش أو متنازلين عنه، سلسلة لا نهائيّة من ملوك يرقدون في أسرّتهم بانتظار موت لن يصل أبدا، سلسلة ملوك نصف أحياء نصف موتى سينتهي بهم الأمر، ما لم يضعوهم في ممرّات القصر، إلى أن يملؤوه ولا يتّسع لهم في النهاية مجمع الملوك حيث جُمع أسلافهم الخالدون الذين لن يعودوا أكثر من عظام مخلّعة المفاصل أو بقايا موميائيّة كريهة الرائحة. هل هناك وقت آخر أكثر ملاءمة ليكون لنا رئيس جمهوريّة لفترة محدّدة قابلة للانتهاء، رئيس لفترة محدودة، أو لفترتين على أقصى تقدير، وليتدبّر أموره بعد ذلك كيفما استطاع، يتولّى أمور حياته بحياته، يقدّم

محاضرات، يؤلّف كتبا، يشارك في مؤتمرات وندوات وجلسات حوار، يلقي خطابات على موائد مستديرة، يدور حول العالم في ثمانين حفلة استقبال، يعطي رأيه حول طول التنانير عندما يعاد استخدامها وحول انحسار طبقة الأوزون في الجوّ إذا ما ظلّ هنالك جوّ. كلّ شيء ما عدا أن نجد في كلّ يوم في الصحف، ونسمع من التلفزيون والإذاعة التقرير الطبيّ نفسه على الدوام، تقريرا لا يحلّ ولا يربط، حول حالة القابعين في المصحّة الملكيّة التي لا بدّ من القول بالمناسبة إنّها بعد أن وُسّعت مرّتين، صارت على وشك أن تشهد تَوسيعا ثالثا. وتزايد المصحّات الملكيّة ماثل ليشير إلى أنّه، مثلما يحدث في المستشفيات أو ملحقاتها، سيكون الرجال فيها منفصلين عن النساء، أي أنّ الملوك والأمراء سيكونون في جانب، والملكات والأميرات في جانب آخر. ويدعو الجمهوريّون الشعب الآن ليبادر بتولّي مسؤوليّاته، ويمسك مصيره بيديه من أجل البدء بحياة جديدة وشقّ طريق مزهر نحو فجر مستقبل جديد. لم يقتصر تأثير البيان في هذه المرّة على دغدغة مشاعر الفنّانين والكتّاب، بل أبدت فئات اجتماعيّة أخرى تقبّلها للصورة السعيدة عن الطريق المزدهر وتباشير فجر المستقبل، ممّا تمخّض عن تزاحم خارج عن المألوف بالمطلق في انضمام أعضاء جدد مستعدّين للانطلاق في الحملة، كما في حملة الصيد، والصيدُ تسمية يطلقونها على السمك وهو لا يزال في الماء، وقد صارت الحملة تاريخيّة قبل أن يُعرف إن كانت ستصير فعلا كذلك. والمؤسف أنّ المظاهر اللفظيّة في خطابات الحماسة المتمدّنة والمعبّرة عن تباشير الفجر الجديد لهذا التيّار الجمهوريّ المستقبليّ والنبوئيّ، لم تكن محترمة على الدوام بالقدر الذي يطلبه حسن التربية والتعايش الديمقراطيّ السليم. وقد وصل بعضها إلى تجاوز حدود أشدّ الألفاظ النابية إساءة، كالقول على سبيل المثال، لدى التحدّث عن الأسرة الملكيّة،

إنّ الجمهوريّين غير مستعدّين لتحمّل نفقات بهائم بوضع الحلق في أنوفها ولا إعالة حمير ببسكويت. وقد اجتمع رأي جميع أصحاب الذوق السليم على اعتبار أنّ هذه الكلمات ليست غير مقبولة وحسب، وإنّما لا تغتفر كذلك، وأنّه كان يكفي أن يقال مثلا إنّ خزينة الدولة لا تستطيع مواصلة تحمّل التنامي المستمرّ في نفقات الأسرة المالكة ومتعها، وسيفهم الجميع ما يعنيه ذلك. إنّها الحقيقة وفي كلام غير مسيء.

هجوم الجمهوريّين العنيف، وقبلها النبوءات المقلقة التي تضمّنتها المقالة حول حتميّة عجز خزائن الدولة المذكورة، خلال وقت قصير، عن دفع معاشات تقاعد الشيخوخة إلى أمد لا تُعرف نهايته، جعلت الملك يخبر رئيس الوزراء بأنّه يحتاج إلى إجراء محادثة صريحة معه، على انفراد، وبلا آلات تسجيل أو شهود من أيّ نوع. حضر الوزير الأوّل، وأبدى اهتمامه بصحّة الشخصيّات الملكيّة، وخاصّة الملكة الأمّ، تلك التي كانت على وشك الموت في نهاية السنة الأخيرة، وبعد ذلك، مثلما حدث لأشخاص آخرين كثيرين، ظلّت ومازالت تتنفّس ثلاث عشرة مرّة في الدقيقة، وتُلحظ إشارات قليلة من الحياة في جسدها الموسّد تحت ظُلّة الفراش. شكره جلالته على اهتمامه، وقال إنّ الملكة الأمّ تعاني عذابها بالوقار الجدير بالدماء التي مازالت تسري في عروقها، وانتقل بعد ذلك إلى ملاحظات الأجندة، وكانت الملاحظة الأولى حول إعلان الجمهوريّين الحرب. لا أفهم ما الذي خطر في رأس هؤلاء الناس، قال الملك، فالبلاد غارقة في أشدّ الأزمات رهبة في تاريخها بينما هم يتكلّمون عن تغيير النظام، أنا لا أقلق بشأنهم يا سيّدي، ما يفعلونه هو استغلال الوضع لنشر ما يسمّونه رؤيتهم للحكم، وهم في العمق ليسوا سوى صيّادين بائسين في الماء العكر، مع نقص مؤسف في الوطنيّة، يجب أن نضيف هذا أيضا، وهو كذلك يا سيّدي، فلدى الجمهوريّين فكرة عن الوطن لا يمكن أن يفهمها

أحد غيرهم، إذا كانوا يفهمونها حقّا، الأفكار التي لديهم لا تهمّني، وما أريد أن أسمعه منك هو إذا ما كان هناك أيّ احتمال لتمكّنهم من إحداث تغيير في النظام بالقوّة، ولكنّهم لا يملكون تمثيلا في البرلمان يا سيّدي، إنّني أعني إمكانيّة قيامهم بانقلاب، بثورة، لا وجود لأيّ احتمال يا سيّدي، فالشعب مع مليكه، والقوّات المسلّحة موالية للسلطة الشرعيّة، يمكن لي إذن أن أستريح، يمكنك أن تستريح بالكامل يا سيّدي. وضع الملك علامة الضرب في مفكّرته، إلى جانب كلمة جمهوريّين، وقال، انتهينا من هذا، ثمّ سأل، وما هي قصّة معاشات التقاعد التي لا تُدفع؟ إنّنا ندفعها يا سيّدي، ولكن المستقبل هو الذي يبدو شديد السواد، لا بّد أنّني أخطأت في القراءة إذن، ظننت أنّه قد حدث توقّف، إذا صحّ التعبير، في الدفع، لا يا سيدي، فالغد هو الذي يبدو مقلقا جدّا، إلى أيّ درجة هو مقلق، بكلّ المقاييس يا سيّدي، إذ يمكن للدولة، بكلّ بساطة، أن تنهار مثل قلعة من ورق، هل نحن البلد الوحيد الذي في هذا الوضع؟ سأل الملك، لا يا سيّدي، فالمشكلة ستطال الجميع على المدى البعيد، ولكن ما يؤخذ في الحسبان هو الفرق بين الموت وعدم الموت، وهذا فرق أساسيّ، وعذرا عن الابتذال، لستُ أفهمك، في البلدان الأخرى يموتون بصورة اعتياديّة، الوفيات مازالت تضبط تدفّق الولادات، أمّا هنا يا سيّدي، في بلادنا يا سيّدي، فلا يموت أحد، انظر حالة الملكة الأمّ، تبدو أنّها تلفظ النفس الأخير ولكنّها موجودة لدينا، أعني لحسن الحظّ، ولا أظنّ أنّني أبالغ إذا قلت إنّ الحبل يطوّق عنقنا، ومع ذلك، وصلتني إشاعات بأنّ هناك أشخاصا يموتون، هذا صحيح يا سيّدي، ولكنّها مجرّد قطرة ماء في البحر المحيط، فليس جميع الأسر تتجرّأ على تلك الخطوة، أيّ خطوة؟ تسليم مرضاهم إلى المنظّمة التي تتولّى أمر الانتحارات، لست أفهمك، ما جدوى انتحارهم إذا كانوا لا يستطيعون الموت؟ هؤلاء يستطيعون،

وكيف يتوصّلون إلى ذلك؟ إنّها قصّة معقّدة يا سيّدي، أخبرني بها، إنّنا على انفراد، في الجانب الآخر من الحدود يا سيّدي يوجد موت، أنت تعني إذن أنّ تلك المنظّمة تحملهم إلى هناك، بالضبط، وهذه منظّمة فاضلة، إنّها تساعدنا في تأخير بعض التراكم للمرضى النهائيّين، ولكن مثلما قلت لك، إنّها قطرة ماء في البحر المحيط، وما هي هذه المنظّمة؟ تنفّس الوزير الأوّل بعمق وقال، إنّها المافيا يا سيّدي، المافيا، أجل يا سيّدي، المافيا، فالدولة لا تجد بُدّا في بعض الأحيان من البحث عمّن ينفّذ الأعمال القذرة، أنت لم تقل لي شيئا، سيّدي، لقد أردت أن أبقي جلالتك بعيدا عن الموضوع، وأن أتحمّل أنا مسؤوليّته، وماذا عن القوّات التي كانت على الحدود؟ لديهم مهمّة يقومون بها، أيّ مهمّة؟ مهمّة التظاهر بأنّهم يمنعون مرور المنتحرين دون أن يفعلوا ذلك، ظننتُ أنّهم هناك لمنع عملية غزو، لم يكن هناك وجود لمثل هذا الخطر قطّ، ولقد توصّلنا على كل حال إلى إقرار اتّفاقيّات مع حكومات تلك البلدان، وكلّ شيء تحت السيطرة، باستثناء مشكلة المعاشات التقاعديّة، باستثناء مشكلة الموت يا سيّدي، إذا لم نعد إلى الموت فلا مستقبل لنا. رسم الملك علامة الضرب إلى جانب كلمة معاشات وقال، من الضروريّ أن يحدث شيء، أجل يا صاحب الجلالة، من الضروريّ أن يحدث شيء.



كان المغلّف يقبع على منضدة مدير عام التلفزيون عندما دخلت السكرتيرة إلى المكتب. لونه بنفسجيّ، غير مألوف، والورق من نوع يحاكي نسيج الكتّان. وكان يبدو قديما ويعطي الانطباع بأنّه قد استُخدم من قبل. لم يكن عليه أيّ عنوان، سواء أكان عنوان المرسل، وهو ما يحدث أحيانا، أم عنوان المرسل إليه، وهو ما لا يحدث أبدا، وكان في مكتب بابه مقفل بالمفتاح، وقد فُتح في تلك اللحظة بالذات، ولا يمكن لأحد أن يكون قد دخل إليه خلال الليل. وحين قلبته السكرتيرة لترى إذا ما كان هناك شيء مكتوب على قفاه، شعرت بأنّها تفكّر، بإحساس مشوّش، بعبثيّة ما فكّرت فيه وفي ما شعرت به من أنّ المغلّف لم يكن موجودا هناك في اللحظة التي أدخلت فيها المفتاح وأدارت آليّة القفل. يا للبلاهة، تمتمت، لم أنتبه إلى وجوده هنا عندما خرجتُ بالأمس. جالت ببصرها على أنحاء المكتب لترى إذا ما كان كلّ شيء عاديًا وانسحبت إلى مكان عملها. لقد كانت مخوّلة، باعتبارها سكرتيرة، ومحطّ ثقة، بفتح ذلك المغلّف أو أيّ مغلّف آخر، وخاصّة إذا لم تكن عليه أيّة إشارة ذات طابع تقييديّ، مثلما هي عبارات: شخصيّ، أو حصريّ، أو سرّيّ، ولكنّها لم تفتحه، ولم تفهم لماذا لم تفعل. نهضت مرّتين عن كرسيّها وفتحت باب المكتب قليلا. وكان المغلّف لا يزال هناك. إنّني أتحوّل إلى مهووسة، أيكون ذلك بتأثير الحرّ، فكّرت، سيأتي هو وينتهي الغموض. وكانت تشير بذلك إلى رئيسها، إلى المدير العامّ الذي يتأخّر. وكانت الساعة العاشرة والربع عندما حضر أخيرا. لم يكن شخصا كثير الكلام، فهو يصل، ويلقي تحيّة الصباح ثمّ

يدخل فورا إلى مكتبه، فللسكرتيرة أوامر بألاّ تدخل إلاّ بعد خمس دقائق من وصوله، وهو الوقت الضروريّ، حسب تقديره، لكي يجلس براحة ويشعل سيجار الصباح الأوّل. وعندما دخلت السكرتيرة، كان المدير لا يزال يرتدي المعطف، ولم يكن قد بدأ التدخين بعد. كان يمسك بكلتا يديه ورقة لها لون المغلّف نفسه، وكانت يداه ترتجفان. التفت نحو السكرتيرة التي تقترب، ولكنّه بدا كما لو أنّه لم يتعرّف إليها. مدّ فجأة أحد ذراعيه بيد مفتوحة لجعلها تتوقّف وقال لها بصوت بدا كأنّه يخرج من حنجرة أخرى، اخرجي فورا، أغلقي الباب ولا تسمحي بدخول أحد، لا أحد، هل سمعتِ ما قلته، أيًّا يكن الشخص. أرادت السكرتيرة أن تعرف فقط إذا كانت هنالك مشكلة، ولكنّه قاطع كلامها بعنف، ألم تسمعيني أمري بأن تخرجي، سألها. وأضاف بما يشبه الصراخ، اخرجي فورا. انسحبت السيّدة المسكينة والدموع في عينيها، لم تكن معتادة على أن تُعامل بهذه الطريقة، صحيح أنّ للمدير عيوبه، مثل الناس جميعا، ولكنّه شخص مهذّب على العموم، وليس من عادته إساءة احترام السكرتيرات. السبب هو شيء وارد في الرسالة، ولا وجود لتفسير آخر، هكذا فكّرت بينما هي تبحث عن منديل لتمسح دموعها. ولم تكن مخطئة. ولو أنّها تجرّأت على الدخول مرّة أخرى إلى المكتب لرأت المدير العامّ يتنقّل بسرعة من جانب إلى آخر، وملامح الهذيان على وجهه، كما لو أنّه لا يدري ما عليه عمله، وهو مدرك بوضوح في الوقت نفسه أنّه هو وحده، وليس أحد سواه، من يستطيع عمل ذلك. نظر المدير إلى الساعة، ثمّ نظر إلى ورقة الرسالة، وتمتم بصوت خافت، شبه سرّيّ، مازال لديّ وقت، مازال لديّ وقت، ثمّ جلس بعد ذلك ليعيد قراءة الرسالة الغامضة بينما هو يمرّ بيده الطليقة على رأسه بحركة آليّة، كما لو أنّه يريد التأكّد من أنّ رأسه مازال في مكانه، وأنّه لم يفقده مبلوعا في دوّامة الخوف التي تلوي معدته. انتهى

من قراءة الرسالة، وظلّت عيناه ذاهلتين في الفراغ، يفكّر، عليّ أن أكلّم أحدا، وبعد ذلك وردت إلى ذهنه، لنجدته، فكرة أنّ الأمر قد يكون مزاحا، قد تكون مزحة سمجة من مشاهد تلفزيونيّ مستاء، وهناك الكثير منهم، والأدهى أنّ لهم مخيّلة مَريضة، ومن يتحمّل مسؤوليّات إداريّة في التلفزيون يعرف جيّدا أنّه ليس كلّ شيء هناك هو بحر من الورود، ولكنّني لستُ الشخص الذي يُكتب إليه للتفريج عن النفس، فكّر. وكما هو طبيعيّ، قاده هذا التفكير إلى رفع سمّاعة الهاتف ليسأل السكرتيرة، من الذي جاء بهذه الرسالة، لا أعرف يا سيّدي المدير، فعندما وصلتُ وفتحت باب مكتبك، مثلما أفعل دائما، كانت الرسالة هناك، ولكن هذا مستحيل، فليس بإمكان أحد دخول هذا المكتب في الليل، وهو كذلك يا سيادة المدير، كيف تفسّرين الأمر إذن، لا تسألني أنا يا سيّدي المدير، فقبل لحظات أردت أن أخبرك بما جرى، ولكنّك لم تمنحني حتّى مجرّد الوقت لذلك، أعترفُ بأنّني كنتُ فظّا بعض الشيء، اعذريني، لا أهمّيّة لذلك يا سيّدي المدير، ولكن تصرّفك آلمني. عاد المدير العامّ لفقدان صبره، لو أخبرتكِ بما لديّ هنا، فسوف تعرفين حقّا ما هو الألم. وأغلق الهاتف. أعاد النظر إلى الساعة، ثمّ قال لنفسه، إنّه المخرج الوحيد، لا أرى مخرجا سواه، فهناك قرارات لستُ مخوّلا لاتّخاذها. فتح مفكّرة وبحث عن الرقم الذي يهمّه، وجده، ها هو، قال. كانت يداه لا تزالان ترتجفان، تكلّف مشقّة في إصابة الأرقام، وصعوبة أكبر في التحكّم بصوته عندما ردّوا عليه من الجانب الآخر، وقال، حوّلني إلى مكتب رئيس الوزراء، أنا مدير التلفزيون، المدير العامّ. ردّ على مكالمته مدير مكتب رئيس الوزراء، صباح الخير أيّها السيّد المدير العامّ، يسعدني سماع صوتك، بماذا يمكنني أن أخدمك، إنّني بحاجة لأن ألتقي بالوزير الأوّل في أسرع وقت مُمكن من أجل موضوع يستدعي العجلة القصوى،

يمكنك أن تخبرني بالموضوع وسأنقله إلى السيّد الوزير الأوّل، متأسّف، لكن ذلك مستحيل، فالقضيّة، فضلا عن كونها مستعجلة، تستوجب أقصى حدود السرّيّة أيضا، ومع ذلك، إذا ما أعطيتني فكرة عنها، لديّ هنا، أمام عينيّ اللتين سيأكلهما التراب، وثيقة ذات أهمّيّة وطنيّة عظمى، وإذا كان هذا الذي أقوله لك غير كاف، إذا لم يكن كافيا لكي تضعني الآن فورا على اتّصال مع الوزير الأوّل أينما كان، فإنّني أخشى كثيرا على مستقبله الشخصيّ والسياسيّ، بهذه الجدّيّة هي المسألة؟ لن أقول إلاّ إنّك ستكون منذ هذه اللحظة المسؤول الوحيد عن كلّ دقيقة تمضي، سأرى ما يمكنني فعله، فالسيّد الوزير الأوّل مشغول جدّا، فلتنهِ انشغاله إذن، إن كنت ترغب في نيل ميداليّة، على الفور، إنّني بالانتظار، هل يمكنني توجيه سؤال آخر إليك، أرجوك، ما الذي تريد معرفته أكثر، لماذا قلت «عينيّ هاتين اللتين سيأكلهما التراب»، فهذا كان في الماضي، أنا لا أعرف ما الذي كنته حضرتك في الماضي، ولكنّني أعرف أنّك الآن أبله خالص، حوّلني إلى الوزير الأوّل وكفى.

قسوة كلمات المدير العامّ تثبت إلى أيّ حدّ كانت روحه متوتّرة. كان كمن فُرض عليه نوع من المواجهة، لم يعرف معه، ولا يفهم كيف أمكن له شتم شخص لمجرّد أنّه توجّه إليه بسؤال عقلانيّ تماما، سواء بكلماته أو بنواياه. يجب عليّ أن أعتذر منه، فكّر نادما، فقد أحتاج إليه غدا. عندئذ دوّى صوت الوزير الأوّل بنفاد صبر، ما الذي جرى، سأله، فالتلفزيون حسب علمي ليس من اختصاصي، ليس التلفزيون هو القضيّة أيّها السيّد رئيس الوزراء. لديّ رسالة. أجل، لقد أخبروني بأنّ لديك رسالة، وماذا تريدني أن أفعل، لا أريد منك إلاّ أن تقرأها، ولا شيء أكثر، وما سوى ذلك، باستخدام كلماتك نفسها، لن يكون من اختصاصي، ألاحظُ أنّك متوتّر الأعصاب، أجل أيّها السيّد رئيس الوزراء، إنّني أكثر من متوتر

الأعصاب، وما الذي تقوله هذه الرسالة الغامضة، لا يمكنني قول ذلك في الهاتف، خطّي الهاتفيّ مضمون، وحتّى في هذه الحالة لا يمكنني إخبارك بأيّ شيء، فكلّ الحرص يظلّ قليلا، أرسلها إليّ إذا، سأسلّمها باليد، ولا أريد المجازفة بإرسالها مع ساع، سأرسل لكَ شخصا من هنا، مدير مكتبي مثلا، فمن الصعب إرسال شخص مقرّب أكثر منه، سيادة الوزير الأوّل، أرجوك، ما كنتُ سأزعجك لو لم يكن لديّ سبب جدّيّ جدّا، إنّني أحتاج إلى مقابلتك، متى، الآن بالذات، إنّني مشغول، أرجوك يا سيادة رئيس الوزراء، لا بأس، بما أنّك تلحّ، تعال، وآمل أن يكون في السرّ ما يستحقّ العناء، شكرا، سأجيء راكضا. أغلق المدير العامّ الهاتف، دسّ الرسالة في المغلّف، وخبّأها في أحد جيوب سترته الداخليّة ونهض. لم تعد يداه ترتجفان، لكن جبينه كان مبلّلا بالعرق. مسح وجهه بمنديل، ثمّ اتّصل بالسكرتيرة بالهاتف الداخليّ، قال لها إنّه سيخرج، وأن تطلب له السيّارة. تحقّق نقل المسؤوليّة إلى كاهل شخص آخر طمأنه قليلا، فخلال نصف ساعة سيكون دوره في هذه القضيّة قد انتهى. فتحت السكرتيرة الباب، السيّارة في انتظارك يا سيّدي المدير، شكرا، لا أدري كم من الوقت سأتغيّب، لديّ لقاء مع الوزير الأوّل، ولكن هذه المعلومة لكِ أنت فقط، فلتكن مطمئنّا يا سيّدي المدير، لن أقول شيئا، إلى اللقاء، إلى اللقاء يا سيّدي المدير، وليمض كل شيء على ما يرام. في ظلّ هذه الأوضاع، لم نعد نعرف ما هو الذي على ما يرام وما هو السيّئ، معك حقّ، وبالمناسبة، كيف حال أبيكِ؟ في الوضع نفسه يا سيّدي المدير، بالنسبة إلى المعاناة، لا يبدو أنّه يعاني، ولكنّه يبدو على وشك الوفاة، الانتهاء، وهو منذ شهرين على هذه الحال، وبالنظر إلى ما يحدث، فإنّ الشيء الوحيد الذي يمكنني عمله هو انتظار دوري كي يمدّدوني في سرير مجاور لسريره، من يدري، قال المدير ذلك وخرج.

استَقبل مديرُ مكتب الوزير الأوّل المديرَ العامّ عند الباب، حيّاه بفتور واضح، ثمّ قال، سأوصلك إلى السيّد رئيس الوزراء، لحظة واحدة، أريد طلب المعذرة منك أوّلا، في الواقع كان هناك أبله خالص في محادثتنا، ولكنّه أنا، الاحتمال الأكبر هو أنّه لم يكن أيّا منّا، قال مدير المكتب مبتسما، لو كان بإمكانك رؤية ما أحمله في جيبي هذا لفهمت حالتي النفسية، لا تقلق بشأني، فقد قبلت اعتذارك، أشكرك، وسوف ترى، لم تتبقّ إلا ساعات قليلة لتنفجر القنبلة وتصبح معروفة للملإ، عسى ألاّ تُحدث دويّا كبيرا لدى انفجارها، سيكون الدوي أعظم من أسوإ الرعود التي سُمعت على الإطلاق، وأشدّ إبهارا من كلّ البروق مجتمعة، إنّك تثير قلقي، وكن متأكّدا من أنّك ستعذرني مرّة أخرى في تلك اللحظة، هلمّ بنا، فالسيّد الوزير الأوّل بانتظارك. اجتازا قاعة لا بدّ أنّها كانت تسمّى في أزمنة سابقة قاعة انتظار، وبعد دقيقة كان المدير العامّ في حضرة الوزير الأوّل الذي استقبله بابتسامة، فلنر مسألة الحياة أو الموت هذه التي تحملها إليّ، مع كلّ فروض الاحترام، أنا على قناعة من أنّه لم تخرج من فمك قطّ كلمات أكثر واقعيّة من هذه الكلمات يا سيدي رئيس الوزراء. أخرج الرسالة من جيبه، وقدّمها إليه من فوق المنضدة. استغرب الوزير الأوّل، إنّها لا تحمل اسم المرسل إليه، ولا اسم مرسلها، قال المدير العامّ، كما لو أنّها رسالة موجّهة إلى الجميع، تعني أنّها رسالة مغفلة، لا يا سيادة رئيس الوزراء، فهي تحمل توقيعا كما يمكنك أن ترى، اقرأها، اقرأها، أرجوك. فُتح المغلّف بتمهّل، وأخرجت الورقة، ولكن رئيس الوزراء رفع عينيه فور رؤيته السطور الأولى وقال، يبدو الأمر مزاحا، يمكن له أن يكون كذلك في الواقع، ولكنّني لا أظنّ ذلك، فقد ظهرت الرسالة على منضدة عملي دون أن يُعرف كيف، لا أرى أنّ هذا يمكن أن يكون سببا كافيا لتصديق ما يقال هنا، واصل، واصل القراءة، أرجوك. عندما

وصل رئيس الوزراء إلى نهاية الرسالة نطق ببطء، وبتحريك شفتيه بصمت، حروف كلمة التوقيع. ترك الرسالة على المنضدة، نظر إلى محدّثه محدّقا وقال، فلنتخيّل أنّها مزحة، ليست كذلك، وأنا أيضا لا أظنّ أنّها كذلك، ولكنّني إذا طلبت أن نتخيّل ذلك فإنّما لأتوصّل إلى أنّنا لن نتأخّر ساعات طويلة لمعرفة الأمر، اثنتا عشرة ساعة بالضبط، لأنّ الوقت الآن منتصف النهار، هذا ما أريد الوصول إليه، فإذا تحقّق ما تعلن عنه الرسالة، وإذا نحن لم ننبّه الناس مسبقا فسوف يتكرّر، ولكن بصورة معكوسة، ما حدث في ليلة رأس السنة، سيكون سيّان أنبّهنا أم لم ننبّه يا سيادة رئيس الوزراء، فالتأثير سيكون هو نفسه، إنّما معكوس، معكوس ولكن نفسه، بالضبط، ولكنّنا إذا نبّهنا ثمّ تبيّن بعد ذلك أنّ الأمر مزحة، سيكون الناس قد مرّوا بوقت حرج دون طائل، مع أنّ الحقيقة هي أنّه سيكون هناك الكثير ممّا يقال عن ملاءمة هذا التنبيه، لا أظنّ أنّ الأمر يستحقّ العناء، فحضرتك قد قلت إنّك لا تعتقد أنّها مزحة، هذا صحيح، ما الذي علينا فعله إذن، هل ننذر أم لا ننذر؟ هذه هي المسألة يا عزيزي المدير العامّ، علينا أن نفكّر، نوازن، نتأمّل، لقد صارت القضيّة بين يديك يا سيادة الوزير الأوّل، والقرار لك الآن، القرار لي، أجل، حتّى إنّه يمكن لي أن أمزّق الورقة إلى ألف نتفة وأن أجلس منتظرا ما سيحدث، لا أظنّك تفعل ذلك، معك حقّ، لن أفعل ذلك، وبالتالي لا بدّ لي من اتّخاذ قرار، فمجرّد القول إنّه يجب تنبيه الناس غير كافٍ، من الضروريّ معرفة كيف نفعل ذلك، وسائل الاتّصال الاجتماعيّ موجودة لهذا الغرض يا سيادة الوزير الأوّل، لدينا التلفزيون، الصحف، الإذاعة، فكرتك هي أن توزّع على كلّ هذه الوسائل نسخًا من الرسالة مرفقة ببلاغ من الحكومة تطلب فيه من الأهالي الهدوء وتقدّم بعض النصائح حول كيفيّة التصرّف في حالة الطوارئ، سيادة الوزير

الأوّل، لقد صغتَ الفكرة بأفضل ممّا يمكن لي فعله في أيّ وقت، أشكر رأيك المتملّق، ولكنّني أطلب منك الآن أن تبذل جهدا وتتخيّل ما الذي سيحدث إذا ما تصرّفنا على هذا النحو، لست أفهمك، كنتُ أنتظر أكثر من هذا من المدير العامّ للتلفزيون، إذا كان هذا ما تنتظره، فإنّني أشعر بالأسف لأنّي لست على هذا المستوى يا سيّدي رئيس الوزراء، بل أنت كذلك، وكلّ ما في الأمر أنّك مرتبك بسبب المسؤوليّة، وحضرتك، ألست مرتبكا وأنت رئيس الوزارة، بلى، إنّني مرتبك أيضا، ولكنّ الارتباك في حالتي لا يعني أنّني مشلول، هذا من حسن حظّ البلاد، أشكرك مرّة أخرى، لم نتبادل الحديث كثيرا من قبل، لأنّني أتحدّث في شؤون التلفزيون مع الوزير المختصّ، ولكنّني أظنّ أنّ الوقت قد حان لنجعل منك شخصيّة وطنيّة، لم أفهمك مطلقا الآن يا سيادة الوزير الأوّل، الأمر بسيط، هذه المسألة ستبقى في ما بيننا، وفي ما بيننا بكلّ صرامة، حتّى الساعة التاسعة ليلا، وفي هذه الساعة تُفتتح نشرة أخبار التلفزيون بقراءة بلاغ رسميّ يُشرح فيه ما سيحدث في منتصف ليل اليوم، ويُقرأ كذلك ملخّص للرسالة، والشخص الذي سيقدّم هذه القراءة سيكون المدير العامّ للتلفزيون، أوّلا لأنّه هو من تلقّى الرسالة، وإن لم يذكر بالاسم فيها، وثانيا لأنّ المدير العامّ هو الشخص الذي أثق فيه كي ننجز المهمّة التي أوكلتها إلينا، ضمنيّا، السيّدة صاحبة التوقيع على هذه الورقة. يمكن لمذيع أن يقوم بالعمل بصورة أفضل يا سيادة رئيس الوزراء، لا أريد مذيعا، أريد المدير العامّ للتلفزيون، إذا كانت هذه هي رغبتك، فسوف أعتبر ذلك شرفا لي، إنّنا الشخصان الوحيدان اللذان يعرفان ما الذي سيحدث اليوم في منتصف الليل، وسنظلّ كذلك حتّى الساعة التي ستتلقّى فيها البلاد بأسرها الخبر، أمّا إذا فعلنا ما اقترحته من قبل، أي توزيع الخبر على وسائل الاتّصال الاجتماعيّ، فسوف تكون

لدينا اثنتا عشرة ساعة من الاضطراب، الذعر، الصخب، والهستيريا الجماعيّة، ولا أدري كم من الأشياء الأخرى، وبالتالي، ولأنّه ليس ضمن إمكاناتنا، أعني نحن الحكومة، تجنّب ردود الفعل تلك، فإنّنا سنقلّصها إلى ثلاث ساعات فقط، ومنذ تلك اللحظة لن يكون الأمر بيدنا، سيكون هناك من كلّ شيء: دموع، يأس، حالات إحساس براحة سيّئة المواراة، حسابات جديدة للحياة. تبدو لي فكرة جيّدة، أجل، ولكنّها جيّدة لأنّه ليس لدينا أفضل منها. تناول رئيس الوزراء الورقة ومرّ عليها بعينيه دون أن يقرأها وقال، غريب، من المفروض أن يكون الحرف الأوّل من التوقيع كبيرا، وهو صغير هنا، لقد بدا ذلك لي غريبا أيضا، فكتابة اسم بحروف صغيرة هو أمر غير عاديّ، قل لي، هل ترى شيئا عاديًّا في كلّ هذا الذي نعيشه؟ لا شيء في الواقع، وبالمناسبة، هل تجيد استخدام الآلة الناسخة؟ لستُ اختصاصيًّا، ولكنّني فعلت ذلك في بعض المرّات، رائع. خبّأ الوزير الأوّل الرسالة والمغلّف في حقيبة ممتلئة بالوثائق وأمر باستدعاء مدير مكتبه، ووجّه إليه الأوامر، أخلِ فورا القاعة التي توجد فيها آلات النسخ الورقي، إنّها موجودة حيث يعمل الموظّفون يا سيّدي رئيس الوزراء، فهذا هو مكانها، فليذهبوا إلى مكان آخر، لينتظروا في الممرّ أو يخرجوا لتدخين سيجارة، إنّنا نحتاج إلى ثلاث دقائق فقط، أليس كذلك أيّها المدير العامّ، ليس أكثر يا سيّدي رئيس الوزراء، فقال مدير المكتب، يمكنني نسخ الصورة بتكتّم مطلق، إذا كان هذا هو المطلوب، مثلما أسمح لنفسي بأن أفترض، هذا ما هو مطلوب بالضبط، التكتّم، ولكنّني في هذه المرّة سأتولّى العمل بنفسي، وبمساعدة، فلنقل، تقنيّة، من السيّد المدير العامّ للتلفزيون الحاضر هنا، حسن جدّا يا سيّدي رئيس الوزراء، سأذهب لإصدار الأوامر اللازمة لإخلاء القاعة. رجع بعد دقيقتين من ذلك، لقد صارت خالية يا سيّدي رئيس الوزراء،

وسأعود إلى مكتبي إذا لم يكن هناك أيّ مانع، يسعدني أنّك لم تضطرّني إلى أن أطلب منك ذلك، ولا تأخذ على محمل السوء هذه الحركة التي تبدو في الظاهر تآمريّة بسبب استبعادك منها، فاليوم بالذات ستعرف أسباب كلّ هذه الاحتياطات دون أن أخبرك بها شخصيًّا، بالتأكيد يا سيادة الوزير الأوّل، فأنا لا أسمح لنفسي أبدا بالارتياب في وجاهة مسوّغاتك، هكذا يكون الكلام يا صديقي العزيز. عندما خرج مدير المكتب، تناول رئيس الوزراء الحقيبة وقال، هيّا بنا. كانت القاعة مقفرة. وفي أقلّ من دقيقة كانت الصورة المنسوخة جاهزة، حرفا حرفا، ولكنّها كانت شيئا آخر، كانت تنقصها لمسة الورق البنفسجيّ المثيرة للقلق، إنّها الآن رسالة مبتذلة، عاديّة، من نوع عسى أن تجدكم هذه السطور بسعادة وصحّة جيّدة مع الأسرة كلّها، ومن جهتي لا يمكنني أن أقول إلاّ حمدا للحياة ومَن صنعها. سلّم الوزير الأوّل الصورة المنسوخة إلى المدير العامّ، إليك هذه، وسأحتفظ بالأصليّة، قال، وبلاغ الحكومة، متى سأتلقّاه؟ اجلس، وسوف أصوغه أنا بنفسي خلال لحظة، إنّه سهل، أعزّائي المواطنين، ترى الحكومة أنّ من واجبها إطلاع البلاد على أمر رسالة وصلت اليوم إلى يديها، إنّها وثيقة لا يتطلّب مغزاها وأهمّيّتها الإلحاح، على الرغم من أنّنا لسنا في ظروف تسمح لنا بضمان صحّتها، إلاّ أنّنا نقرّ، دون أن نستبق مضمونها، بإمكانيّة ألاّ يحدث ما تعلنه الوثيقة نفسها، وعلى كلّ حال، وكي لا يفاجأ الأهالي بوضع لا يستبعد فيه تصاعد التوتّرات ومظاهر الانتقاد المختلفة فور قراءتها التي أوكلت، بموافقة الحكومة، إلى المدير العامّ للتلفزيون. ولديّ كلمة أخرى قبل الانتهاء، ليس من الضروريّ التأكيد أنّ الحكومة، كما هي العادة، ستبقى متيقّظة لما فيه مصالح الأهالي وحاجاتهم التي ستكون الآن، دون شكّ، الأقسى منذ تكويننا أمّة وشعبا، وهذا مسوّغ لدعوة الجميع إلى الحفاظ على

الهدوء والسكينة اللتين رأينا أدلّة كثيرة عليهما خلال الوضع القدريّ الذي مررنا به منذ بداية العام، في الوقت نفسه الذي نثق فيه بأنّ مستقبلا أكثر رفقا سيعيد إلينا الأمان والسعادة اللذين نستحقّهما وكنّا نستمتع بهما من قبل، أعزّائي المواطنين، أذكّركم بأنّ الاتّحاد يصنع القوّة، هذا هو شعارنا ورايتنا، فلنبق متّحدين وسيكون المستقبل لنا، حسن، ها هو ذا البيان، وقد كان سريعا جدّا كما ترى، فهذه البيانات الرسميّة لا تتطلّب جهدا كبيرا من المخيّلة، بل يمكن القول إنّها تُكتب من تلقاء نفسها، لديك هناك آلة كاتبة، اطبع البيان عليها واحتفظ به بكتمان حتّى الساعة التاسعة ليلا، ولا تترك هذه الأوراق لحظة واحدة، كن مطمئنّا يا سيّدي رئيس الوزراء، فأنا أعي جيّدا مسؤوليّاتي في هذه الظروف، وكن على ثقة من أنّني لن أخيّب أملك، جيّد جدّا، يمكنك الآن العودة إلى عملك، اسمح لي أن أتوجّه إليك بسؤالين آخرين قبل انصرافي، قل ما لديك، لقد قلت لي إنّ شخصين فقط سيعلمان بهذا الأمر حتّى الساعة التاسعة ليلا، أجل، أنت وأنا، ولا أحد سوانا، ولا حتّى الحكومة، وماذا عن الملك، إذا لم تكن جرأة من جانبي التدخّل في ما لا يعنيني، جـلالته سيعلم بالأمر في الوقت نفسه مع الآخرين، هذا إذا كان يشاهد التلفزيون طبعا، أعتقد أنّه لن يكون راضيا عن عدم إخباره مسبقا، لا تقلق، فأفضل المزايا التي تجمّل الملوك، وأنا أعني الملوك الدستوريّين بكلّ تأكيد، هي أنّهم أشخاص متفهّمون إلى أبعد الحدود، آه، معك حقّ، وما هو السؤال الثاني الذي تودّ توجيهه، ليس سؤالا، ماذا إذن؟ الأمر بصراحة يا سيادة الوزير الأوّل أنّني مندهش لبرودة الأعصاب التي تبديها، بينما أرى أنّ ما سيحدث في البلاد في منتصف الليل سيكون كارثة، بل كارثة لم يُعرف مثلها قطّ، نوع من نهاية العالم، وأنا أرى حضرتك تتعامل مع الأمر كما لو أنّه مثل أيّ مسألة أخرى من

روتين الحكم، تُصدر أوامرك بطمأنينة، بل لقد بدا لي قبل لحظة أنّي رأيتك تبتسم، إنّني واثق يا عزيزي المدير العامّ من أنّك ستبتسم أنت أيضا لو كانت لديك فكرة عن كمّ المشاكل التي ستحلّها لي هذه الرسالة دون أن أحتاج إلى تحريك إصبع واحدة، والآن دعني أعمل، فعليّ أن أصدر بعض الأوامر، والتحدّث مع وزير الداخليّة كي يضع الشرطة في حالة تأهّب، وسأحاول أن أختلق مبرّرا معقولا، احتمالات وقوع اضطرابات في الأمن العامّ، فهو ليس بالشخص الذي يضيع الكثير من الوقت في التفكير، إنّه يفضّل العمل إذا أردتم رؤيته سعيدا، سيّدي رئيس الوزراء، تقبّل منّي أن أقول إنّني أرى في وجودي إلى جانبك خلال هذه اللحظات المصيريّة امتيازا لا يقدّر بثمن، لحسن الحظّ أنّك ترى الأمر على هذا النحو، ولكن اعلم أنّك ستغيّر رأيك إذا ما عُرفت خارج هذا المكتب كلمة واحدة ممّا قيل هنا، سواء ممّا قلته أنا أو قلته أنت، أتفهمُ ذلك، مثل ملك دستوريّ، أجل يا سيادة رئيس الوزراء.

كانت الساعة حوالي الثامنة وثلاثين دقيقة عندما استدعى المديرُ العامّ مسؤولَ قسم الأخبار ليطلعه على أنّ نشرة الأخبار في هذه الليلة ستُفتتح بقراءة بيان من حكومة البلاد، وسيتولّى قراءته، كما هي العادة، مُقدّم الأخبار المناوب، وبعد ذلك، سيقوم هو نفسه، المدير العامّ، بقراءة وثيقة تكميليّة للبيان الأوّل. وإذا كان هذا التصرّف قد بدا لمسؤول الأخبار غير طبيعيّ، وغير معهود، وخارجا عن المألوف، فإنّه لم يبيّن ذلك، واكتفى بطلب الوثيقتين لإدخالهما في التيلي برومتور، ذلك الجهاز الجدير بالتقدير الذي يتيح توليد الوهم بأنّ المذيع يتوجّه مباشرة وحصرا إلى كلّ واحد من الأشخاص الذين يستمعون إليه. فأجابه المدير العامّ بأنّ التيلي برومتور لن يُستخدم في هذه الحالة. وقال، سنقوم بالقراءة على الطريقة القديمة، وأضاف أنّه سيدخل إلى الستوديو في

الساعة العشرين وخمس وخمسين دقيقة بالضبط، وهي اللحظة التي سيسلّم فيها بيان الحكومة إلى المذيع الذي سيكون قد تلقّى معلومات صارمة بألاّ يفتح المغلّف الذي فيه البيان إلاّ في لحظة قراءته. وفي هذه اللحظة فكّر مسؤول قسم الأخبار في أنّه ثمّت مسوّغ لإبداء قدر من الاهتمام بالموضوع، أهو على هذا القدر من الأهمّيّة؟ سأل، خلال نصف ساعة ستعرف ذلك، وماذا عن العلم الوطنيّ يا سيادة المدير العامّ، أتريد أن أطلب وضعه وراء الكرسيّ الذي ستجلس عليه؟ لا، لا أريد أعلاما، فأنا لست رئيس حكومة ولا وزيرا، ولا ملكا، قال مسؤول قسم الأخبار بملامح متملّق متواطئ، كما لو أنّه يريد أن يفهمه بأنّه ملك حقّا، ولكنّه ملك التلفزيون الوطنيّ. تظاهر المدير العامّ بأنّه لم يسمعه، يمكنك الانصراف، وخلال عشرين دقيقة سأكون في الأستوديو، لن يكون لدينا متّسع من الوقت لإجراء المكياج لك، لا أريد مكياجا، القراءة ستكون مقتضبة جدّا، وسيكون لدى مشاهدي التلفاز في تلك اللحظات أمور يفكّرون فيها أكبر من كون وجهي ممكيجا أو دون مكياج، ممتاز، مثلما تشاء حضرتك، على أيّ حال، اتّخذ الاحتياطات كي لا تُظهر لي مصابيح الإضاءة زرقة حول عينيّ، فأنا لا أحبّ أن يراني الناس على الشاشة بمظهر الخارج من قبر، لا أريد أن يحصل هذا اليوم أكثر من أيّ وقت آخر. في الساعة العشرين وخمس وخمسين دقيقة دخل المدير العامّ إلى الأستوديو، قدّم للمذيع المغلّف الذي يتضمّن بيان الحكومة وجلس في المكان الذي خُصّص له. ولغرابة الوضع، ولأنّ الخبر كان قد انتشر، كما هو متوقّع، فقد احتشد في الأستوديو عدد من الأشخاص أكبر من المعتاد. أمر المخرج بالصمت. وفي الساعة الحادية والعشرين بالضبط، وبرفقة الأنغام المعروفة، سلسلة صور متنوّعة وسريعة يراد منها إقناع المشاهد بأنّ ذلك التلفزيون الذي يعمل في خدمته أربعا وعشرين ساعة في

اليوم، موجود في كلّ مكان، مثلما كان يقال عن الألوهيّة في الزمن القديم، ويرسل الأخبار إلى كلّ مكان. وفي اللحظة نفسها التي انتهى فيها المذيع من قراءة بيان الحكومة، وضعت الكاميرا رقم اثنين المدير العامّ على الشاشة. بدا عليه أنّه متوتّر، وأنّ حنجرته مغلقة. تنحنح قليلا لينظّف صوته وبدأ قراءة الرسالة، السيّد المدير العامّ للتلفزيون الوطنيّ، سيّدي العزيز، من أجل ما يرى الأشخاص المعنيّون أنّه مناسب، أخبرك أنّه ابتداء من منتصف ليل هذا اليوم سيعود الناس للموت مثلما كان يحدث، دون اعتراضات معلنة، منذ بداية الأزمنة حتّى يوم الحادي والثلاثين من شهر كانون الأوّل (ديسمبر) من العام الفائت، ولا بدّ لي من أن أوضّح لك أنّ النيّة التي دفعتني إلى وقف نشاطي، بالامتناع عن القتل، وإغماد المنجل الطويل الرمزيّ الذي وضعه في يدي رسّامو جرافيك أزمنة أخرى وفنّانوها، أقول إنّ نيّتي كانت أن أقدّم لهذه الكائنات البشريّة التي طالما مقتتني أنموذجا صغيرا على ما سيعنيه بقاؤهم أحياء دائما، هذا يعني إلى الأبد، وإن كان عليّ، وأقول هذا بيني وبينك أيّها السيّد المدير العامّ للتلفزيون الوطنيّ، أن أعترف لك بجهلي الكامل حول إذا ما كانت كلمتا دائما وإلى الأبد مترادفتين مثلما يُعتقد عموما، أمّا الآن، وقد انقضت فترة الشهور هذه التي يمكن لنا تسميتها اختبار الصمود أو الزمن المجّانيّ، ومع الأخذ بالاعتبار نتائج التجربة المؤسفةَ، سواء من وجهة النظر الأخلاقيّة، أي الفلسفيّة، أو من وجهة النظر البرجماتيّة، أي الاجتماعيّة، فقد رأيت أنّه من الأفضل للعائلات وللمجتمع بمجمله، سواء بالمعنى العموديّ أو بالمعنى الأفقيّ، أن أعلن اعترافي أمام الملإ بالخطإ الذي أتحمّل مسؤوليّته وأن أعلن عن العودة الفوريّة إلى الحالة الطبيعيّة، وهذا يعني أنّ جميع أولئك الأشخاص الذين يتوجّب أن يكونوا ميّتين، ولكنّهم ظلّوا بعافيتهم أو دونها في هذا

العالم، سينطفئ قنديل حياتهم حين تتلاشى في الهواء آخر دقّات انتصاف الليل، ولاحظ أنّ الإشارة إلى دقّات منتصف الليل هي إشارة رمزيّة محض، كي لا تخطر ببال أحد الفكرة الحمقاء بوقف ساعات الأبراج أو انتزاع مدقّات الأجراس معتقدا أنّه بهذه الطريقة سيوقف الزمن ويعارض قراري الذي لا رجعة عنه. وهذه الإعادة لأعظم خوف إلى قلوب البشر - معظم الأشخاص الذين حضروا إلى الأستوديو من قبل كانوا قد اختفوا، ومن ظلّ منهم راحوا يتهامسون فيما بينهم، وكانت همهمتهم تتعالى دون أن يخطر للمخرج، وكان فمه مفتوحا لمجرّد الذهول، أن يأمرهم بالصمت بتلك الإيماءة الغاضبة التي يستخدمها عادة في ظروف أقلّ دراماتيكيّة بكثير - لينصاعوا بعدها ويموتوا دون جدال لأنّه ليس هناك ما ينفعهم. ومع ذلك، توجد نقطة أشعر معها باضطراري إلى الاعتراف بخطئي، وهي المتعلّقة بأسلوبي الجائر والقاسي الذي كنت أسير عليه، حيث كنت أنتزع حياة الأشخاص بغتة، دون إشعار مسبق، ودون القول لهم خذ حذرك، أتفهّم أنّ في ذلك قسوة غير محترمة، فكم من المرّات لم أمنحهم الوقت حتّى لتقديم وصيّتهم، صحيح أنّني كنت أرسل إليهم في معظم الحالات مرضا يفتح لهم الطريق، ولكنّ في الأمراض أمرا مثيرا للفضول، فالكائنات البشريّة تأمل على الدوام في التخلّص من الأمراض، وعندما يكون الوقت قد تأخّر جدّا ينتهي بهم الأمر إلى التسليم بأنّها النهاية، واعتبارا من الآن سيُنبّه الجميع مسبقا بالطريقة نفسها وستكون لديهم مهلة أسبوع كي ينظّموا ما تبقّى لهم من الحياة، فينجزوا وصيّتهم، ويودّعوا الأسرة، ويطلبوا الصفح عن العمل السيّئ أو يتصالحوا مع ابن العمّ الذي قطعوا العلاقة به منذ عشرين عاما. بعد قولي هذا، لم يبق لي أيّها السيّد المدير العامّ للتلفزيون الوطنيّ إلاّ أن أطلب منك أن توصل في هذا اليوم

بالذات، إلى جميع بيوت البلاد، رسالتي الخطّيّة هذه التي أوقّعها بالاسم الذي يعرفونني به عموما، موت. نهض المدير العامّ عن الكرسيّ عندما رأى أنّه لم يعد على الشاشة، طوى نسخة الرسالة وحفظها في جيب سترته الداخليّ. لاحظ أنّ المخرج يقترب منه، شاحبا، وبوجه ممتقع، كان هذا هو الأمر إذن، قال بهمهمة تكاد تكون غير مسموعة. هزّ المدير العامّ رأسه بصمت، وتوجّه نحو المخرج. لم يسمع الكلمات التي بدأ المذيع يتلعثم بها، انتهيتم من الاستماع إلى... وبعد ذلك الأخبار التي فقدت أهمّيّتها لأنّه لم يكن هناك في سائر أنحاء البلاد من يوليها أدنى اهتمام، ففي البيوت التي فيها مريض نهائيّ اجتمعت أفراد العائلات حول فراش عاثر الحظّ، وإن كانوا غير قادرين على القول له إنّه سيموت بعد ثلاث ساعات، لا يستطيعون القول له إنّ بإمكانه استغلال الوقت ليملي وصيّته التي رفض إملاءها على الدوام، أو سؤاله إذا ما كان يرغب في أن يستدعوا ابن العمّ ليتصالح معه، ولم يكن بإمكانهم كذلك ممارسة النفاق المعهود بسؤاله عمّا إذا كان يشعر بأنّه أحسن حالا. كانوا يقفون متأمّلين الوجه الشاحب والطريّ، ثمّ ينظرون خفية إلى الساعة بانتظار أن يمرّ الوقت وأن يعود قطار العالم إلى سكّته المعهودة كي يقوم برحلته المعروفة. ولم تكن قليلة هي العائلات التي كانت قد دفعت مسبقا للمافيا كي ترفع عن كاهلهم الفضلة البشريّة الحزينة، وبافتراض أنّهم، في أفضل الحالات، لن يبكوا النقود الضائعة، سيرون كيف أنّهم كانوا سيحقّقون الإخلاء مجّانا لو أنّهم تمتّعوا بقليل من الرحمة والصبر. كانت الشوارع في حالة هائلة من الهرج والمرج، يُرى أشخاص متوقّفون بذهول، حائرون، لا يعرفون بأيّ اتّجاه يهربون، وآخرون يبكون بتفجّع، وآخرون يتعانقون، كما لو أنّهم بدؤوا الوداع هناك، وآخرون يتجادلون إذا كانت الحكومة هي من تتحمّل تبعة ذلك كلّه، أم العلوم الطبّيّة، أم بابا

روما، وارتيابيّ يحتجّ بأنّ الذاكرة لم تحتفظ قطّ بخبر أنّ الموت قد كتب رسالة وأنّه لا بدّ من إجراء تحليل للخطّ بالسرعة القصوى لأنّ يدا مركّبة من قطع عظميّة، على حدّ قوله، لا يمكن لها بأيّ حال أن تكتب بالطريقة نفسها التي يمكن أن تفعل به ذلك يدٌ كاملة، حقيقيّة، حيّة، بدم وأوردة وأعصاب وأوتار، وجلد ولحم، وإذا كان صحيحا أنّ العظام لا تخلّف بصمات أصابع مطبوعة على الورق ولا يمكن بالتالي تحديد هويّة كاتب الرسالة، فإنّ فحصا للـ ADN ربّما يلقي ضوءا مّا على هذه الظاهرة الرسائليّة غير المتوقّعة من كائن، سواء أكان الموت أم لم يكن، كان في حالة صمت طوال الحياة. في هذه اللحظات بالذات كان رئيس الوزراء يتحدّث هاتفيّا مع الملك، ويوضّح له الأسباب التي جعلته يقرّر عدم إطلاعه على أمر رسالة الموت، والملك يردّ بنعم، إنّه يتفهّم الأمر تماما، وعندئذ يقول له رئيس الوزراء إنّه متأسّف جدّا لأنّ الدقّة الأخيرة المشؤومة لمنتصف الليل ستضع حياة الملكة الأمّ في خطر، ويهزّ الملك كتفيه، فمن أجل قدر ضئيل من الحياة، يكون عدم الحياة أفضل، واليوم هي، وأنا غدا، وبصورة خاصّة الآن حيث الأمير وليّ العهد يبدي التململ وفقدان الصبر، ويسأل متى يحين دوره في أن يصير ملكا دستوريّا. بعد انتهاء هذه المحادثة الحميمة، مع لمسات صراحة غير معهودة، أعطى الوزير الأوّل تعليماته لمدير مكتبه كي يدعو جميع أعضاء الحكومة إلى اجتماع بالسرعة القصوى، أريدهم هنا خلال ثلاثة أرباع الساعة، في العاشرة بالضبط، قال، علينا أن نناقش، ونقرّ، ونضع موضع التنفيذ المهدّئات الضروريّة لتقليص كلّ أنواع الاضطرابات والفوضى التي ستنشأ دون مفرّ عن الوضع الجديد في الأيّام القادمة. أتعني كمّ الأشخاص الميّتين الذين يتوجّب إخلاؤهم في هذه المهلة القصيرة جدّا يا سيادة رئيس الوزراء؟ هذا هو أقلّ الأمور أهمّيّة يا صديقي العزيز،

فمن أجل حلّ مشكلات من هذا النوع توجد وكالات الدفن، بل أكثر من ذلك، فالأزمة بالنسبة إلى هذه الوكالات قد انتهت، ولا بدّ أنّهم سعداء جدّا الآن وهم يحسبون ما سيجنونه من أرباح، وهكذا ستتولّى وكالاتهم دفن الموتى، مثلما هي صلاحيّتها، أمّا نحن فسوف ننشغل بالأحياء، سوف ننظّم، على سبيل المثال، فرق نفسانيّين يساعدون الأفراد على اجتياز صدمة العودة إلى الموت بعد أن اقتنعوا بأنّهم سيعيشون إلى الأبد، سيكون ذلك قاسيا بالفعل، أنا نفسي فكّرت في الأمر، لا تضيّع الوقت، وليأتِ الوزراء معهم بأمناء الدولة المرتبطين بوزاراتهم، أريدهم جميعا هنا في العاشرة تماما، وإذا سألكَ أحدهم، قل له إنّه أوّل من وُجّهت إليه الدعوة، إنّهم مثل أطفال صغار يريدون حلوى. رنّ الهاتف، وكان وزير الداخليّة، سيادة الوزير الأوّل، إنّني أتلقّى اتّصالات من كلّ الصحف، قال، يطلبون أن تُسلَّم إليهم نسخٌ من الرسالة التي قُرئت للتوّ في التلفزيون باسم الموت وأنا لا علم لي بها للأسف. لا تتأسّف، وإذا كنتُ قد صمّمت على تحمّل مسؤوليّة إخفاء السرّ فإنّما فعلت ذلك كي لا يكون علينا تحمّل اثنتي عشرة ساعة من الهلع والفوضى، ماذا عليّ أن أفعل إذن، لا تقلق لهذا الأمر، سيتولّى مكتبي توزيع الرسالة الآن بالذات على كلّ وسائل الاتّصال الاجتماعيّ، جيّد جدّا يا سيادة الوزير الأوّل، الحكومة ستجتمع في الساعة العاشرة بالضبط، أحضر معك أمناء الدولة التابعين لك، وهل أُحضر معي معاونيّ الأمناء أيضا، لا، فليظلّ هؤلاء لحراسة البيت، فلطالما سمعت أن أناسا كثيرين معا لا يستطيعون النجاة، أجل يا سيادة رئيس الوزراء، كن دقيقا بالحضور في الموعد، الاجتماع سيبدأ بعد العاشرة بدقيقة واحدة، إنّني متأكّد من أنّنا سنكون أوّل الواصلين يا سيادة الوزير الأوّل، ستتلقّى ميداليّتك، أيّ ميداليّة؟ إنّها مجرد طريقة في الكلام، فلا تهتمّ بما قلته.

اجتمع ممثّلو مؤسّسات المآتم، والدفن، وإحراق الجثث ونقلها، والخدمات المرتبطة بها، في الساعة نفسها في مقرّ الجمعيّة. وكان يواجههم التحدّي المهنيّ الضخم الذي لم يعرفوه من قبل، والذي يشكّله الموت المتزامن بالجملة والتصريف الجنائزيّ التالي لآلاف الأشخاص في كافّة أنحاء البلاد، الحلّ الجدّيّ الوحيد الذي يُطرح عليهم، فضلا عن ارتفاع منفعته من الوجهة الاقتصاديّة بفضل التخفيض العقلانيّ للتكاليف، سيكون بأن يضعوا في اللعبة، بطريقة جماعيّة ومنظّمة، إمكانات العاملين والوسائط التقنيّة المتوفّرة لديهم، وباختصار، كلّ الوسائل اللوجستيّة، وأن تُقرّ في أثناء ذلك حصص الكعكة بما يتناسب مع المشاركة، مثلما قال بظُرف رئيس جمعيّة المهنة، مع تصفيق متحفّظ من الجمع، وإن يكن باسما. ولا بدّ من الأخذ في الحسبان، على سبيل المثال، أنّ إنتاج صناديق الاستخدام البشريّ، وتوابيته، وقبوره، ونعوشه، وأكفانه، قد توقّف منذ اليوم الذي توقّف فيه الناس عن الموت، وحتّى في الحالة غير المحتملة، بوجود ورشة نجارة ذات إدارة محافظة، فإنّها ستكون مثل الصغيرة روزيت دي مالهيرب التي لم يعد بإمكانها، بعد تحوّلها إلى وردة، أن تستمرّ لأكثر من فترة صباحية مقتضبة. وقد جاء الاقتباس الأدبيّ من الرئيس، ومع أن اقتباسه كان في غير محلّه، إلاّ أنّه أثار تصفيق الحاضرين، ثمّ أتبع ذلك بالقول، مهما يكن الأمر، فقد انتهى بالنسبة إلينا عارُ المضيّ في دفن كلاب وقطط وكناريّات داجنة، وببّغاوات، قال صوت من الصفوف الخلفيّة، أجل، وببّغاوات، أكّد الرئيس، وأسماك تروبيكاليّة، ذكّرهم صوت آخر، فصحّح له سكرتير المنضدة، هذا لم يبدأ إلاّ بعد النقاش الذي أثارته الروح الحائمة على سطح ماء الحوض، وابتداء من هذه اللحظة سيكون عليهم تقديم تلك الأسماك الميّتة إلى القطط، استنادا إلى رأي لافوازيه

حين قال إنّ الطبيعة لا تخلق شيئا ولا تفقد شيئا، وإنّما كلّ شيء فيها يتحوّل. لم يتمّ التوصّل إلى الحدود التي يمكن أن تبلغها استعراضات تقويم الوكالات الجنائزيّة المجتمعة هناك لأنّ أحد ممثّليها، ولقلقه من إضاعة الوقت الذي كان يشير في ساعته إلى الثانية والعشرين وخمس وأربعين دقيقة، رفع ذراعه من أجل الاتّصال هاتفيّا بجمعيّة النجّارين وسؤالهم كيف هي أحوال النعوش، وأنهى كلامه بالقول، نحتاج إلى معرفة عدد التوابيت التي ستتوفّر لنا ابتداء من الغد. ومثلما كان متوقّعا، قوبل الاقتراح بترحيب حارّ، ولكنّ الرئيس، وبإخفاء غير موفّق لاستيائه، لأنّه لم يكن صاحب الفكرة، أبدى ملاحظته، الاحتمال شبه المؤكّد هو أنّه لا وجود لأحد في ورشات النجارة في مثل هذا الوقت، اسمح لي أن أشكّك في ذلك أيّها السيّد الرئيس، فالأسباب نفسها التي دفعتنا إلى الاجتماع هنا ستدفعهم هم أيضا إلى الاجتماع. وقد أصاب صاحب الاقتراح عين الحقيقة. ردّوا عليهم من جمعيّة النجّارين بأنّهم نبّهوا الأعضاء المنضوين إلى الجمعيّة فور سماع رسالة الموت، ولفتوا انتباههم إلى ضرورة إعادة تصنيع الصناديق الجنائزيّة في أسرع وقت ممكن، وحسب الأخبار التي يتلقّونها بصورة متواصلة، فإنّ كثيرا من المؤسّسات لم تتوصّل إلى استدعاء عمّالها وحسب، وإنّما صار معظمها كذلك في أوج عمليّة التصنيع. إنّ ذلك مخالف لمواعيد العمل المقرّرة، قال الناطق باسم الجمعيّة، وأضاف، ولكن بالنظر إلى أنّ الأمر يتعلّق بضرورة وطنيّة ملحّة، يبدي محامونا ثقتهم المؤكّدة بأنّ الحكومة لن تجد مفرّا من أن تغمض عينيها، وأن تشكرنا فوق ذلك، وما لا يمكننا تقديم ضمانات بشأنه في هذه المرحلة الأولى هو كون التوابيت التي سنقدّمها من النوعية المتقنة التي اعتاد عليها زبائننا، فالخشب المسحوج والطلاء بالورنيش والصلبان الخارجيّة يجب تأجيلها للمرحلة التالية،

حين يكون ضغط الجنازات قد بدأ بالانخفاض، ونحن واعون على كلّ حال بمسؤوليّة كوننا جزءا أساسيّا من هذه العمليّة. سُمع تصفيق جديد وأشدّ حرارة في اجتماع ممثّلي وكالات الدفن الجنائزيّة، الآن أجل، الآن ثمّت مسوّغ لتبادل التهاني، لن يبقى جسد واحد دون دفن، ولا فاتورة واحدة دون جباية. وماذا بشأن حفّاري القبور، سأل صاحب الاقتراح، حفّارو القبور يفعلون ما يُؤمرون به، أجابه الرئيس بنزق. لم يكن الأمر كذلك بالضبط. فمن خلال مكالمة هاتفيّة أخرى عُلم أنّ حفّاري القبور يطالبون بزيادة كبيرة في أجورهم ودفع ساعات العمل الإضافيّة بثلاثة أمثال الأجر العاديّ. هذا من اختصاص البلديّات، فلتحلّ هي المسألة كيفما تستطيع، قال الرئيس. وسأله السكرتير، وماذا إذا وصلنا إلى المقبرة ولم يكن هناك من يحفر القبور. تواصل النقاش ملتهبا. وفي الساعة الثالثة والعشرين وخمسين دقيقة أصيب رئيس جمعيّة وكالات الدفن باحتشاء في عضلة القلب. ومات مع دقّة الناقوس الأخيرة في منتصف الليل.



أكثر بكثير من مجزرة. فخلال سبعة شهور، هي المدّة التي دامتها هدنة الموت من جانب واحد، راح يتراكم على قائمة انتظار لم تُر قطّ أكثر من ستّين ألف محتضر، ولكي نكون دقيقين، فإنّ اثنين وستّين ألفا وخمسمائة وثمانين شخصا قد رقدوا بسلام في لحظة واحدة، في ثانية من الزمن مشحونة بقوّة موت لا تجد مقارنة حصريّة لها إلاّ في بعض الممارسات البشريّة المستَنكَرة. وبالمناسبة، لا يمكننا مقاومة تذكّر أنّ الموت وحده، وفي حدّ ذاته، ودون مساعدة خارجيّة، قد قتل على الدوام أقلّ ممّا يقتل الإنسان. ربّما هناك نفسٌ مّا تتساءل بدافع الفضول كيف تمكّنّا من الحصول على العدد الدقيق اثنين وستين ألفا وخمسمائة وثمانين شخصا أطبقوا عيونهم في اللحظة نفسها وإلى الأبد. لقد كان ذلك بمنتهى البساطة. فإذا علمنا أنّ البلاد التي يحدث فيها هذا كلّه تضمّ حوالي عشرة ملايين نسمة، وأنّ معدّل الوفيات يصل إلى عشرة بالألف تقريبا، فإنّ عمليّتين حسابيّتين بسيطتين، هما العمليّتان الأكثر بدائيّة، ونعني عمليّتي الضرب والقسمة، مع موازنة حذرة للنسب الوسطيّة الشهريّة والسنويّة فإنّ الكمّيّة المشار إليها تمثّل المتوسّط الحسابيّ المعقول، وإذا كنّا نقول المعقول فإنّما ذلك لأنّه كان بإمكاننا أيضا أن نتبنّى العددين المجاورين، أي الاثنين والستين ألفا وخمسمائة وتسعة وسبعين أو اثنين وستين ألفا وخمسمائة وواحد وثمانين شخصا لو لم يُدخل موت رئيس جمعيّة الوكالات الجنائزيّة الاختلال في حساباتنا، لأنّه لم يكن متوقّعا وحدث في اللحظة الأخيرة. ونحن واثقون على كلّ

حال من أنّ التحقّق من الوفيات الذي سيبدأ منذ أولى ساعات اليوم التالي، سيؤكّد دقّة حساباتنا. وتتساءل نفسٌ أخرى محبّة للفضول، من تلك التي تقاطع الراوي على الدوام، كيف يمكن للأطبّاء معرفة إلى أيّ العناوين عليهم أن يتوجّهوا ليقوموا بواجبٍ إذا لم يُنَفَّذْ لا يُعتبر الميت ميتا بصورة شرعيّة، وإن كان ميتا لا جدال في موته. في بعض الحالات، وعذرا لهذا القول، كانت عائلة المتوفّى نفسها هي من تستدعي طبيبها المساعد أو الخاصّ، ولكن هذا الأسلوب محدود جدًّا، لاسيما أنّ المطلوب هو إضفاء الصبغة الرسميّة في زمن قياسيّ على وضع غير قياسيّ، ومن أجل ألاّ يُثْبَت مرّة أخرى القول الذي يؤكّد أنّ المصيبة لا تأتي وحدها أبدا، والذي إذا ما طُبّق على هذا الوضع، فسوف يعني موتا مفاجئا ونتانة في البيت. وكان أن ثبت حينئذ أنّ المصادفة ليست هي التي تُوصل رئيس وزراء إلى منصبه السامي، ومثلما لا تكلُّ حكمة الشعوب المعصومة عن الخطإ من التأكيد على أنّ كلّ شعب ينال الحاكم الذي يستحقّه، وتتوجّب مع ذلك الملاحظة، في هذا التفصيل بالذات، ومن أجل استكمال توضيح المسألة، أنّه إذا كان صحيحا أنّ جميع رؤساء الوزراء، خيرا أو شرًّا، ليسوا جميعهم متماثلين، فليس أبعد عن الصواب من ذلك أن الشعوب نفسها ليست متطابقة على الدوام. وبكلمة واحدة، الأمر في هذه الحالة أو تلك نسبيّ. أو حسب الحال إذا أردنا قول ذلك بكلمتين اثنتين. وكما يمكن أن يلاحظ أيّ شخص، بمن في ذلك من هو غير ميّال إلى الحياد في أحكامه، فإنّه لا مجال لأدنى شكّ في الاعتراف بأن الحكومة قد عرفت كيف تكون على مستوى خطورة الوضع. فجميعنا نتذكّر بسعادة ومتعة تلك الأيّام الأولى من الخلود، وقد كانت أيّاما قصيرة في نهاية المطاف، كيف استسلم لها هذا الشعب ببراءة، وكيف أنّ سيّدة، وهي أرملة منذ وقت قريب، خطرت لها فكرة الاحتفال بتلك السعادة الجديدة

بأن تعلّق العلم الوطنيّ على شرفة مطبخها المزهرة، تلك الشرفة المطلّة على الشارع الرئيسيّ. ونتذكّر أيضا انتشار رفع الأعلام، خلال أقلّ من ثمان وأربعين ساعة، كانتشار النار في البارود، مثل وباء جديد، في كلّ أنحاء البلاد. وبعد مرور هذه الشهور السبعة من خيبة الآمال المتواصلة والمعاناة، لم تبق سوى أعداد قليلة من الرايات، وحتّى هذه المتبقّية، تحوّلت إلى خرق كئيبة، التهمت الشمس ألوانها وأفقدها المطر بريقها، فضلا عن التحلّل المحزن الذي أصاب بنية الشعار الوطني. والحكومة التي قدّمت دليلا على روح بعيدة النظر تستحقّ التقدير، كان من بين إجراءاتها المستعجلة، للتخفيف من الأضرار الجانبيّة جرّاء عودة الموت المفاجئة، استعادة استخدام راية الوطن للإشارة إلى أنّه هناك، في ذلك الطابق الثالث الأيسر، يوجد ميت ينتظر. وبعد تصنيع الأعلام، أرسلت الأسر التي جرحتها إلهة الموت المقيتة أحدَ أفرادها إلى المتجر لشراء الراية، وعلّقوها على النافذة، وبينما هم يهشّون الذباب عن وجه المتوفّى، جلسوا ينتظرون الطبيب الذي سيأتي ليؤكّد الوفاة. لا بدّ من الاعتراف بأنّ الفكرة، فضلا عن فعاليّتها، كانت في منتهى الأناقة. فلم يكن على أطبّاء كلّ مدينة، وبلدة، وقرية، أو مجرّد مكان، إلاّ أن يجوبوا الشوارع في سيّارة، أو على درّاجة، أو مشيا على الأقدام، وعيونهم تتابع الأعلام، والصعود إلى البيت المُعلَّم، وبعد التأكّد من الوفاة بالعين المجرّدة، دون استخدام أدوات، لأنّه من المستحيل إجراء فحص معمّق آخر بسبب السرعة، يتركون ورقة موقّعة يطمئنون بها وكالات الدفن حول طبيعة المادّة الأوّليّة لمهنتهم، هذا يعني أنّها إذا جاءت إلى هذا البيت الذي في حالة حداد للبحث عن أرنب، فلن يكون ما تجده هرّا. وما صار بالإمكان إدراكه هو أنّ لفكرة استخدام العلم الوطنيّ الحميدة هدفا مزدوجا وفائدة مزدوجة. فقد كانت دليلا يوجّه الأطبّاء، وستكون

الآن منارة لمعلّبي الموتى. وفي حالة المدن الكبرى وخاصّة العاصمة، وهي متروبول لا تتناسب ضخامتها مع صغر حجم البلاد، جرى تقسيمها إلى قطاعات، من أجل إقرار الحصص النسبيّة للمشاركة في المهمّة، مثلما قال بروح دقيقة رئيس جمعيّة وكالات الدفن عاثر الحظّ، ممّا سهّل بصورة هائلة مهمّة ناقلي الحمولة البشريّة في سباقهم مع الزمن. وكان هناك تأثير آخر للعلم الوطني، لم يُلحظ مسبقا، ولم يكن متوقّعا، ولكنّه أثبت إلى أيّ حدّ يمكن لنا أن نكون مخطئين عندما ننهمك في غرس شكوك من النوع المنهجيّ، وتمثّل ذلك في الحركة الفاضلة لعدد من المواطنين المحترمين ذوي التقاليد المتجذّرة بمراعاة العرف الاجتماعيّ، وممّن مازالوا يستخدمون القبّعة، وذلك بالكشف عن رؤوسهم لدى المرور قبالة النوافذ المزيّنة بالرايات، مخلّفين بحركتهم تلك الشكّ المتعجّب في ما إذا كانوا يفعلون ذلك احتراما للميت أم احتراما لرمز الوطن الحيّ والمقدّس.

أمّا الصحف، ولا حاجة إلى قول ذلك، فكانت محطّ اهتمام كبير، بل أكبر ممّا كانت عليه عند ظهور خبر أنّه لم يعد ثمّت موت. هناك أعداد كبيرة من الناس تلقّت من التلفزيون طبعا أخبار انقلاب الأوضاع الذي حلّ بهم، بل كان لدى كثيرين منهم أقارب ميّتون في البيت بانتظار الطبيب، وأعلام باكية على الشرفات، غير أنّه من السهل تفهّم وجود شيء من الاختلاف بين صورة المدير العامّ المتوتّرة وهو يتكلّم ليلة أمس من الشاشة، وهذه الصفحات المتشنّجة، الهائجة، الملطّخة بعناوين رئيسة صارخة ومرعبة، والتي يمكن لها أن تُطوى، وأن توضع في الجيب وتُحمل إلى البيت لتُقرأ بكلّ اهتمام، ودليلا على ذلك نكتفي بأن نلتقط هنا عددا محدودا ولكنّه معبّر من الأمثلة التي وردت في عناوين الصحف، بعد النعيم، جاء الجحيم، الموت هو من يقود الرقصة، خالدون لوقت

قصير، محكومون بالموت من جديد، كش مات، تنبيه مسبق اعتبارا من الآن، بلا استئناف وباستشراء متزايد، ورقة بنفسجيّة اللون، اثنان وستّون ألف ميت في أقلّ من ثانية واحدة، الموت ينقضّ في منتصف الليل، لا أحد يفلت من قدره، الخروج من الحلم للدخول في الكابوس، عودة إلى الحالة الطبيعيّة، ما الذي فعلناه لنستحقّ هذا كلّه، إلى آخره، إلى آخره. الصحف جميعها، بلا استثناء، نشرت على صفحاتها الأولى مخطوطة الموت، ولكنّ صحيفة منها، لتسهيل القراءة، استنسخت النصّ في إطار بحرف قياسه أربعة عشر، وصحّحت علامات الترقيم والنحو بما يتناسب ووضع الألفاظ، ووضعت الحرف الكبير حيث يتوجّب وضعه، دون نسيان توقيع الموت في ذيل الرسالة الذي تبدّل من morte إلى Morte، وهو فرق لا يمكن للسمع تمييزه، ولكنّه سيستثير في هذا اليوم بالذات احتجاجا ساخطا من كاتبة الرسالة، وهو احتجاج خطّيّ وعلى الورق البنفسجيّ نفسه أيضا. فالموت ببساطة، حسب رأي نحويٍّ مخوّلٍ اسْتَشَارَتْهُ الصحيفة، لا يتقن أوّليّات فنّ الكتابة البدائيّة. فالخطّ، قال النحويّ، غير منتظم بصورة غريبة، يبدو كما لو أنّه قد اجتمعت فيه كافّة أساليب الخطّ المعروفة، والمحتملة في رسم حروف الأبجديّة اللاتينيّة، وكأنّ كلّ حرف منها كتبه شخص مختلف، ولكن هذا يمكن غفرانه مع ذلك. يمكن اعتباره عيبا صغيرا حيال العيب الهائل في التراكيب النحويّة المشوّشة، وغياب نقاط النهاية، وعدم استخدام أقواس الحصر الضروريّة دوما، والإلغاء المهووس للنقطة على السطر وبدء فقرة جديدة، ونثر الفواصل دون ضابط، وهناك الخطيئة التي لا تغتفر المتمثّلة في الإلغاء المتعمّد وشبه الشيطانيّ لاستخدام الحرف الكبير، حتّى إنّه حُذف، ولاحظ ذلك، من توقيع الرسالة نفسه واستُبدل بالحرف الصغير الموافق. إنّه شيء مُخجل، أمر استفزازيّ، واصل النحويّ وتساءل، إذا

كان الموت الذي تمتّع في ما مضى بامتياز مساعدة كبار عباقرة الأدب، يكتب بهذه الطريقة، فكيف لن يفعل ذلك غدا أطفالنا إذا ما خطر لهم محاكاة مثل هذه الفظاعة اللغويّة تحت ذريعة أنّه لا بدّ للموت، وهو الذي يجول هنا منذ أزمنة بعيدة، أن يعرف كلّ شيء عن كافّة فروع المعرفة. وينتهي النحويّ إلى القول، إنّ الأخطاء النحويّة الفاحشة التي تملأ الرسالة المؤسفة تدفعني إلى التفكير في أنّنا حيال خدعة عظيمة وفظّة لولا كآبة الواقع البالغة، والتجلّي المؤلم لتحقّق التهديد الرهيب. بعد ظهر ذلك اليوم بالذات، مثلما ذكرنا مقدّما، وصلت إلى مكاتب تحرير الجريدة رسالة من الموت يطالب، بكلمات أشدّ حماسة، بأن يُصحّح اسمه فورا، السيد المدير، كُتب الموت، أنا لست الـ Morte، إنني بكل بساطة الـ morte، لأن الـ Morte شيء لا يمكن أن تخطر ماهيّته، ولو كشبح، على بالكم أنتم معشر البشر الذين لا تعرفون، ولْيُدَوِّنْ النحويّ ملاحظة بأنّني أنا أيضا أعرف أنّكم، معشر البشر، لا تعرفون إلاّ هذا الموت الصغير، «موت» (morte)، اليوميّ الذي هو أنا، هذا العاجز حتّى في أسوإ الكوارث عن منع الحياة من الاستمرار، وستصلون ذات يوم إلى معرفة ما هو الموت الذي يبدأ معرَّفًا - الـ«موت» بحرف كبير morte- في تلك اللحظة، إذا ما منحكم هو الوقت لمعرفة ذلك، وهذا غير محتمل، فسوف تفهمون الفرق الحقيقيّ القائم بين ما هو نسبيّ وما هو مطلق، بين ما هو ممتلئ وما هو فارغ، بين ما لا يزال كائنا وانعدام الكينونة، وعندما أتكلّم عن اختلاف حقيقيّ فإنّما أعني شيئا لا يمكن للكلمات أن تعبّر عنه أبدا، نسبيّ، مطلق، ممتلئ، فارغ، لا يزال كائنا، انعدام الكينونة. ما هذا أيّها السيّد المدير، فالكلمات، إذا كنت لا تعرف، تتحرّك كثيرا، تتبدّل من يوم إلى آخر، إنّها غير مستقرّة كالظلال، وهي نفسها ظلال، سواء أكانت موجودة أم تخلّت عن وجودها، إنّها فقاعات صابون، حلزونات لا تكاد

تُسمع في التنفّس، جذوع مقطوعة، وهنا أترك لك هذه المعلومات، إنّها مجّانيّة، لن أتقاضى شيئا مقابلها، وفي أثناء ذلك اهتمّ بأن توضّح جيّدا لقرّائك الـ «كيف» والـ «لماذا» حول الحياة والموت، وبعد هذه التوضيحات، نعود الآن إلى الهدف من هذه الرسالة، المكتوبة بخطّ يدي، وبالطريقة نفسها التي قُرئت بها في التلفزيون، فأدعوك على الفور إلى تنفيذ الترتيبات النزيهة لقانون الصحافة الذي يقضي بتصويب الخطإ في المكان نفسه وبالخطوط نفسها التي نُشر بها الخطأ، أو السهو، أو الزلّة المقترفة، وستجازف حضرتك في هذه الحالة، ما لم تنشر رسالتي هذه بكاملها، بأن أرسل إليك، غدا بالذات، وبمفعول فوريّ، التنبيه المسبق الذي لم أكن قد حجزته لك إلاّ بعد سنوات، لن أخبرك بعددها كي لا أملأ بالمرارة ما تبقّى من حياتك، ودون أيّ شيء آخر، أوقّع بالاهتمام المطلوب، موت.

ظهرت الرسالة بحذافرها في اليوم التالي مع فيض من اعتذارات المدير، وكان ظهورها بصورة مزدوجة أيضا، هذا يعني، الرسالة المخطوطة، وأخرى بحروف طباعيّة، بخطّ أربعة عشر ضمن إطار. وعند خروج الصحيفة إلى الشارع فقط، تجرّأ المدير على الخروج من الغرفة المحصّنة التي حبس نفسه فيها بسبعة مفاتيح منذ اللحظة التي قرأ فيها رسالة التهديد. وكان لا يزال مذعورا جدّا إلى حدّ رفض معه نشر دراسة حول الخطّ سلّمه إيّاها شخصيّا أحد أهمّ المتخصّصين في الموضوع. تكفيني المشاكل التي سبّبها لي نشر توقيع الموت بحرف كبير، قال، خذ تحليلك للخطّ إلى صحيفة أخرى، وليجرِ تقاسم الشرّ بين القرى، وابتداء من الآن فليكن ما يشاؤه الربّ، وكلّ شيء إلاّ معاناة رعب مثل الذي مررتُ به. ذهب دارس الخطوط إلى جريدة، ثمّ إلى أخرى، وفي الجريدة الرابعة فقط، وكان على وشك أن يفقد الأمل، تمكّن من جعلهم يتلقّون

ثمرة ساعات غير قليلة من العمل المتاهيّ التي كرّسها لإنجازه مستعينا بعدسة مكبّرة نهاريّة وليليّة. وكان التقرير الجوهريّ ووافر العصارة يبدأ بالتذكير بأنّ تحليل الكتابة، في أصوله، كان فرعا من علم الفراسة، وأمّا الفروع الأخرى، لمعلومات من هو على غير دراية بهذا العلم الدقيق، هي المحاكاة، والإيمائيّة، والبانتوميم، والفونوجنومونيا، وأتى بعد ذلك على ذكر أعظم المرجعيّات في هذا الموضوع المعقّد، وكلّ منهم في زمانه ومكانه، من أمثال، كاميلو بالدي، وجوهان كاسبار لافتير، وإدوارد أغوست باتريس هوكارت، وأدولف هينز، وجان جين هيبوليت ميشون، وويليام ثيري برير، وسيزر لوبروسو، وجول كرابيو يامين، ورودولف بوفال، ولودفيغ كلاغس، وفيلهيلم هيلموث موليبر، وأليس إنسكات، وروبين هيس، الذين أعيد بفضلهم وضع أسس علم الاستدلال الخطّيّ بمظهره النفسانيّ وبإثبات ازدواجيّة معنى الخصائص الخطّيّة وضرورة استيعاب تعبيرها ككلّ إجماليّ، وبعد عرض المعطيات التاريخيّة والأوّليّة للمسألة، تقدّم خبيرنا في الخطوط عبر ميدان التعريف المستفيض بمميّزات الكتابة ما قبل الواعية، أي الحجم، الضغط، الدقّة، التنسيق في المكان، الزوايا، التنقيط، التناسب بين ذيول الحروف العالية والواطئة، أي ما يمكن التعبير عنه بكلمات أخرى، الكثافة، الشكل، الميلان، اتّجاه تواصل الرموز الخطّيّة، وأخيرا، وبعد أن أوضح أنّ الهدف من دراسته لم يكن تشخيصيّا إكلينيكيّا، ولا تحليلا للشخصيّة، ولا تفحّصا للأهليّة المهنيّة، ركّز الاختصاصيّ اهتمامه على الأدلّة الواضحة المتعلّقة بميدان علم الإجرام الذي تكشفه الدراسة في كلّ خطوة، ومع ذلك، يكتب بإحباط وحزن، أجد نفسي أمام تناقض لا أرى طريقة لحلّه، بل إنّني أشكّ في وجود حلّ ممكن له، فإذا كان صحيحا أنّ كلّ مؤشّرات تحليل الخطّ المنهجيّة والدقيقة التي سبق وأشرت إليها تدلّ على أنّ صاحبة

الكتابة هي ما يسمّى serial killer، أي قاتل متسلسل، فإنّ حقيقة أخرى غير قابلة للدحض كذلك، وناتجة عن بحثي الدقيق، تطيح بطريقة مّا بالأطروحة السابقة، وقد انتهت إلى فرض نفسها، وهي حقيقة أنّ الشخص الذي كتب هذه الرسالة ميت. هكذا كان الأمر عمليّا، ولم يجد الموت نفسه بدًّا من تأكيده، السيّد اختصاصيّ الخطوط على صواب، هذه كانت كلماته بعد قراءته العرض المتبحّر في العلم. إلاّ أنّه من غير المفهوم، إذا كان الموت ميتا، ومكوّنا كلّه من عظام، فكيف يمكن له أن يقتل. وأن يكتب رسائل فوق ذلك. هذه الأسرار لن تتّضح أبدا.

انشغالنا بشرح ما حدث بعد ساعة شؤم الاثنين وستّين ألفا وخمسمائة وثمانين شخصا الذين كانوا في حالة حياة معلّقة، جعلنا نؤجّل إلى لحظة أخرى ملائمة أكثر، هي هذه اللحظة، التأمّلات التي لا بدّ منها حول الطريقة التي تلقّت بها هذا التبدّل في الوضع بيوتُ الأفول السعيد، والمستشفيات، وشركات التأمين، والمافيا، والكنيسة، وخاصّة الكنيسة الكاثوليكيّة، لأنّها تمثّل الأغلبيّة في البلاد، إلى حدّ وجود اعتقاد شائع بأنّ السيّد يسوع المسيح لن يختار مكانا آخر يولد فيه إذا ما أتيح له إعادة الكَرَّة، من الألف حتّى الياء، بوجوده الدنيويّ الأوّل، وليكن معلوما أنّه وجوده الوحيد المستمرّ حتّى الآن. ففي بيوت الأفولِ السعيد، ولنبدأ بها، كانت المشاعر هي تلك التي يمكن توقّعها. فإذا أُخذ بالاعتبار أنّ تواصل حركة دوران النزلاء، مثلما شُرح مع بدء هذه الأحداث المفاجئة، هو الشرط الملازم لازدهار المؤسّسة اقتصاديّا، فلا بدّ لعودة الموت من أن تكون، مثلما حدث، سببا لابتهاج الإدارات المعنيّة وتجدّد آمالها. وبانقضاء الصدمة الأوّليّة الناجمة عن قراءة الرسالة المشهورة في التلفزيون، بدأ المديرون على الفور وضعَ افتراضات الحياة ووجدوا أنّها كلّها تخرج معهم رابحة. لم تكن قليلة زجاجات الشمبانيا التي شُربت

في منتصف الليل للاحتفال بعودة الأمور غير المتوقّعة إلى نصابها، وإذا بدا ذلك ذروة في عدم المبالاة بحياة الآخرين وازدرائها، فإنّه لم يكن، باختصار، سوى وجه آخر للراحة الطبيعيّة، للتفريج المشروع عن النفس لمن وُضع أمام باب مغلق أضاع مفتاحه، ويراه الآن مشرعا على مصراعيه، دون عراقيل، والشمس تشرق في الجانب الآخر. سيقول الموسوسون إنّه كان عليهم على الأقلّ أن يتجنّبوا مباهاة الشمبانيا الصاخبة والساذجة، السدّادة التي تطير مفرقعة، والرغوة التي تفيض متدفّقة، وإنّ كأسا وقورا من نبيذ أبورتو أو مايرا، أو قطرة كونياك، أو رشفة براندي مع القهوة، ستكون احتفاليّة أكثر من كافية، أمّا نحن، هنا، الذين نعرف جيّدا السهولة التي تفلت بها الروح أعنّة الجسد عندما تتجاوز السعادة الحدود، فإنّنا نرى أنّه حتّى حين لا تتوجّب التبرئة، يكون الصفح ممكنا على الدوام.

في صباح اليوم التالي استدعى مسؤولو الإدارة أهالي النزلاء ليبحثوا عن الأجساد، وأمروا بتهوية الغرف واستبدال الملاءات، وبعد أن جمعوا العاملين لإخبارهم بأنّ الحياة ستتواصل أخيرا، وجلسوا لتفحّص قائمة طلبات الراغبين في الإقامة واختيار من بين المتقدمين أولئك الذين يبدون واعدين أكثر من غيرهم. ولأسباب غير مطابقة من جميع الأوجه، ولكن لاعتبارات مماثلة، كانت الحالة المعنويّة لإداريّي المستشفيات قد تحسّنت بين عشيّة وضحاها. مع أنّ قسما كبيرا من المرضى، كما قلنا من قبل، ممّن لا علاج لهم ووصلت أمراضهم إلى أقصاها وإلى درجتها الأخيرة إذا صحّ قول ذلك عن حالة مرضيّة أعلن عنها أنّها أبديّة، كانوا قد أعيدوا إلى بيوتهم، ففي أيّ أيد أفضل يمكن لأولئك المساكين أن يكونوا؟ كانوا يتساءلون برياء، غير أنّ عددا كبيرا ممّن لا أقرباء معروفين لهم ولا نقود لديهم يدفعونها مقابل ما تتطلّبه الإقامة في دور الأفول

السعيد، كانوا يتراكمون هناك في الممرّات، مثلما هي العادة القديمة في أماكن الرعاية هذه، أمس، واليوم، ودائما، وفي غرف مهملات، وفي أركان، وفي زوايا وعليّات، كثيرا ما يُتركون فيها مهجورين لعدّة أيّام، دون أن يهتمّ أحد بذلك، إذ إنّهم، كما كان يقول الأطبّاء والممرّضون، لن يموتوا مهما ساءت أحوالهم. وهاهم الآن قد ماتوا، وأخرجوا من هناك ودُفنوا، وصار هواء المستشفيات نقيّا وبلّوريّا، يعبق بذلك الشذى المعروف من الأثير واليود والكريولين، كما في الجبال العالية، وتحت السماء المكشوفة. لم تُفتح زجاجات شمبانيا، ولكن ابتسامات سعادة مديري المستشفيات الخاصّة وإداريّيها كانت تمنح الراحة للنفوس، أمّا بالنسبة إلى الأطبّاء، فيكفي القول إنّهم قد استعادوا النظرات الملتهمة التي يلاحقون بها عاملات التمريض في قسم الإسعاف. إنّها الأحوال العاديّة بكلّ ما في الكلمة من معنى. أمّا شركات التأمين، الثالثة بالتالي في القائمة، فلا وجود في هذه اللحظات للكثير ممّا يمكن قوله، لأنّها لم تتوصّل بعد إلى الاتفاق حول إذا ما كان الوضع الراهن، على ضوء التغييرات التي أدخلت إلى بوالص التأمين على الحياة والتي أشرنا إليها بالتفصيل من قبل، سيكون نافعا أم ضارّا بمصالحها. وهي لن تقدم على أيّ خطوة قبل التأكّد من رسوخ الأرض التي ستطؤها، ولكنّها عندما تخطو تلك الخطوة أخيرا، ستغرس هناك بالذات جذورها الجديدة على شكل عقد ستتوصّل إلى ابتكاره ليكون ملائما أكثر لمصالحها. وفي أثناء ذلك، ولأنّ المستقبل في يد الربّ، ولأنّه لا يُعرف ما الذي يحمله لنا الغد، فإنّها ستواصل اعتبار جميع المُؤمَّن عليهم ميّتين عند بلوغهم سنّ الثمانين، فهذا العصفور على الأقلّ صار في اليد، وما عليهم إلاّ أن يروا إن كان بإمكانهم في الغد إيقاع عصفورين في الشبكة. ومع ذلك، سيكون هناك منْ يستبق فيرى أنّه ربّما لن تكون فكرة سيّئة أن

تُرفع سنّ الموت التأمينيّ إلى الخامسة والثمانين، وحتّى إلى التسعين، باستغلال حالة الاضطراب المخيّمة على المجتمع الذي هو الآن، أكثر من أيّ وقت مضى، محشور بين السيف والجدار، بين إسيلا وكاريبديس، بين المطارق وفكوك الكمّاشات. والمسوّغ العقلانيّ لمن دافعوا عن هذا التعديل كان شفّافا وواضحا كالماء، فهم يقولون إنّه ببلوغ الأشخاص هذه السنّ، فضلا عن أنّه لا يكون لديهم، بصورة عامّة، أقارب يساعدونهم في حالة الضرورة، أو يكون لهم أقرباء متقدّمون في السنّ، وهو ما يعني الأمر نفسه، فإنّهم يعانون من انخفاضات جدّيّة في معاشات تقاعدهم نتيجة التضخّم وارتفاع تكاليف الحياة المتزايد، وهو وضع يجعلهم في حالات كثيرة جدّا مضطرّين إلى وقف أقساط التأمين المتوجّبة عليهم، فيوفّرون بذلك لشركات التأمين أفضل المسوّغات لاعتبار عقودهم ملغاة وباطلة المفعول. هذا تصرّف غير إنسانيّ، اعترض البعض. الأعمال هي الأعمال، ردّ آخرون. ولسوف نرى كيف سينتهي هذا.

المافيا هي المؤسّسة التي كان يدور فيها الحديث بكثرة في هذه الأوقات عن الأعمال والصفقات. وربّما لأنّ الوصف المقدّم في هذه الصفحات كان مفرطا في عرض التفاصيل، ونتقبّل ذلك دون تحفّظ، عن السراديب القاتمة التي توغّلت فيها المنظّمة الإجراميّة في الاستغلال الجنائزيّ، فإنّه يمكن لأحد القرّاء أن يكون قد فكّر في هذه المافيا التافهة التي لم تجد طريقة أخرى لكسب المال بأقلّ قدر ممكن من الجهد وجني أرباح أكبر بكثير. لقد كان لدى المافيا المحلّيّة تلك الطرق المتنوّعة، مثل منظّمات جنسها الأخرى المنتشرة في أجزاء العالم الستّة، ولكنّها بالغة البراعة في موازنة التكتيكات والاستراتيجيّات وإمكاناتها المشتركة، ولا تكتفي بالمراهنة بصورة تافهة على الربح السريع، لأنّ أهدافها أكثر اتّساعا بكثير، فهي تتطلّع إلى الخلود، بمعنى أن تتوصّل

بانحراف الأُسر الضمنيّ وبرحمة الموت الرحيم، مع مباركة السلطة السياسيّة التي تتظاهر بالنظر إلى جهة أخرى، إلى فرض احتكارها المطلق لموت الكائنات البشريّة ودفنها، وأن تتولّى في خطوة واحدة مسؤوليّة الحفاظ على الكثافة السكّانيّة عند المستويات المناسبة للبلاد في كلّ لحظة، بأن تفتح أو تغلق الصنبور، وفق الصورة المستخدمة سابقا، أو التحكّم بمقياس التضخّم إذا استخدمنا كلمة أكثر صرامة تقنيّة. وإن هي لم تكن قادرة، في هذه المرحلة الأولى على الأقلّ، على تنشيط التكاثر أو إبطائه، فسيكون في يدها على الأقلّ تسريع الرحلات إلى الحدود أو تأخيرها، ولا نعني هنا الحدود الجغرافيّة، وإنّما حدود الأبديّة. وفي لحظة دخولنا القاعة بالضبط، كان النقاش يتركّز حول الطريقة المثلى لإعادة تفعيل القوى العاملة التي تعطّلت مع عودة الموت، وتوظيفها في نشاطات مجزية. ولئن كان صحيحا أنّ اقتراحات كثيرة كانت معروضة على المائدة، بعضها أكثر جذريّة من الأخرى، إلاّ أنّ الأمر انتهى إلى تفضيل الاقتراح الذي يتمتّع بتاريخ طويل من الخبرة لأنّه لا يحتاج إلى تجهيزات معقّدة، ونعني به تأمين الحماية. وفور بدء اليوم التالي، شهدت الوكالات الجنائزيّة في كلّ أنحاء البلاد، من الشمال إلى الجنوب، دخول شخصين عبر الباب، هما رجلان في معظم الحالات، أو رجل وامرأة في بعض الحالات، أو امرأتان في حالات نادرة، يسألان بأدب شديد عن المدير، ثمّ يشرحان له بعد ذلك بأفضل السبل أنّ مؤسّسته معرّضة لخطر المهاجمة أو حتّى التدمير بقنبلة، أو الإحراق، على يد ناشطين من بعض جمعيّات المواطنين غير الشرعيّة التي كانت تطالب بتضمين الحقّ في الخلود في الميثاق العالميّ لحقوق الإنسان، وتسعى هذه الجمعيّات الآن، بعد أن أصيبت بالإحباط، إلى التفريغ عن غضبها بإعمال ذراع الانتقام الثقيلة ضدّ مؤسّسات بريئة لمجرّد أنّها

كانت المسؤولة عن نقل الجثث إلى منزلها الأخير. إنّنا مطّلعون ولدينا معلومات، يقول أحد المبعوثين، عن أنّ أعمال التخريب مؤكّدة، وأنّها يمكن أن تصل، في حالة مقاومتها، إلى اغتيال المالك والمدير وأفراد أسرتيهما، وفي حال غيابهما اغتيال موظّف أو اثنين، وستبدأ هذه العمليّات يوم غد بالتحديد، ربّما في هذا الحيّ بالذات، أو في حيّ آخر، وما الذي يمكنني فعله، يسأل المدير المسكين مرتجفا، لا شيء، أنت لا يمكنك عمل أيّ شيء، أمّا نحن فنستطيع الدفاع عنك إذا طلبت منّا ذلك، طبعا أنا موافق، أطلبُ الحماية بالطبع، أرجوكم، هنالك شروط لقبول طلبك، مهما كانت الشروط، أرجوكم، وفّروا لي الحماية، الشرط الأوّل هو ألاّ تتحدّث في هذا الموضوع مع أحد، ولا حتّى مع زوجتك، لستُ متزوّجا، لا فرق، مع أمّك، مع جدّتك، مع خالتك، لن يُفتح فمي، هذا أفضل لك، لأنّك إذا فتحته تجازف بأن يُغلق إلى الأبد، وما هي الشروط الأخرى، شرط واحد فقط، تدفع ما نطلبه منك، دفع، سيكون علينا أن نرتّب عمليّات الحماية، وهذا يكلّف أموالا يا سيّدي العزيز، أتفهّمُ ذلك، يمكن لنا حماية البشريّة كلّها إذا كانت مستعدّة لدفع الثمن، ولكن، بما أنّه بعد كلّ زمن يأتي زمن آخر، فإنّنا لم نفقد الأمل بعد، ألاحظُ ذلك، لحسن الحظّ أنّك سريع الملاحظة، كم يتوجّب عليّ أن أدفع، المبلغ مدوّن على هذه الورقة، كلّ هذا المال، إنّه المبلغ الدقيق بالضبط، وهذا يتوجّب دفعه سنويّا أم شهريّا، بل أسبوعيّا، هذا كثير على إمكاناتي، فبتجارة الجنائز لا يغتني المرء بسهولة، إنّك محظوظ لأنّنا لم نطلب منك ما تساويه حياتك حسب رأيك، هذا طبيعيّ، فأنا لا أملك حياة أخرى، لن تمتلكها، ولهذا نوجّه إليك النصيحة بأن تحاول حمايتها، سأفكّر في الأمر، لا بدّ لي من التباحث مع شركائي، نمنحك أربعا وعشرين ساعة، دون زيادة دقيقة واحدة، وبعدها نغسل أيدينا، وستكون المسؤوليّة

كلّها على عاتقك، فإذا ما تعرّضتَ لحادث، ونحن واثقون من أنّه لن يكون قاتلا، لأنّه سيكون الأوّل، فربّما سنعود عندئذ للتحدّث معك، ولكن السعر سيتضاعف، وحينئذ لن يكون لديك حلّ آخر سوى دفع ما نطلبه، لا يمكنك تخيّل مدى تصلّب جمعيّات المواطنين تلك المطالبة بالخلود، لا بأس، سأدفع، أربعة أسابيع مقدّما من فضلك، أربعة أسابيع، حالتك من الحالات المستعجلة، ومثلما قلنا لك، ترتيبات أعمال الحماية مكلفة، وهل سيكون الدفع نقدا أم بشيك، نقدا، فالشيكات لصفقات من نوع آخر ومساندات أخرى، عندما لا يكون ملائما انتقال الأموال مباشرة من يد إلى أخرى. فتح المدير صندوق الخزنة، وعدّ النقود، ثم سأل وهو يسلّمها، ألن تقدّموا لي إيصالا، وثيقة تضمن لي الحماية، لا إيصال ولا ضمانات، عليك أن تكتفي بكلمة الشرف التي نقدّمها إليك، كلمة شرف، بالضبط، كلمة شرف، فأنت لا تعرف إلى أيّ حدّ نحترم كلمتنا، وأين يمكنني أن أجدكم إذا ما تعرّضتُ لمشكلة، لا تقلق، نحن سنجدك، هل أرافقكم حتّى المخرج، لا حاجة إلى ذلك، فنحن نعرف الطريق، الانعطاف يسارا بعد مستودع النعوش، فإلى قاعة تجميل الجثث، ثمّ ممرّ، فقاعة الاستقبال، ويظهر على الفور الباب المؤدّي إلى الشارع، لا يمكن أن تضيعوا، لدينا حسّ توجّه مرهف جدّا، لا نضلّ الطريق أبدا، فعلى سبيل المثال، في الأسبوع الخامس التالي لهذا الأسبوع سيأتيك شخص ليقبض المبلغ الأسبوعيّ، وكيف سأعرف أنّه الشخص الصحيح، لن يخامرك أيّ شكّ حين تراه، طاب مساؤكم، طاب مساؤك، ولا حاجة بك لأن تشكرنا على أيّ شيء.

وأخيرا، أخيرا وليس آخرا، كان لدى الكنيسة الكاثوليكيّة الرسوليّة الرومانيّة أسباب كثيرة لترضى عن نفسها. فقد كانت مقتنعة منذ البداية بأنّ إبطال الموت لا يمكن له أن يكون إلاّ من عمل الشيطان، وأنّه

من أجل مساعدة الربّ ضدّ الأعمال الشيطانيّة لا شيء أقوى من المثابرة على التمجيد، فوضعت جانبا فضيلة التواضع التي رعتها بانتظام ليس بالقليل من الجهد والتضحية، من أجل أن تسهّل، دون تحفّظ، الحملة الوطنيّة لصلوات كان هدفها، نذكّر بذلك، التضرّع إلى الربّ بأن يتلطّف ويعيد الموت بأسرع ما يمكن للتوفير على البشريّة البائسة أسوأ الكوارث الرهيبة، نهاية الاقتباس. تأخّرت الصلوات حوالي ثمانية شهور للوصول إلى السماء، إنّما علينا أن نتذكّر أنّنا نحتاج إلى ستّة أشهر من أجل الوصول إلى كوكب المرّيخ فقط، والسماء لا بدّ أن تكون أبعد بكثير، كما يمكن تخيّل ذلك بسهولة، فهي على بعد ثلاثة آلاف مليون سنة ضوئيّة عن الأرض، بأرقام صحيحة. لقد كان في رضا الكنيسة مع ذلك ظلّ من السواد. فقد كان اللاهوتيّون يتجادلون، ولا يتوصّلون إلى اتّفاق، حول الأسباب التي دفعت الربّ إلى الأمر بعودة الموت المفاجئة، دون توفير الوقت ولو لتقديم المسحة الأخيرة للستّين ألف محتضر الذين، بحرمانهم من السرّ المقدّس الأخير، ماتوا بأسرع من الوقت الذي يتطلّبه قول ذلك. الشكّ في ما إذا كانت للربّ سلطة على الموت، أم أنّ الموت، على العكس من ذلك، هو الأعلى مرتبة من الربّ، كان يعذّب خفية أذهان المؤسّسة المقدّسة وقلوبها، حيث اعتُبر ذلك التأكيد الجريء القائل إنّ الرب والموت هما وجهان للعملة نفسها، أكثر من هرطقة، وتدنيس مقيت للمقدّسات. هذا ما كان يدور في الداخل. أمّا أمام عيون العالم فإنّ ما كان يقلق الكنيسة حقّا هو مشاركتها في جنازة الملكة الأمّ. فالآن وقد رقد الاثنان وستّون ألف ميت عادي في مثواهم الأخير وما عادوا يعرقلون حركة المرور في المدينة، حانت ساعة نقل السيّدة المبجّلة إلى المدافن الملكيّة، محفوظة بصورة مناسبة في تابوتها المصنوع من الرصاص. ومثلما لم تنس الصحف أن تقول، جرى قلب صفحة من التاريخ.

من المحتمل أنّ تربية متقنة فقط، من تلك التي صارت نادرة، وربّما يكون، في الوقت ذاته، الاحترام المتطيّر إلى هذا الحدّ أو ذاك الذي تبثّه الكلمة المكتوبة في النفوس الهيّابة، هو الذي حمل القرّاء - وإن كانت لا تنقصهم الأسباب لإظهار إشارات واضحة إلى صبرهم المكبوح - على عدم مقاطعة ما رحنا نرويه باستفاضة، ورغبتهم في أن نخبرهم بما كان يفعله الموت منذ الليلة المشؤومة التي أعلن فيها عن عودته. ونظرا لأهمّيّة الدور الذي تولّته في هذه الأحداث غير المسبوقة دور الأفول السعيد، والمستشفيات، وشركات التأمين، والمافيا، والكنيسة الكاثوليكيّة، فقد أحسنّا صنعا بتوضيح وافر التفاصيل لما كان عليه ردهم على تبدّل الوضع المفاجئ والدراماتيكي، ومع ذلك - لولا أنّ الموت، مع الأخذ بالاعتبار كمّيّة المتوفّين الهائلة التي يتوجّب دفنها في الساعات التالية مباشرة، قد قرّر في إيماءة غير متوقّعة وجديرة بالثناء، أن يطيل تغيّبه لبضعة أيّام إضافيّة حتى يتيح الوقت للحياة كي تدور حول محاورها القديمة - كان لا بدّ لأناس متوفّين آخرين، في الأيّام الأولى من عودة النظام، من أن ينضمّوا إلى التعساء الذين عاشوا لشهور حياة بائسة متأرجحين بين هنا وهناك، وكان علينا، كما يفرض المنطق، أن نتحدّث عن هؤلاء الموتى. ولكن ذلك لم يحدث، فالموت لم يكن كريما جدّا. والسبب في عطلة الأيّام الثمانية التي لم يمت فيها أحد وبدأ ينتشر الوهم السعيد بأنّ شيئا لم يتبدّل، إنّما هو القواعد الحاليّة للعلاقة الحاليّة بين الموت والبشر الفانين، أي قاعدة أنّ كلّ شخص سيتلقّى إشعارا مسبقا بأنّ لديه

أسبوعا من الحياة قبل انتهاء مهلة الكمبيالة مستحقّة الدفع، إذا صحّت هذه الطريقة في القول، ليحلّ قضاياه، ويعدّ وصيّته، ويدفع الضرائب المتأخّرة، ويودّع الأسرة والأصدقاء المقرّبين. هذه النظريّة تبدو فكرة جيّدة، ولكنّ الممارسة لن تلبث أن تثبت أنّها ليست بتلك الجودة. فلنتخيّل شخصا، من أولئك الذين يتمتّعون بصحّة رائعة، ممّن لم يشعروا قطّ بأيّ ألم في الرأس، من المتفائلين من حيث المبدإ، ولأسباب واضحة وموضوعيّة، ومع ذلك، لدى خروجه ذات صباح من بيته إلى العمل، يجد في الشارع ساعي بريد المنطقة النشيط يقول له، لحسن الحظّ أنّني رأيتك يا سيّد فلان، فأنا أحمل رسالة لك، وعلى الفور يظهر بين يديه مغلّف بنفسجيّ ربّما لا يستثير اهتماما خاصّا في البدء، إذ يمكن أن يكون سفاهة أخرى من سادة الدعاية المباشرة، لولا الخطّ الغريب الذي كُتب به اسمه، الشبيه بخطّ الفاكس الشهير الذي نُشر في الجريدة. فإذا ألّمت بقلبه طفرة ذعر، وإذا ما داهمه هاجس مأتميّ بمصيبة لا مفرّ منها، ويريد بالتالي أن يرفض استلام الرسالة، فإنّه لن يستطيع ذلك، وسيكون عندئذ كما لو أنّ أحدا يثبّته برفق من ذراعه، يساعده على نزول درج، وعلى تجنيب قَدمه قشرة موز على الأرض، وعلى الانعطاف في الناصية دون التعثّر بقدميه. ولن يفيد كذلك تمزيق الرسالة إلى نتف صغيرة، فمن المعروف أنّ رسائل الموت في التعريف غير قابلة للإتلاف، ولا يمكن لنفخة لهب من غاز الأسيتيلين بأقصى طاقتها أن تخترقها، كما أنّ الحيلة الساذجة بالتظاهر بأنّها سقطت من يده ستكون غير مجدية أيضا، لأنّ الرسالة لا تتيح له إفلاتها، تظلّ كما لو أنّها ملتصقة بأصابعه، وإذا ما أمكن لعكس ذلك أن يحدث بمعجزة، فمن المعروف جيّدا أنّ مواطنا طيّب الإرادة سيظهر فجأة ليلتقط الرسالة عن الأرض ويركض في إثر الساهي الزائف قائلا له، أظنّ أنّ هذه الرسالة لك،

وربّما تكون ذات أهمّيّة، فيتوجّب عليه عندئذ أن يردّ بكآبة، أجل، إنّها مهمّة، شكرا جزيلا للطفك. مع أنّه يمكن لهذا كلّه أن يكون قد حدث في البداية فقط، عندما كان قلّة هم الذين يعرفون أنّ الموت يستخدم خدمة البريد العامّ مراسلا لأغراضه المأتميّة. وخلال أيّام قليلة، سيتحوّل اللون البنفسجيّ إلى الأكثر مقتا بين الألوان كلّها، حتّى يصير مكروها أكثر من الأسود، بالرغم من أنّ هذا اللون يعني الحداد، وهو ما يمكن تفهّمه بسهولة إذا ما فكّرنا في أنّ الحداد لباس يرتديه الأحياء وليس الأموات، حتّى عندما يُدفن هؤلاء ببدلات سوداء. تصوّروا اضطراب وارتباك من هو ذاهب إلى عمله ويرى فجأة كيف يخرج له الموت بهيئة ساعي بريد لا يطرق الباب مرّتين أبدا، لأنّه إذا لم تَقُده المصادفة إلى الالتقاء بالمرسل إليه في الشارع، فإنّه يكتفي بدس الرسالة في صندوق البريد البيتيّ للشخص المعنيّ، أو إدخالها من تحت الباب. الرجل يقف هناك ثابتا، وسط الرصيف، بصحته الرائعة، ورأسه المتين، وهو متين إلى حدّ لا يؤلمه معه حتّى في هذه اللحظة على الرغم من الصدمة الرهيبة. وفجأة لم يعد العالم ينتمي إليه أو لم يعد هو ينتمي إلى العالم، وصار كلّ منهما معارا إلى الآخر لمدّة ثمانية أيّام، ثمانية أيّام وحسب، هذا ما تقوله الرسالة البنفسجيّة التي أذعن لتسلّمها للتوّ، العينان غائمتان بالدموع، ويكاد لا يتمكّن من حلّ الرموز المكتوبة، عزيزي السيّد، يؤسفني إخبارك أنّ حياتك ستنتهي خلال مهلة الأسبوع التي لا رجوع عنها وغير القابلة للتمديد، فاستغلّ بأفضل ما تستطيع الوقت المتبقّي لك، خادمتك المخلصة، موت[1]. التوقيع يبدأ بحرف صغير، وهو ما يمثّل بطريقة مّا، كما نعرف، ضمانة المصدر. يتردّد الرجل، فقد ناداه ساعي

(1) لا بد من الإشارة إلى أن كلمة موت morte بلغة المؤلف مؤنثة، كما أن التقاليد الشعبية تقدم الموت على هيئة هيكل عظمي لامرأة تحمل منجلاً طويل الذراع. ولهذا سنعمد في بعض الأحيان إلى استخدام كلمة منية المؤنثة، حين تقتضي الضرورة.

البريد باسمه، وساعي البريد من الجنس المذكّر، وفي يوم مّا سنتأكّد من ذلك نحن بالذات. يتردّد الرجل حول إذا ما كان عليه الرجوع إلى البيت والتفريج عن نفسه مع أسرته بشأن ذلك الحكم الذي لا رجعة عنه، أم عليه أن يبتلع دموعه ويواصل طريقه، يذهب إلى حيث ينتظره العمل، ويكمل كلّ الأيّام المتبقّية له، وعندئذ يمكنه أن يسأل، أيّها الموت، أين هو انتصارك، مع أنّه يعلم أنّه لن يتلقّى جوابا، لأنّ الموت لا يردّ أبدا، وليس ذلك لأنّه لا يريد الردّ، وإنّما لمجرّد أنّه لا يعرف ما الذي يقوله في مواجهة أشدّ ألم إنسانيّ.

هذا الحدث في الشارع، غير الممكن إلاّ في بلد صغير يعرف الجميع فيه بعضهم بعضا، أكثر من بليغ في الدلالة على عدم مناسبة نظام الاتّصال الذي أقامه الموت من أجل فسخ العقد الزمنيّ غير المكتوب الذي نسمّيه حياة أو وجودا. يمكن له أن يكون مظهرا ساديّ القسوة، مثل تلك المظاهر الكثيرة التي نراها كلّ يوم، غير أنّ الموت ليس بحاجة لأن يكون قاسيا، لأنّ ما يقوم به من انتزاع حياة الأشخاص يكفي ويزيد. إنّه لم يفكّر في الأمر، هذا كلّ ما هنالك. والآن، بينما هو مستغرق في تنظيم خدماته الداعمة، بعد توقّف طويل دام سبعة شهور، لم تعد لديه عيون ولا آذان تنتبه لصرخات يأس وغمّ الرجال والنساء الذين تصلهم، واحدا فواحدا، إشعارات موتهم الوشيك، يأس وغمّ يكون لهما، في بعض الحالات، تأثيرات معاكسة لما جرى توقّعه مسبقا. هذا يعني أنّ الأشخاص المحكوم عليهم بالاختفاء لا يحلّون مشاكلهم، ولا يُعدّون وصيّتهم، ولا يدفعون الضرائب المديّنين بها. أمّا بالنسبة إلى وداع الأسرة والأصدقاء المقرّبين، فكانوا يتركونه حتّى اللحظة الأخيرة، أي ما لا يكفي، كما هو واضح، لأكثر الوداعات كآبة. ولضآلة معلوماتها حول طبيعة الموت، واسمه الآخر القدر، تمادت الصحف في هجمات غاضبة ضدّ المنيّة، واتّهامها

بأنّها عديمة الرحمة، قاسية، طاغية، شرّيرة، دمويّة، مصّاصة دماء، إمبراطورة الشرّ، دراكولا بتنوّرة، عدوّة الجنس البشريّ، غادرة، سفّاحة، serial killer مرّة أخرى، بل كانت هناك أسبوعيّة، من مجلاّت الفكاهة، وبعد عصر كلّ ما لدى مبدعيها من سخرية، توصّلت إلى تسميتها ابنة العاهرة. ولحسن الحظّ أنّ الحسّ السليم كان لا يزال موجودا في تحرير بعض الصحف. فإحدى أكثر الجرائد احتراما في المملكة، وعميدة الصحافة الوطنيّة، نشرت افتتاحيّة رصينة دعت فيها إلى حوار مفتوح وصريح مع الموت، دون تحفّظات ذهنيّة، وبقلب على راحة اليد، وروح أخويّة، في حالة تمّ التوصّل، كما هو جليّ، إلى اكتشاف مأواه، جحره، وكره، مقرّه العامّ. واقترحت صحيفة أخرى على الشرطة أن تتحرّى في المكتبات ومصانع الورق، لأنّ مستخدمي المغلّفات البنفسجية من البشر، إن وجدوا، لا بدّ أن يكونوا قلّة ضئيلة، ولا بدّ أن يكون ذوقهم الرسائليّ قد تبدّل بالنظر إلى الظروف الأخيرة، وبهذا سيكون من السهل اصطياد الزبون القبوريّ عندما يأتي ليتموّن من جديد. صحيفة أخرى، وهي خصم عنيد للأخيرة، سارعت إلى تصنيف الفكرة بأنّها غباء مطبق، لأنّه لا يمكن أن يخطر إلاّ لأبله كامل أنّ المنيّة، وهي هيكل عظميّ ملتفّ بملاءة مثلما يعرف الجميع، ستخرج بقدميها، مطقطقة بكعبيها على حجارة الشارع، وتذهب إلى مركز البريد لترسل الرسائل. ولم يشأ التلفزيون أن يتخلّف عن الصحف، فنصح وزير الداخليّة بنشر عملاء حراسة عند الصناديق والعلب البريديّة، متناسيا كما يبدو أنّ الرسالة الأولى التي وُجّهت إليهم إنّما ظهرت في مكتب المدير العامّ الذي كان بابه مقفلا بلفّتي مفتاح، وكان زجاج النوافذ سليما. كما أنّه لا وجود في الأرضيّة أو الجدران أو السقف ولو لشقّ بسيط يتّسع بمرور شفرة حلاقة. ربّما كان ممكنا بالفعل إقناع الموت بمعاملة المحكومين التعساء بمزيد من

الشفقة، ولكن ذلك يتطلّب بالضرورة البدء بالعثور عليه، وليس هناك من يعرف كيف أو أين.

وكان عندئذ أن خطرت لطبيب شرعيّ، وهو شخص مطّلع على كلّ ما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بمهنته، خطرت له فكرة الطلب بأن يؤتى من الخارج بخبير مشهور في إعادة بناء الرفات بالاستناد إلى الجمجمة، كي يحاول الخبير المذكور، انطلاقا من تمثيل المنيّة في رسوم وأعمال غرافيك قديمة، وخاصة تلك التي تُظهر الجمجمة مكشوفة، أن يعيد ترميم الجمجمة في المواضع التي تحتاج إلى ترميم، وإعادة ضبط العينين في المحجرين، وأن يوزّع الشعر والأهداب والحاجبين بنسب ملائمة، وينشر على الوجه الألوان المناسبة، إلى أن يظهر أمامه الرأس المكتمل والناجز الذي ستصنع منه ألف نسخة فوتوغرافيّة يحملها عدد مماثل من التحرّيّين في محافظهم ليقارنوها مع كلّ ما يقابلونه من الوجوه النسائيّة. السيّئ في الأمر هو أنّه بعد انتهاء مداخلة الخبير الأجنبيّ، لم يكن بمقدور سوى عين غير مدرّبة أن تتقبّل تماثل الجماجم الثلاث المختارة، مما يضطرّ التحرّيّين بالتالي إلى العمل على ثلاث صور بدل صورة واحدة، وهو ما يُضَعِّب مهمّة اصطياد المنيّة، وهذه هي التسمية الطموحة التي أُطلقت على العمليّة. أمر وحيد تأكّد دون أيّ نوع من الشكّ، فأشدّ الأيقونات بدائيّة، وأشدّ الرسوم التوضيحيّة اختلاطا، وأشدّ الرسوم الرمزيّة غموضا لم تخطئ جميعها. فالموت، بكلّ ملامحه، سماته المميّزة، وخصائصه، هو امرأة بصورة لا تقبل الجدل. وإلى هذه النتيجة نفسها، كما تتذكّرون دون شكّ، كان قد توصّل خبير الخطوط الذي درس مخطوطة الرسالة الأولى عندما أشار إلى صاحبتها، وليس إلى صاحبها، غير أنّ هذا يمكن أن يكون مجرّد نتيجة للعادة اللغويّة، ذلك أنّ الموت كان على الدوام اسم علم مؤنّثا، باستثناء بعض اللغات

القليلة التي فضّلت، لسبب غير معروف، اختيار الجنس المذكّر أو المحايد. ومع أنّ هذه المعلومات قد قُدّمت من قبل، فإنّه من المناسب، من أجل عدم النسيان، التأكيد على أنّ الوجوه الثلاثة بالرغم من أنّها كانت جميعها لنساء، ولنساء شابّات، إلاّ أنّهنّ كنّ مختلفات في بعض النقاط المحدّدة، على الرغم، في الوقت نفسه، من نقاط التشابه الجليّة التي يمكن الإجماع في التعرّف عليها. ولأنّه من غير المعقول وجود ثلاث منيّات مختلفات، يعملن بالتناوب، فلا بدّ من استبعاد اثنتين منهنّ، مع أنّه من الممكن أيضا، ومن أجل زيادة في تعقيد الوضع، أن يكون نموذج الهيكل العظميّ الحقيقيّ والواقعيّ للموت لا يتّفق مع أيّ من الهياكل العظميّة الثلاثة التي جرى اختيارها. ووفقا للجملة المعروفة، سيكون ذلك كإطلاق رصاصة في الظلام والثقة بأنّ المصادفة الطيّبة ستجد الوقت الكافي لتضع الهدف في مسار الرصاصة.

بدأت التحرّيات، كما لا يمكن بطريقة أخرى، في أرشيف خدمات التحرّي الرسميّة حيث تجتمع، مصنّفة ومرتّبة حسب السمات الأساسيّة، ذوو الرؤوس المستطيلة في جانب، وذوو الرؤوس القصيرة في الجانب الآخر، صور جميع سكّان البلاد، الوطنيّين منهم والأجانب. كانت النتائج مخيّبة للآمال. ولا بدّ أن يكون واضحا منذ البدء، أنّ النماذج المختارة لترميم الوجه، مثلما أشرنا سابقا، إنّما أُخذت من أعمال جرافيك ورسم قديمة، ومن غير المتوقّع بالتالي العثور على صورة بشريّة للموت في أنظمة تحديد الهويّة الحديثة التي أقرّت منذ أكثر من قرن بقليل، ولكنّنا إذا ما أخذنا بالاعتبار، من ناحية أخرى، أنّ الموت نفسه موجود منذ الأزل ولا يُلمح وجود أيّ سبب يضطرّه إلى تغيير وجهه على امتداد الأزمنة، دون نسيان أنّه لا بدّ من أن يكون من الصعب عليه إنجاز عمله بطريقة تامّة إذا ما كان يعيش في السرّيّة، فمن المنطقيّ تماما تقبّل

فرضيّة أنّه قد سُجّل في السجلّ تحت اسم مزيّف، ذلك أنّه لا يوجد شيء مستحيل، كما هو معروف، على الموت. ومهما يكن من أمر، فالصحيح أنّه على الرغم من أنّ التحرّيّات قد لجأت إلى مواهب الفنون المعلوماتيّة ومقاطعة المعلومات، فإنّ أيّا من صور النساء المحدّدات الهويّة لم تتطابق مع أيّ من صور الموت الافتراضيّة الثلاث. ولم يعد هناك مفرّ إذا من العودة إلى أساليب التحقيق التقليديّة، وهو ما كان قد أُخذ في الحسبان في حالة الضرورة، إلى أساليب حِرفيّة القصّ واللصق البوليسيّة، وذلك بأن يُنشر الألف شرطيّ في كافّة أنحاء البلاد، وأن يتنقّلوا من بيت لبيت، ومن متجر لمتجر، ومن مكتب لمكتب، ومن مصنع لمصنع، ومن مطعم لمطعم، ومن بار لبار، بما في ذلك الأماكن المخصّصة للممارسات الجنسيّة الباهظة، مزوّدين بصلاحيّة استعراض النساء جميعهنّ، باستثناء المراهقات والمتقدّمات في السنّ أو الناضجات، ذلك أنّ الصور التي يحملونها في جيوبهم لا تترك مجالا للشكّ في أنّ المنيّة، إذا ما حدث وعُثر عليها، ستكون امرأة في حوالي السادسة والثلاثين من العمر، وباهرة الجمال كما هنّ قليلات. ووفقا للنموذج الذي تمّ التوصّل إليه، يمكن لأيّ واحدة أن تكون المنيّة، ولكن أيّا منهنّ لم تكن هي المنيّة مع ذلك. وبعد جهود مضنية، بعد التخبّط لفراسخ وفراسخ في الشوارع، والطرق العامّة والدروب، وبعد صعود أدراج إذا ما جُمعت معا توصلهم إلى السماء، تمكّن التحرّيّون من تحديد اثنتين من هؤلاء النسوة، وإذا كانتا تختلفان قليلا عن الصور الموجودة في الأرشيف فإنّما السبب في ذلك هو أنّهما استفادتا من مداخلات جراحيّة تجميليّة أبرزت، بتوافق مذهل، وبمصادفة غريبة، من أوجه الشبه بين وجهيهما ووجوه النماذج الثلاثة التي جرى ترميمها. ومع ذلك، فإنّ فحصا دقيقا لسيرتي حياتيهما ألغى، دون أيّ هامش خطأ، أيّة إمكانيّة في أن تكونا قد

كرّستا يوما واحدا من حياتهما، ولا حتى في ساعات فراغهما، لنشاطات مقصّ باركا المميتة، لا كمحترفتين ولا كمجرّد هاويتين. أمّا المرأة الثالثة التي جرى تحديد هويّتها بفضل ألبوم الصور العائليّة، فكانت قد ماتت في العام الفائت. وباستبعاد بسيط للتفاصيل، ما كان يمكن لها أن تكون الموت الذي كانت هي نفسها ضحيّة له. ويبدو من غير الضروريّ القول إنّه بينما كانت التحريات تجري، وقد استمرّت بضعة أسابيع، واصلت المغلّفات البنفسجيّة الوصول إلى بيوت المرسل إليهم. وكان واضحا أنّ الموت لم يتراجع عن التزامه للبشريّة.

كان من الطبيعيّ التساؤل عمّا إذا كانت الحكومة تشهد بسلبيّة المأساة اليوميّة التي يعيشها عشرة ملايين نسمة من أهالي البلاد. والجواب مزدوج، تأكيديّ من جانب، وسلبيّ من جانب آخر. تأكيديّ، وإن يكن بمعايير نسبيّة فقط، لأنّ الموت في نهاية المطاف هو من أكثر الأمور عاديّة وطبيعيّة في الحياة، إنّه مسألة روتينيّة محضة، حدث متوارث بلا نهاية من الآباء إلى الأبناء، منذ زمن آدم وحوّاء على الأقلّ، وتسيء حكومات العالم بأسره إلى الطمأنينة العامّة المستتبّة إذا ما أعلنت عن ثلاثة أيّام حداد وطنيّ كلّما توفّي عجوز هرم في مأوى للمعوزين. وهو سلبيّ لأنّه من غير الممكن، ولو بامتلاك قلب من حجر، البقاء دون مبالاة حيال الدليل الملموس بأنّ أسبوع الانتظار الذي أقرّه الموت قد اتّخذ أبعاد نكبة جماعيّة حقيقيّة، ليس فقط لمتوسّط الثلاثمئة شخص الذين يطرق سوء الحظّ بابهم يوميّا، وإنّما كذلك لبقيّة الناس، لا أقلّ ولا أكثر من تسعة ملايين وتسعمئة وتسع وتسعين ألفا وسبعمئة شخص من كافّة الأعمار والحظوظ والظروف يرون في كلّ صباح، بعد الاستيقاظ من ليلة معذّبة بأشدّ الكوابيس رعبا، سيف ديموقليس معلّقا بخيط فوق رؤوسهم. أمّا الثلاثمئة نسمة الذين تلقّوا رسالة الشؤم البنفسجيّة، فإنّ كيفيّة ردّ

فعلهم على الحكم المبرم كانت متنوّعة، كما هو منطقيّ، حسب شخصيّة كلّ منهم وطبيعته. ففضلا عن أولئك الأشخاص الذين ذكرناهم سابقا، والمدفوعين بفكرة مشوّهة عن الانتقام الذي يمكن القول إنّه يكتسب معنى جديدا قبل الموت، ممّن قرّروا عدم إنجاز واجباتهم المواطنيّة والأسريّة، فلم يعدّوا وصيّة ولم يدفعوا ضرائبهم المتأخّرة، كان هناك أشخاص كثيرون آخرون وضعوا موضع الممارسة تفسيرا أشدّ رذيلة من شيطان هوراس، فبدّدوا الوقت القليل المتبقّي لهم في الحياة باستسلامهم لحفلات مجون جنسيّ ومخدّرات وكحول مستنكرة، وربّما كانوا يفكّرون في أنّه يمكن لهم، باقتراف هذا الشطط المفرط، أن يجتذبوا إلى رؤوسهم انهيارا صاعقا، وإذا تعذّر ذلك، فصاعقة إلهيّة تقتلهم هناك بالذات وتحرّرهم من براثن تلك المنيّة، فيلعبون معها بذلك لعبة خبيثة ربّما تنفع كتعويض. وهناك أشخاص آخرون، رابطو الجأش، جديرون، شجعان، اختاروا جذريّة الانتحار المطلقة، معتقدين أيضا بأنّهم يقدّمون بهذه الطريقة درسا في التمدّن لكثيرين، وهذا ما كنّا نسمّيه قديما بالصفعة دون يد وكانت أشدّ إيلاما، وفق قناعات ذلك العصر النزيهة، لأنّها تستند إلى العرف الأخلاقيّ والمعنويّ وليس إلى حركة جهد جسديّ أوّلي. وعلينا أن نقول إنّ جميع تلك المحاولات قد أخفقت، باستثناء بعض الأشخاص العنيدين الذين أخّروا انتحارهم حتّى اليوم الأخير من المهلة. أجل، إنّها لعبة بارعة لم يجد الموت ردّا عليها.

شرفٌ لا بدّ من الاعتراف لها به، فأوّل مؤسّسة أدركت بوضوح خطورة الحالة المعنويّة للشعب عموما هي الكنيسة الكاثوليكيّة الرسوليّة والرومانيّة، والتي لن يكون من السيّئ، ونحن نعيش في أزمنة يسودها تضخّم في استخدام الرموز في التواصل اليوميّ، العامّ منه والخاصّ، أن نطلق عليها الاختصار المبسّط (ك.ك.ر.ر). ومن الصحيح أيضا أنّه

يتوجّب أن تكون عمياء بالكامل إذا هي لم تر كيف كانت تمتلئ المعابد، بين لحظة وأخرى، بأناس أصابهم الغمّ ويأتون بحثا عن كلمة أمل، عن عزاء، عن بلسم، عن مُسَكّن، عن مهدّئ روحيّ. أناس كانوا يعيشون حتّى ذلك الحين مدركين أنّ الموت حقّ وأنّه لا سبيل إلى الإفلات منه، ولكنّهم يفكّرون في الوقت نفسه أنّه، بوجود أناس كثيرين جاهزين للموت، سيكون من سوء الحظّ أن ينال منهم، وهم يقضّون الوقت الآن في الترصّد من وراء ستارة النافذة ليروا إذا ما جاء ساعي البريد، أو يرتجفون وهم في طريق عودتهم إلى البيت، حيث يمكن أن تكون الرسالة البنفسجيّة الأسوأ من وحش خرافيّ دمويّ مفتوح الأشداق، بانتظارهم للانقضاض عليهم. وفي الكنائس لم تكن تتوقّف لحظة واحدة صفوف الخاطئين الحزينين، والمتجدّدة باستمرار كما لو أنّها سلاسل آلات تجميع، تدور ملتفّة مرّتين في الممرّ الأوسط. ولم يكن متلقّو الاعترافات المناوبون يتوقّفون عن العمل، قد يسهون من الإرهاق في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى يتيقّظ انتباههم فجأة لتفصيل مستنكَر في ما يروى لهم، وعند الانتهاء يفرضون توبة من نوع، ترديد «أبانا الذي في السماء» كذا مرّة، و«يا قدّيسة مريم» كذا مرّة، ثمّ يمنحون مغفرة متسرّعة. وفي اللحظة الفاصلة بين المُعتَرِف المنسحب والتائب الذي يتقدّم ليجثو، يقضمون لقمة من ساندويتش لحم الدجاج الذي سيكون غداءهم الوحيد، بينما هم يتخيّلون التعويض على العشاء. وكانت المواعظ كلّها تتحدّث عن موضوع الموت باعتباره البوابّة الوحيدة إلى الفردوس السماويّ، الذي لم يدخله أحد وهو حيّ، كما يقال. وكان الواعظون في سعيهم للمواساة لا يتردّدون عن اللجوء إلى أساليب الفصاحة وإلى أدنى خدع التعاليم الدينيّة لإقناع المؤمنين المذعورين بأنّه يمكنهم، في نهاية المطاف، اعتبار أنفسهم أوفر حظّا من أسلافهم، على اعتبار أنّ الموت

منحهم وقتا كافيا لتهيئة أرواحهم للصعود إلى جنّة عدن. وكان هناك كهنة مع ذلك، وسط عتمة مقصورة الاعتراف كريهة الرائحة، يجعلون من أحشائهم قلبا، والله أعلم بأيّ ثمن، لأنّهم تلقّوا هم أنفسهم هذا الصباح المغلّف البنفسجيّ، ولديهم بالتالي ما يكفي من الأسباب للشكّ بالفضائل المهدّئة لما كانوا يقولونه في تلك اللحظة.

وكان الشيء نفسه يحدث للمعالجين النفسيّين الذين سارع وزير الصحّة، في محاكاة لاستعدادات الكنيسة العلاجيّة، بإرسالهم لتقديم العون إلى أشدّ اليائسين. ولم تكن قليلة المرّات التي وجد فيها النفسانيّ نفسه، في اللحظة التي كان ينصح فيها مريضه بأن يفلت العنان لدموعه كأفضل وسيلة لتخفيف الألم الذي يعذّبه، ينفجر هو نفسه في بكاء مختلج مفكّرا في أنّه يمكن له هو نفسه أن يكون متلقّي مغلّف مماثل في أوّل توزيع للبريد في الغد. وينهي كلاهما جلسة العلاج في بكاء بلا كابح، متعانقين بالنكبة نفسها، ولكن المعالج النفسانيّ يفكّر في أنّه إذا ما حدث له مثل سوء الحظّ ذاك فستكون لديه ثمانية أيّام، مائة واثنتان وستّون ساعة من الحياة. وأنّه يمكن لحفلة جنس صاخبة، ومخدّرات وكحول، كالتي سمع أنّها تنظّم، أن تساعده في الانتقال إلى العالم الآخر، وإن كنت ستجازف بأنّ اللامكان الأثيريّ الذي صعدت إليه سيزيد من حنينك إلى هذا العالم.

يقال، تقول ذلك حكمة الشعوب، إنّه لا وجود لقاعدة بلا استثناء، ولا بدّ أنّ الأمر كذلك حقا، لأنّه حتّى في حالة القواعد التي نعتبرها جميعنا حصينة بصورة قصوى، مثلما هو الموت المطلق على سبيل المثال، حيث، في تعريف بسيط للمفهوم، سيكون من غير المقبول وقوع أيّ استثناء سخيف، وقد حدث مع ذلك أنّ رسالة بنفسجيّة اللون أعيدت إلى مصدرها. يمكن الاعتراض بأنّ مثل هذا الأمر غير ممكن، ذلك أنّ الموت، وبالتحديد لأنّه في كلّ مكان، لا يمكن له أن يكون في مكان معيّن تحديدا، ومن هذا يتبيّن، في هذه الحالة، الاستحالة المادّيّة والميتافيزيقيّة على السواء في تحديد أو تعريف ما نعنيه بالمصدر، أو المكان الذي جاءت منه الرسالة، وهو ما يعنينا هنا. وقد يُعترض كذلك، وإن يكن بقدر أقلّ من المزاعم التأمّليّة، بأنّه إذا كان ألف تحرٍّ من رجال الشرطة قد بحثوا عن الموت طوال أسابيع، ومشّطوا البلاد كلّها، بيتا بيتا، بمشط ناعم، وكأنّ الأمر يتعلّق بقملة متهرّبة وبارعة في تجاوز العقبات، ولم يروا المنيّة أو يشمّوها، وإذا كان لم يُقَدَّم لنا حتّى هذه اللحظة التي نحن فيها أيّ تفسير عن كيفيّة وصول الرسائل إلى البريد، فمن الواضح أنّه سيكون أقلّ بكثير ما يمكن أن يقال لنا عبر أيّ قنوات سرّيّة وصلت إلى يدي الموت الآن الرسالة المرتجعة. نعترف بمذلّة إلى غياب هذه التوضيحات وغيرها كثير بكلّ تأكيد، نعترف بأنّنا لسنا في ظروف تسمح لنا بتقديمها حسب مزاج من يريدها، اللهمّ إلاّ إذا عمدنا إلى استغلال تصديق القارئ وتجاوزنا الاحترام المتوجّب لمنطق الأحداث، وأضفنا لا واقعيّات جديدة إلى لا

واقعيّة الخرافة الخلقيّة، ونحن ندرك أنّ مثل هذه العيوب تُلحق ضررا جدّيّا بالمصداقيّة، وإن كان لا شيء من هذا كلّه يعني، نكرّر لا شيء من هذا كلّه يعني أنّ الرسالة بنفسجيّة اللون التي ذكرناها لم تَعُد فعلا إلى المرسل. فالوقائع هي الوقائع، وهذه تنتمي، سواء شئنا أم لم نشأ، إلى الأمور غير القابلة للدحض. ولا يمكن وجود دليل أفضل على ما نقول إلاّ صورة موت نفسها التي هي الآن أمام أعيننا، جالسة على كرسيّ وملتفّة بملاءتها، وملامح البلبلة الكاملة بادية على تضاريس وجهها العظميّ. إنّها تنظر بريبة إلى المغلّف البنفسجيّ، تقلّبه لترى إن كانت عليه واحدة من الملاحظات التي يكتبها سعاة البريد عادة في مثل هذه الحالات، مثل كتابة: لم يقبل تسلّمها، أو تبدّل في العنوان، أو غائب في مكان مجهول ولزمن غير محدّد، أو متوفّى، يا لبلاهتي، تُتمتم المنيّة، كيف يمكن له أن يكون متوفّى إذا كانت الرسالة التي ستقتله قد رجعت القهقرى. كانت قد فكّرت في الكلمتين الأخيرتين دون أن تنتبه، ولكنّها استعادتهما على الفور لتردّدهما بصوت عالٍ، كتعبير حالم، رجعت القهقرى، لا حاجة لأن يكون المرء ساعي بريد كي يعرف أن رجوع القهقرى لا يعني الشيء نفسه الذي تعنيه كلمة معاد، فرجوع القهقرى يمكن أن يعني فقط أن الرسالة لم تصل إلى مستقرّها، وأن شيئا قد حدث في نقطة مّا من الطريق وجعلها تعيد ذرع طريقها، وتعود إلى المكان الذي جاءت منه. ولكنّ الرسائل لا تستطيع الذهاب إلاّ إلى المكان الذي تُحمل إليه، فهي لا تمتلك أقداما ولا أجنحة، كما أنّها غير مزوّدة، مثلما هو معروف، بالقدرة على المبادرة الخاصّة، ولو أنّها كانت مزوّدة بها لراهنّا على أنّها سترفض حمل الأخبار الرهيبة التي عليها أن تنقلها في أحيان كثيرة. مثل رسالتي هذه، أقرّت المنية بتجرّد. فإخبار شخص بأنّه سيموت في موعد محدّد هو أسوأ الأخبار، إنّه أشبه بكون المرء في حجرة المحكومين بالإعدام منذ سنوات عديدة وفجأة يأتي السجّان ليقول له، ها هي رسالتك، فاستعدّ.

المثير للفضول أنّ جميع رسائل الإصدار الأخير قد سُلّمت لأصحابها، وإذا كانت هذه الرسالة لم تُسلّم، فلا بدّ من وجود مصادفة عارضة، مثلما هي الحال في تأخّر رسالة حبّ - لا يعلم إلاّ الله في أيّة ظروف - خمس سنوات في الوصول إلى متلقّيها الذي يسكن على بُعد شارعين، أي أقلّ من ربع ساعة مشيا على الأقدام، كما يمكن لهذه الرسالة أن تكون قد انتقلت من حزام ناقل إلى آخر دون أن ينتبه أحد إلى ذلك ثمّ رجعت إلى نقطة الانطلاق مثل من يضيع في الصحراء، ولا يجد ما يثق به سوى الأثر الذي خلّفه وراءه. سيكون الحلّ في إرسالها مرّة أخرى، قالت موت للمنجل طويل الذراع الموضوع إلى جانبها، مستندا إلى الجدار الأبيض. ولا يُنتظر من منجل طويل الذراع أن يجيب، وهذا المنجل لم يخالف القاعدة. وواصلت موت الكلام، لو أنّني أرسلتُكَ أنت، بميولك هذه إلى تسوية الأمور بسرعة، لكانت المسألة قد حُلّت، ولكن الأزمنة تغيّرت كثيرا في الآونة الأخيرة، ولا بدّ من تحديث الوسائل والأساليب، ومن متابعة التقنيّات الجديدة، كاستخدام البريد الإلكترونيّ على سبيل المثال، فقد سمعتُ أنّه من أنظف الوسائل، وأنّه لا يخلّف لطخات حبر ولا يلوّث الأصابع، وهو سريع، ففي اللحظة نفسها التي يفتح فيها الشخص الأوتلوك اكسبريس في ميكروسوفت تكون الرسالة قد علقت، والمشكلة هي أنّ ذلك سيضطرّني إلى العمل في أرشيفين منفصلين، أرشيف من يستخدمون الحاسوب، وأرشيف من لا يستخدمونه، ولدينا على كلّ حال متّسع طويل من الوقت لنقرّر، فمازالت تظهر موديلات جديدة، وتصاميم جديدة، وتقنيّات أكثر إتقانا في كلّ مرّة، وربّما أقرّر تجربتها ذات يوم، ولكن حتّى ذلك الحين، سأواصل الكتابة بالريشة والورقة والحبر، فلهذه الأشياء سحر التقاليد، وللتقاليد وزنها في أمور الموت. نظرتْ موت بتمعّن إلى المغلّف البنفسجيّ، وأومأت بيدها اليمنى فاختفت الرسالة. وهكذا نعرف، خلافا لما كان يُعتقد على نطاق واسع، أنّ موت لا

تحمل الرسائل بنفسها إلى مركز البريد.

هناك على المنضدة قائمة من مئتين وثمانية وتسعين اسما، أي أقلّ بقليل من المتوسّط المعهود، منها مئة واثنان وخمسون رجلا، ومئة وستّة وأربعون اسم امرأة، وعدد مماثل من المغلّفات والأوراق البنفسجيّة المخصّصة للعمليّة البريديّة التالية، أو الوفاة عبر البريد. أضافت المنيّة إلى القائمة اسم الشخص الذي وُجّهت إليه الرسالة الراجعة إلى مصدرها، ورسمت خطّا تحت الكلمات ووضعت الريشة في المقلمة. لو كانت لها أعصاب لأمكن لنا أن نقول إنها منفعلة بعض الشيء، وليس ذلك دون مسوّغ. فقد عاشت ما يكفي لأن تقدّر أنّ إعادة رسالة هو حدث بلا أهمّيّة. من السهل أن نتفهّم، ويكفي قليل من التخيّل، أنّ موقع عمل الموت هو، بالمصادفة، الأكثر رتابة بين كلّ الأعمال التي خُلقت منذ أن أقدم قابيل، بخطإ حصريّ من الربّ، على قتل هابيل. فبعد ذلك الحدث المؤسف جدّا، وفور بدء العالم الذي جاء ليُثبت مدى صعوبة العيش في أسرة، حتّى أيّامنا هذه، ظلّ الأمر نفسه يتكرّر لقرون، وقرون، ومزيد من القرون، مكرورا، دون توقّف، دون انقطاع، دون حلّ للاستمراريّة، مختلفا في الطرق المتعدّدة للانتقال من الحياة إلى اللاحياة، ولكنّه في العمق مشابه على الدوام لنفسه، لأنّ النتيجة كانت هي نفسها أيضا على الدوام. والحقيقة أنّه لم يُرَ قطّ عدم موت من يتوجّب موته. والآن، وبصورة فريدة، إشعار موقّع من موت، بخطّ يدها، إشعار يعلن الموت الذي لا رجعة عنه وغير القابل للتأجيل لشخص، قد أعيد إلى مصدره، إلى هذه القاعة حيث كاتبة الرسالة وموقّعتها تجلس محاطة بالكفن الكئيب الذي هو زيّها التاريخي، وعلى رأسها قلنسوة، تفكّر متأمّلة في ما حدث بينما عظام أصابعها، أو أصابعها العظميّة، تنقر فوق المنضدة. تفاجأ قليلا حين ترغب في أن تعاد إليها مجدّدا الرسالة المبعوثة مرّة أخرى، وأن يحمل المغلّف ملاحظة تشير، على سبيل المثال، إلى غياب

في مكان غير محدّد، لأنّ ذلك سيكون مفاجأة مطلقة لمن تمكّنت على الدوام من اكتشاف أين اختبأنا، إذا ما قدّرنا أنّنا نستطيع بهذه الطريقة الصبيانيّة الإفلات. ولكنّها لا تعتقد مع ذلك أنّ إشارة الغياب المزعوم ستظهر مدوّنة على ظهر المغلّف، فالملفّات هنا تُحَدَّث بصورة آليّة مع أيّ حركة أو إيماءة نقوم بها، مع كلّ خطوة نخطوها، وكلّ تبديل للبيت، للحالة الاجتماعيّة، للمهنة، للعادات، إذا كنّا ندخّن أو لا ندخّن، إذا كنّا نأكل كثيرا أو قليلا، أو لا شيء، إذا كنّا نشطين أو خاملين، وإذا كنّا مصابين بوجع في الرأس أو حموضة في المعدة، وإذا كنّا نعاني الإمساك أو الإسهال، وإذا كان شعرنا يتساقط أو سيصيبنا السرطان، إذا كان الجواب نعم أو إذا كان لا، أو إذا كان ربّما، يكفي فتح درج الملفّات المرتّب أبجديّا، وهناك يوجد كلّ شيء. ويجب ألاّ نفاجأ إذا ما ظهرت على الفور ضربة الغمّ التي ستجمّدنا فجأة، في اللحظة نفسها التي نكون مستغرقين فيها بقراءة ملفّنا الشخصيّ. المنيّة تعرف كلّ شيء يتعلّق بنا، وربّما هذا هو سبب حزنها. وإذا كان صحيحا أنّها لا تبتسم أبدا، فإنّما السبب في ذلك هو افتقادها الشفتين، وهذا الدرس في التشريح يخبرنا بأنّه خلافا لما يظنّه الأحياء، ليست الأسنان هي التي تبتسم. قد يكون هناك من يقول، بسخرية أقلّ قبوريّة من سوء المزاج، أنّها تحمل نقشَ نوعٍ من الابتسامة الدائمة، ولكن هذا غير صحيح، فما يبادر إلى النظر هو تكشيرة معاناة، لأنّ تذكّر الزمن الذي كانت تمتلك فيه فما، وكان في الفم لسان، وعلى اللسان لعاب، يلاحقها باستمرار. بزفرة مقتضبة قرّبت منها ورقة وبدأت بكتابة الرسالة الأولى لهذا اليوم، سيّدتي العزيزة، يؤسفني إخبارك أنّ حياتك ستنتهي خلال مهلة أسبوع لا رجعة عنها وغير قابلة للتأجيل، أتمنّى لك استغلال وقتك المتبقّي بأفضل طريقة ممكنة، خادمتك المخلصة، موت. مئتان وثمان وتسعون ورقة، مئتان وثمانية وتسعون مغلّفا، مئتان وثمانية وتسعون شطبا من

القائمة، لا يمكن القول إنّه عمل من تلك الأعمال المميتة، ولكنّ الحقيقة أنّ المنيّة وصلت إلى النهاية منهوكة. وبإيماءة يدها اليمنى، وقد صرنا نعرفها، جعلت الرسائل المئتين وثمان وتسعين تختفي، ثمّ قاطعت بعد ذلك ذراعيها النحيلين على المنضدة، وتركت رأسها يهوي عليهما، ليس من أجل أن تنام، لأنّ موت لا تنام، وإنّما لتستريح. وبعد نصف ساعة، عندما كانت قد تخفّفت من الإجهاد، رفعت رأسها، والرسالة التي كانت قد أعيدت إلى المصدر ثم أرسلت مرّة أخرى، كانت هناك من جديد، أمام محجريها الذاهلين والفارغين.

لو أنّ المنيّة حلمت بالأمل بمفاجأة تُخرجها من سماجة الروتين لكانت محظوظة، فها هي المفاجأة، ومن أفضل الأنواع. فقد كان يمكن للإعادة الأولى أن تكون نتيجة حادث بسيط في الطريق، أحد المسنّنات خارج من محوره، مشكلة في التشحيم، رسالة زرقاء سماويّة مستعجلة في الوصول اعترضت طريقها، وباختصار، واحد من هذه الأمور غير المتوقّعة التي تحدث داخل الآلات، مثلما يحدث للجسم البشريّ، مسبّبةً خللا في أشدّ الحسابات دقّة. أمّا حالة الإعادة الثانية فكانت مختلفة، وهي تثبت بكلّ وضوح أنّ هناك عائقا في نقطة مّا من الطريق الذي كان عليه أن يقودها إلى عنوان المرسل إليه. وحين اصطدمت الرسالة بذلك العائق رجعت. في الحالة الأولى، ولأنّ العودة تأكّدت في اليوم التالي للإرسال، فقد كان بالإمكان تقدير أنّ ساعي البريد لم يجد الشخص الذي يجب أن تُسلّم إليه الرسالة، وبدلا من أن يتركها في علبة بريده الشخصيّ أو يدسّها من تحت الباب، أعادها إلى المرسل ناسيا أن يذكر سبب الإعادة. إنّها مصادفات كثيرة، ولكنّها يمكن أن تشكّل تفسيرا مقبولا لما حدث. أمّا الآن فالحالة مختلفة. فبين ذهاب الرسالة وعودتها لم يكد يمضي أكثر من نصف ساعة، وربّما أقلّ من ذلك بكثير، ذلك أنّها كانت على المنضدة عندما رفعت موت رأسها عن مسند عضديها القاسيين، هذا

يعني عن عظم الزند وعظم الكُعبرة، وهما لهذا السبب متشابكان. هناك قوّة غريبة، غامضة، غير مفهومة، يبدو أنّها تعارض موت هذا الشخص على الرغم من أنّ موعد موته محدّد، مثلما هو حال الجميع، منذ يوم ميلاده. هذا مستحيل، قالت موت للمنجل طويل الذراع الصامت، ليس هناك في العالم وخارجه من امتلك مثل سلطتي، إنّني الموت وما عداي لا شيء. نهضت عن الكرسي واقتربت من خزانة الأرشيف، ورجعت منها حاملة الملفّ المريب. لم يكن ثمّة مجال للشكّ، فالاسم مطابق للذي على المغلّف، والعنوان كذلك، والمهنة هي عازف فيولونسيل، وخانة الوضع الاجتماعيّ بيضاء، إشارة إلى أنّه غير متزوّج، ولا أرمل، ولا مطلّق، لأنّ حالة الأعزب لا تذكر أبدا في ملفّات الموت، ويكفي التفكير في أن يُكتب في ملفّ طفل، وُلد للتوّ، أنّه بلا مهنة، لأنه لم يعرف بعد ما ستكون عليه ميوله، فما بالك إذا كتب عن الحالة الاجتماعيّة لحديث الولادة أنّه أعزب. أمّا العمر المسجّل في الملفّ الذي تحمله موت بين يديها، فيظهر فيه أنّ سنّ عازف الفيولونسيل تسع وأربعون سنة. حسن، وإذا كانت لا تزال ثمّة حاجة إلى دليل على مدى دقّة ملفّات الموت، فسوف نحصل عليه الآن بالذات، عندما تمّ خلال عشر ثانية، أو أقلّ، وأمام عيوننا غير المصدّقة، تبدّل الرقم تسع وأربعين إلى خمسين. اليوم هو عيد ميلاد عازف الفيولونسيل صاحب الملفّ، وكان يتوجّب أن تُرسل إليه زهور بدلا من إشعار بالوفاة خلال ثمانية أيّام. نهضت موت من جديد، قامت بعدّة جولات في القاعة، وتوقّفت مرّتين حيث يوجد المنجل طويل الذراع، فتحت فمها كمن تودّ أن تتحدّث إليه، أن تطلب منه رأيه، أو أن تقول له ببساطة إنّها تشعر بالتشوّش، بالارتباك، وهو أمر، فلنتذكّر ذلك، لا غرابة فيه إذا ما فكّرنا في الزمن الذي أمضته في مهنتها هذه دون أن تتعرّض، حتّى اليوم، لأدنى إساءة احترام من جانب القطيع البشريّ الذي هي راعيته العليا. وفي هذه اللحظة بالذات راود موت الهاجس المشؤوم بأنّه

يمكن للحدث أن يكون أشدّ خطورة ممّا بدا لها للوهلة الأولى. جلست إلى المنضدة وبدأت تراجع، من الأمام إلى الوراء، قوائم وفيات الأيّام الأخيرة. وعلى الفور، في أوّل قائمة للأسماء، قائمة الأمس، وخلافا لما كانت تنتظره، رأت أنّه لا وجود لعازف الفيولونسيل. واصلت تصفّح قائمة، ثم أخرى، وأخرى، وأخرى، وأخرى إضافيّة، ولم تجده أخيرا إلاّ في القائمة الثامنة. ظنّت خاطئة أنّ الاسم يجب أن يكون في قائمة الأمس، وهي ترى الآن، يا للفضيحة غير المسبوقة، أنّ شخصا يتوجّب أن يكون ميتا منذ يومين مازال حيا. ولم يكن هذا هو الأمر الأساسيّ، فعازف الفيولونسيل الشيطانيّ هذا الذي كان مقدّرا له منذ ولادته أن يموت شابًا، عن تسعة وأربعين ربيعا وحسب، أكمل اليوم بكلّ وقاحة الخمسين من عمره، فحطَّ بذلك من سمعة القدر، القضاء، المحتوم، الطالع الفلكيّ، الهادو وكلّ القوى الأخرى المعارضة، بكلّ الوسائل الجديرة والمعيبة، لمشيئتنا الإنسانيّة جدًا في الحياة. إنّه ضياع كامل للسمعة. وكانت موت تتساءل، كيف يمكن لي الآن تصحيح تحوّل ما كان يمكن له أن يحدث، مادامت حالة لا سوابق لها، ولا تَلمحُ الأنظمة شيئا مشابها لهذا، لاسيما أنّه كان عليه أن يموت وهو في التاسعة والأربعين وليس في الخمسين مثلما صار الآن. بدا أنّ موت المسكينة كانت حائرة، مرتبكة، ولولا قليل لضربت رأسها بالجدران من الغمّ. فخلال آلاف القرون من النشاط المتواصل، لم تقترف قطّ أيّ خطإ عمليّاتيّ، والآن، بعد أن أدخلت شيئا جديدا على العلاقة التقليديّة بين البشر الفانين وسبب موتهم الحقيقيّ والوحيد، تنتهي سمعتها التي أحرزتها بالعمل الدؤوب إلى التعرّض لأقسى الضربات. ما العمل، تساءلت، فلنتخيّل أنّ واقع عدم موته في موعده المحدّد قد جعله بعيدا عن متناول يدي، كيف سأخلع هذا الحذاء. نظرت إلى المنجل، رفيقها في مغامرات ومجازر كثيرة، ولكنّه تظاهر بعدم المبالاة، فهو لا يجيب أبدا، والآن يبدو ساهيا بالكامل،

كما لو أنّ تخمة أصابته من العالم، يسند نصله المتآكل والصدئ على الجدار الأبيض. عندئذ أخرجت موت إلى النور فكرتها العظيمة، يقال إنّه لا وجود لواحدة دون اثنتين، ولا وجود لاثنتين دون ثلاثة، وإنّ الثالثة هي الثابتة، فلنر إن كان ما يقال صحيحا. أومأت بحركة الإرسال بيدها اليمنى، فاختفت الرسالة التي كانت قد رجعت مرّتين. ولكنّها لم تتأخّر في الخارج أكثر من دقيقتين. وها هي هناك، في المكان السابق نفسه. لا يمكن أن يكون قد أتيح لساعي البريد أن يُدخلها من تحت الباب، ولا أن يرنّ الجرس، ومع ذلك ها هي ذي قد عادت.

من المؤكّد أنّه لا يتوجّب علينا الشعور بالأسى لحال موت. فقد كانت شكاوانا منها مسوّغة ولا حصر لها، بحيث لا يمكن لنا الآن الوقوع في مشاعر الشفقة التي لم تتلطّف هي في أيّ لحظة في الماضي بإظهارها نحونا، بالرغم من معرفتها أفضل من الجميع بمدى مقتنا لهوسها في تنفيذ مشيئتها مهما كان الثمن. ولكن ما نراه أمام عيوننا مع ذلك يبدو، ولو للحظة قصيرة،أشبه بنصب لليأس منه إلى تلك الهيئة المشؤومة التي تظهر، مثلما قال بعض المحتضّرين نافذي البصيرة، عند حافّة فراشنا في اللحظة الأخيرة لتومئ لنا بإشارة مماثلة لحركة إرسال الرسائل، ولكنّها مناقضة لها، بمعنى أنّ الإيماءة لا تقول اذهب إلى هناك، وإنّما تقول تعال إلى هنا. وبسبب ظاهرة بصريّة غريبة، قد تكون واقعيّة أو افتراضيّة، تبدو موت الآن أصغر حجما، كما لو أنّ عظامها قد انكمشت، أو ربّما أنّها كانت هكذا على الدوام، وأنّ عيوننا، تبعا لخوفنا، هي التي تجعل منها ماردا. يا لموت المسكينة. ونشعر برغبة في وضع يدنا على كتفها العظمي الصلب، وأن نقول لها في أذنها، أو بكلمة أدقّ في المكان الذي كانت فيه أذنها، تحت الفصّ الجداريّ من عظم الجمجمة، بضع كلمات تعاطف، لا تحزني أيّتها السيّدة موت، إنّها أمور تحدث، ونحن الكائنات البشريّة لدينا تجربة كبيرة في اليأس، والإخفاق، والإحباط،

ولاحظي أنّ ذلك كلّه لا يجعلنا نقاطع ذراعينا، وتذكّري الأزمنة القديمة عندما كنتِ تختطفيننا دون حزن ولا شفقة ونحن في زهرة الشباب، وفكّري الآنَ بالذات في أنّك بقسوة القلب نفسها تواصلين فعل ذلك مع أشدّ الناس عوزا لما هو ضروريّ للحياة، من المحتمل أن نكون قد ساعدناكِ في رؤية من سيتعب أوّلا، أنتِ أم نحن، أتفهّمُ حزنكِ، فالهزيمة الأولى هي الأكثر إيلاما، وبعد ذلكَ نعتاد، ولا تغضبي إذاً ما قلتُ لكِ عسى ألاّ تكون هذه هي هزيمتكِ الأخيرة، فلست أقوله بدافع الانتقام، لأنّه سيكون انتقاما بائسا، أشبه بإخراج لساننا للجلاّد الذي سيقطع رأسنا، والحقيقة أنّنا نحن البشر لا نستطيع عمل ما هو أكثر من إخراج لساننا للجلاّد الذي سيقطع رأسنا، وربّما لهذا السبب أشعر بفضول هائل لمعرفة كيف ستخرجين من الورطة التي أنتِ فيها، من قصّة هذه الرسالة التي تذهب وتجيء، وقصة عازف الفيولونسيل هذا الذي لا يمكن له أن يموت وهو في التاسعة والأربعين لأنّه أكمل الخمسين من عمره. أومأت موت بحركة فقدان الصبر، وأزاحت عن كتفها يد الأخوّة التي نواسيها بها، ونهضت عن الكرسيّ. لقد صارت تبدو الآن أطول قامة، وأضخم جسما، إنّها السيّدة موت مثلما يجب أن تكون، قادرة على جعل الأرض ترتجّ تحت قدميها، تجرجر كفنها، والدخان يتصاعد منها في كلّ خطوة. إنّ موت غاضبة. وهذه هي اللحظة المناسبة لنخرج لها لساننا.

باستثناء حالات نادرة، مثل حالة أولئك المحتضّرين المذكورين ذوي النظرة النفّاذة الذين لمحوها عند طرف السرير بالمظهر التقليديّ لشبح ملتفّ بأقمشة بيضاء، أو على هيئة امرأة بدينة ترتدي السواد، مثلما حدث كما يبدو لبروست، تظلّ موت متكتّمة، تفضّل ألاّ يُلحظ حضورها، وخاصّة إذا اضطرّتها الظروف للخروج إلى الشارع. ويُعتقد عموما أنّ موت، باعتبارها، مثلما يجتهد البعض في التأكيد، أحد وجهي قطعة عملة يكون الربّ، على وجهها الآخر، هو الصليب، فلا بدّ أن تكون مثله، من الطبيعة نفسها، وغير مرئيّة. ليس الأمر هكذا بالضبط. إنّنا شهود ثقات على أنّ موت هيكل عظميّ ملتفّ بملاءة، تعيش في قاعة باردة برفقة منجل قديم وصدئ لا يردّ على أسئلتها، تحيط بها جدران مطليّة بالكلس، تُرى على امتدادها، بين شِباك العناكب، بضع عشرات من خزائن الأرشيف ذات الأدراج المترعة بالملفّات. ويفهم بالتالي أنّ موت لا تريد الظهور للناس بهذه الهيئة، لأسباب جماليّة شخصيّة في المقام الأوّل. وفي المقام الثاني، كيلا يموت عابرو السبيل التعساء خوفا عند التقائهم فجأة، لدى انعطافهم عند ناصية، بمحجري عينيها الكبيرين الفارغين. أجل، فموت تتحوّل إلى غير مرئية أمام الملإ، ولكنّ الأمر ليس كذلك في خصوصيّتها، مثلما استطاع أن يتأكّد، في لحظة حرجة، الكاتب مارسيل بروست والمحتضرون ذوو النظرة النفّاذة. أمّا حالة الربّ فمختلفة. فمهما بذل من جهد، لن يستطيع أبدا أن يصير مرئيّا أمام العيون البشريّة، ليس لأنّه غير قادر، فلا وجود لمستحيل بالنسبة

إليه، وإنّما ببساطة لأنّه لا يعرف أيّ وجه يتّخذ ليظهر به أمام الكائنات التي يُفترض أنّه خلقها، وسيكون الاحتمال الأكبر ألاّ يتعرّف إليهم، أو ربّما، وهذا هو الأسوأ، قد لا يتعرّفون هم إليه. وسيكون هنالك أيضا من يقول إنّه حسن حظّ عظيم، لنا، أنّ الربّ لا يريد الظهور، لأنّ الخوف الذي نشعر به من الخوف سيكون مجرد لعبة أطفال بالمقارنة مع الرعب الذي سيصيبنا إذا ما حدث وظهر لنا. وباختصار، لم تروَ عن الرب والموت سوى قصص وهذه مجرّد قصّة أخرى من تلك القصص الكثيرة.

وهنا قرّرت موت الذهاب إلى المدينة. نزعت عنها الملاءة، وهي كلّ ما عليها من ملابس، وطوتها بعناية وتركتها على الكرسيّ الذي رأيناها جالسة عليه. وإذا استثنينا هذا الكرسيّ والمنضدة، وإذا استثنينا كذلك خزائن الأرشيف والمنجل طويل الذراع، فإنّه لا وجود لأيّ شيء آخر في القاعة، ما عدا ذلك الباب الضيّق الذي لا نعرف إلى أين يؤدّي. وبما أنّه المخرج الوحيد في الظاهر، فمن المنطقيّ الظنّ أنّ موت ستستخدمه للذهاب إلى المدينة، ولكنّ الأمر لن يكون كذلك. لقد فقدت موت شيئا من طولها بعد أن خلعت عنها الملاءة، وصارت تبدو، على أبعد تقدير، بطول القامات البشريّة: مترٌ وستّة وستون أو متر وسبعة وستّون سنتمترا، ولأنّها عارية، دون أيّ خيط من الثياب عليها، صارت تبدو لنا أصغر كذلك، أشبه بهيكل عظميّ لمراهقة. لا يمكن لأحد أن يقول إنّ هذه هي موت نفسها التي أزاحت يدنا عن كتفها عندما حرّكتنا شفقة غير مستحقّة وأردنا مواساتها في حزنها. الحقيقة أنّه لا وجود في الدنيا لما هو أشدّ عريا من الهيكل العظميّ. ففي الحياة يكون مكسوّا بكسوة مزدوجة، أوّلا اللحم الذي يغطّيه، وبعد ذلك الملابس التي يحبّ أن يغطّي بها ذلك اللحم، إلاّ عندما يخلعها للاستحمام أو لممارسات أكثر متعة. وباختزاله إلى ما هو عليه في الواقع، فإنّ الهيكل المفكّك لمن ترك الوجود

منذ زمن طويل لا يبقى أمامه إلاّ الاختفاء. وهذا هو ما يحدث له، من الرأس إلى القدمين. فأمام عيوننا المذهولة، أخذت العظام تفقد قوامها وصلابتها، وشيئا فشيئا راحت حوافّها تتلاشى، وما كان صلبا تحوّل غازيًّا، وتمدّد في كلّ الاتّجاهات مثل غمامة ضباب خفيفة، كما لو أنّ الهيكل العظميّ يتبخّر، وها قد صار الآن مجرّد طيف غير محدّد الملامح يمكن من خلاله رؤية المنجل غير المبالي. وفجأة لم تعد موت موجودة، بل هي موجودة وغير موجودة، أو أنّها موجودة ولكنّنا لا نراها، أو أنها ليست هكذا أيضا، فقد اخترقت ببساطة سقف القاعة تحت الأرضيّة، وكتلة التراب الضخمة التي فوقه، ومضت، مثلما قرّرت في أعماقها عندما أُعيدت إليها الرسالة البنفسجيّة للمرّة الثالثة. نحن نعلم إلى أين هي ذاهبة. إنّها غير قادرة على قتل عازف الفيولونسيل، ولكنّها تريد رؤيته، أن يكون أمام عينيها، أن تلمسه دون أن يلحظ ذلك. وهي واثقة من أنّها في أحد هذه الأيّام ستكتشف الطريقة لتصفيته دون أن تخالف الأنظمة كثيرا، وحتّى ذلك الحين ستعرف من هو هذا الرجل الذي لم تتمكّن إشعارات الموت من الوصول إليه، ما هي القوى التي يمتلكها، إذا كانت هذه هي الحالة، أو إذا ما كان يواصل العيش، كأبله بريء، دون أن يخطر في ذهنه أنّه عليه أن يكون ميتا. وبينما نحن في هذه القاعة الباردة التي بلا نوافذ وذات الباب الضيّق الذي لا نعرف لأيّ شيء يُستخدم، لم ننتبه إلى مدى السرعة التي يمرّ بها الوقت. لقد دقّت الساعة الثالثة فجرا، ولا بدّ أنّ موت قد صارت في بيت عازف الفيولونسيل.

وقد كان الأمر كذلك. أحد أشدّ الأشياء إنهاكا لموت هو الجهد الذي عليها أن تبذله للتحكّم بنفسها عندما لا تريد رؤية كلّ ما يظهر لعينيها، بالتزامن، في كلّ الأمكنة. وهي في هذا التفصيل أيضا تشبه الربّ كثيرا. فلننظر في الأمر. بالرغم من أنّ الواقعة غير واردة ضمن المعطيات

المؤكّدة بالتجربة الحسّيّة البشريّة، إلاّ أنّنا اعتدنا على الاعتقاد، منذ الطفولة، بأنّ الربّ والموت، هذين المقامين الساميين، موجودان في آن واحد في كلّ مكان، هذا يعني أنّهما كليّا الحضور (omnipresentes)، وهذه كلمة، مثل كلمات كثيرة غيرها، هجينة من اللاتينيّة واليونانيّة. والحقيقة، مع ذلك، أنّه من المعروف جيّدا، أنّنا حين نفكّر في الكلمة، وربّما بصورة أكثر عندما ننطق بها ـ مع الأخذ بالاعتبار الخفّة التي تخرج بها الكلمات عادة من الأفواه ـ لا نتوصّل إلى وعي واضح لما يمكن أن تعنيه. من السهل القول إنّ الربّ موجود في كلّ مكان، وإنّ موت في كلّ مكان موجودة، ولكن يبدو أنّنا لا ننتبه إلى أنّه، إذا كانا حقّا في كلّ مكان، فلا بدّ لهما بالضرورة من رؤية كلّ ما يرى في كلّ الأماكن اللامتناهية. وبالنسبة للربّ المضطرّ إلى أن يتحمّل في الوقت نفسه مسؤوليّة الكون بأسره، لأنّه بغير ذلك لن يكون هناك أيّ معنى لخلقه إيّاه، فسيكون زعما مضحكا القول إنّه يبدي اهتماما خاصّا بما يحدث في كوكب الأرض الصغير الذي يعرفه هو في الحقيقة، وربّما لم يخطر هذا لأحد، باسم مختلف تماما، أمّا الموت، هذا الموت المخصّص للجنس البشريّ حصرا، كما قلنا قبل صفحات، فلا يرفع عينيه عنّا لحظة واحدة، لدرجة أنّ من هم غير مؤهّلين للموت بعد يشعرون بأنّ نظراته تلاحقهم طوال الوقت. ومن هنا يمكن لنا استخلاص فكرة عن الجهد البطوليّ الذي كان على موت أن تبذله في المرّات القليلة التي احتاجت فيها، لهذا السبب أو ذاك، على امتداد تاريخنا المشترك، لأن تخفّض قدرتها الإدراكيّة إلى مستوى قدرة البشر، أي أن ترى كلّ شيء منفردا، وأن تكون في كلّ لحظة في مكان وحيد. وفي الحالة المحدّدة التي نحن بصددها اليوم، هذا هو تفسير أنّها لم تتوصّل حتّى الآن إلى المرور من مدخل بيت عازف الفيولونسيل. ففي كلّ خطوة تخطوها، وما إطلاقنا

تسمية خطوة إلاّ لمساعدة من يقرؤنا على التخيّل، وليس لأنّها تتحرّك بالفعل كمن يمتلك ساقين وقدمين، فعلى موت أن تصارع كثيرا لتكبح الميول التمدّديّة الملازمة لطبيعتها، لأنّها إذا تُركت لسجيّتها، فسوف تنفجر وحدتها في الحال وتتبعثر في الفضاء، لأنّها وحدة غير ثابتة وغير مستقرّة، يُجمع بعضها إلى البعض بمشقّة كبيرة. تقسيمات الشقّة التي يعيش فيها عازف الفيولونسيل الذي لم يتلقّ الرسالة البنفسجيّة، تنتمي إلى النمط الاقتصاديّ للطبقة الوسطى، وهي بالتالي أقرب إلى بيت برجوازيّ صغير بلا آفاق منها ببيت أحد أتباع أوتيرب[1] يُدخل إليها عبر ممرّ يمكن أن تُميّز فيه بصعوبة، في الظلام، خمسة أبواب، واحد في العمق، وكيلا نعود مرّة أخرى إلى الموضوع نقول إنّه يؤدّي إلى الحمّام، وبابان في كلّ جانب. الباب الأوّل، إلى جهة اليد اليسرى، وهو الأوّل الذي قرّرت موت بدء التفتيش منه، ينفتح على غرفة طعام صغيرة يبدو أنّها لا تُستخدم إلاّ قليلا، وتتّصل بدورها بمطبخ أصغر منها، مجهّز بما هو ضروريّ. ومنه يمكن الخروج من جديد إلى الممرّ، قبالة باب آخر بالضبط، لم تكن موت بحاجة لأن تطرقه كي تعرف أنّه باب خارج الاستخدام، أي أنّه لا يُفتح ولا يُغلق، وهو قول مخالف للمثبَت البسيط، ذلك أنّ بابا يقال عنه إنّه لا ينفتح ولا ينغلق إنّما هو ببساطة باب مغلق لا يمكن فتحه، أي أنّه باب محكوم باللعنة كما يقال عادة. يمكن لموت أن تخترقه وتخترق كلّ ما قد يكون وراءه طبعا، ولكنّها إذا كانت قد تكلّفت مشقّة كبيرة في تجميع وتحديد نفسها - بالرغم من بقائها غير مرئيّة للعيون العاديّة - بهيئة بشريّة إلى هذا الحدّ أو ذاك، وليس إلى حدّ امتلاك ساقين وقدمين كما قلنا سابقا، فإنّها لن تجازف بأن تتشقّق وتتبعثر داخل خشب باب أو خزانة ملابس، هي ما يوجد بالتأكيد في

---

(1) أوتيرب Euterpe ربة الموسيقى عند الإغريق، تُمثل عموماً وهي تحمل الناي.

الجانب الآخر من الباب. تابعت موت التقدّم إذا عبر الممرّ حتّى الباب الأول إلى يمين من يدخل، وانتقلت من هناك إلى قاعة الموسيقى، ولا يمكن إطلاق تسمية أخرى على حيّز من البيت يوجد فيه بيانو مفتوح وفيولونسيل، وحامل نوتة عليه المقطوعات الفانتازيّة من العمل الفانتازيّ السابع والثلاثين لروبرت شومان، وهو ما استطاعت موت أن تقرأه بفضل مصباح في الشارع، يدخل نوره البرتقاليّ من النافذتين، وبضع نوتات أخرى مكوّمة هنا وهناك، دون نسيان خزائن الكتب العالية حيث للأدب مظهر التحوّل إلى موسيقى في أشدّ حالات هارمونيّتها كمالا، وقد صارت اليوم علم انسجام النغمات المتوافقة بعد أن كانت ابنة آريس وأفروديت[1]. داعبت موت أوتار الفيولونسيل، ومرّت بأطراف أصابعها بنعومة على ملامس البيانو، ولكنّها هي وحدها من كانت قادرة على تمييز صوت الآلتين الموسيقيّتين، حشرجة طويلة وخفيضة أوّلا، وزقزقة عصافير مقتضبة بعد ذلك، والصوتان كلاهما لا يمكن للآذان البشريّة سماعهما، ولكنّهما واضحان ومحدّدان لمن اعتادت منذ زمن طويل على تفسير معنى الحشرجات. وهناك، في الحجرة المجاورة، سيكون الرجل نائما. كان الباب مفتوحا، وبالرغم من أنّ الظلام أكثر عمقا ممّا هو عليه في قاعة الموسيقى، إلاّ أنّه يتيح رؤية سرير وكتلة شخص مضطجع. تقدّمت موت، اجتازت العتبة، ولكنّها توقّفت متردّدة حين أحسّت بوجود كائنين حيّين في حجرة النوم. ولأنّها تعرف بعض وقائع الحياة، وإن لم يكن ذلك، كما هو طبيعيّ، من خلال التجربة الشخصيّة، فقد فكّرت في أنّ مع الرجل رفيقة، وأنّ هناك شخصا آخر ينام إلى جانبه، شخص لم ترسل إليه بعد رسالة بنفسجيّة، ولكنّه شخص يتقاسم معه في هذا البيت عناق ملاءات السرير نفسها ودفء الدثار نفسه. اقتربت موت

---

(1) الإشارة هنا إلى هارمونيا Harmonie ابنه آريس وأفروديت، وزوجة قدموس، وقد تحول معنى اسمها في الموسيقى إلى الهارموني، أي تناسق النغمات وانسجامها.

أكثر، وكادت تلامس، إذا صحّ هذا القول، المنضدة الصغيرة الملاصقة للسرير، ورأت أنّ الرجل كان وحيدا. ومع ذلك، إلى الجانب الآخر من السرير، كان ينام كلب متوسّط الحجم متكوّرا على نفسه فوق السجّادة، فروه قاتم، وربّما أسود. ستتذكّر، وهي المرّة الأولى التي تفاجئ فيها موت نفسها وهي تفكّر في أنّها لا تنفع إلاّ في إماتة البشر، وأنّ ذلك الحيوان بعيد عن متناول منجلها الرمزيّ، ولا يمكن لسلطتها أن تمسّ به ولو بصورة خفيفة، ولهذا سيتحوّل هذا الكلب أيضا إلى خالد، وسترى في ما بعد لكم من الوقت، إذا ما كانت موت المسؤولة عنه، موت الأخرى، المكلّفة بالكائنات الحيّة الأخرى، من حيوانات ونباتات، ستتغيّب، مثلما فعلت موت هذه، وستجد ذات يوم سببا لأن تقول في نهاية هذا الكتاب، في اليوم التالي لم يمت أيّ كلب. تحرّك الرجل، ربّما كان يحلم، ربّما لا يزال يعزف في الحلم مقطوعات شومان الثلاث وقد خرجت معه نغمة زائفة، فالفيولونسيل ليس مثل البيانو، فنغمات البيانو لها أمكنتها نفسها على الدوام، تحت كلّ ملمس من ملامسه، أمّا الفيولونسيل فيوزّعها على امتداد الأوتار كلّها، ولا بدّ من البحث عنها، تثبيتها، والإصابة في النقطة الدقيقة من الوتر، وتحريك القوس بالانحناءة المحكمة والدقّة المضبوطة، وبالتالي ليس هناك ما هو أسهل من الخطإ في نغمة أو اثنتين عندما يكون المرء نائما. انحنت موت إلى الأمام لترى وجه الرجل بصورة أفضل، وفي هذه اللحظة خطرت لها فكرة عبقريّة بالمطلق، فكّرت في أنّه يتوجّب أن تُلصق في ملفّات أرشيفها صور الأشخاص الذين تتحدّث عنهم، ليس أيّ صورة عاديّة، وإنّما صورة متقدّمة علميّا يتمّ تحديثها باستمرار وبصورة آليّة، كلّ صورة منها في ملفّها الخاصّ، بالطريقة نفسها التي يجري فيها تحديث معلومات وجود أولئك الأشخاص، ويجب أن تتحوّل صورة الشخص كذلك مع مرور الزمن، ابتداء من الطفل ذي البشرة المجعّدة والبشرة الورديّة بين ذراعي أمّه، حتّى هذا اليوم الذي

نتساءل فيه إذا ما كنّا حقّا أولئك الأطفال الذين كنّاهم ذات يوم، أم أنّ جنّيَّ مصباح يأخذ باستبدالنا بأشخاص آخرين مع كلّ ساعة تمرّ. عاد الرجل للتحرُّك، يبدو أنّه سيستيقظ، ولكن لا، فقد عاد تنفّسه إلى إيقاعه العاديّ، الثلاث عشرة مرّة المضبوطة في الدقيقة، يده اليسرى تستريح على القلب، كما لو أنّها تتنصّت على النبضات، نبضة مفتوحة لانبساط عضلة القلب، ونبضة مغلقة لانقباضها، بينما اليد اليمنى، براحتها إلى أعلى وأصابعها منحنية قليلا، تبدو كما لو أنّها تنتظر يدا أخرى تأتي لمصافحتها. للرجل مظهر شخص أكبر سنّا من الخمسين عاما التي أكملها، ربّما لا يكون العمر، وإنّما هو الإرهاق، والمصادفة الحزينة، ولكن هذا لا يمكننا معرفته إلاّ عندما يفتح عينيه. شعر رأسه غير مكتمل، وكثير من الشعر المتبقّي صار أبيض. إنّه رجل عاديّ، ليس قبيحا ولا وسيما. وبينما هو على هذه الحال التي نراه فيها الآن، مستلقيا على ظهره، مع سترة البيجاما المخطّطة التي لا تغطّيها تماما طيّة أعلى الدثار، لا يمكن لأحد أن يقول إنّه عازف الفيولونسيل الأوّل في أوركسترا المدينة السيمفونيّة، وأنّ حياته تنقضي منسلّة بين الخطوط السحريّة لمدرج الكتابة الموسيقيّة، ومن يدري ما إذا كانت تنسلّ كذلك بحثا عن قلب الموسيقى العميق، وقفة، صوت، انقباض، انبساط. كانت موت لا تزال مستاءة من قصور نظام الاتّصال البريديّ مع هذه الحالة، ولكن دون السخط الذي كانت تشعر به وهي آتية إلى هنا، فهي تنظر إلى الوجه النائم وتفكّر بالتباس في أنّه كان يتوجّب على هذا الرجل أن يكون ميتا، وأنّ هذا التنفّس الناعم، شهيقا وزفيرا، يجب أن يكون متوقّفا، وأنّ القلب الذي تحميه اليد اليسرى يجب أن يكون متوقّفا وفارغا، معلّقا إلى الأبد في انقباض العضلة الأخير. لقد جاءت لترى هذا الرجل وقد رأته الآن، ولا وجود فيه لشيء خاصّ يفسّر إعادة الرسالة البنفسجيّة ثلاث

مرّات، وأفضل ما يمكن عمله بعد هذا هو العودة إلى القاعة تحت الأرضيّة الباردة التي جاءت منها لتكتشف الطريقة التي تُجهز بها دفعة واحدة على المصادفة اللعينة التي جعلت من عازف الفيولونسيل النَّشار هذا حيّا بذاته. ومن أجل أن تنخس تناقضها الذاتيّ والمنحدر، استخدمت موت هذين التعبيرين الفظّين اللذين يتألّف كلّ منهما من كلمتين، المصادفة اللعينة، وعازف الفيولونسيل النَّشار، غير أنّ النتائج لم تكن بمستوى النيّة. فالرجل النائم لا يتحمّل أيّة مسؤوليّة عمّا حدث للرسالة البنفسجيّة، وهو لا يتخيّل ولو بأوهى الظلال أنّه يعيش حياة لا يمكن أن تكون حياته، وأنّه لو سارت الأمور مثلما يتوجّب لها أن تسير، لكان عليه أن يكون مدفونا منذ ثمانية أيّام على الأقلّ، ولكان الكلب الأسود يجوب المدينة الآن بحثا عن سيّده كمجنون، أو يقبع بلا أكل ولا شرب عند مدخل العمارة منتظرا عودته. أفلتت موت نفسها برهة، وتمدّدت منتشرة حتّى الجدران، ملأت الحجرة كلّها، واستطالت مثل انسكاب سائلٍ حتّى غرفة المعيشة المجاورة، وهناك توقّف جزء منها ليتأمّل دفتر النوتة المفتوح على أحد الكراسي. كانت تلك مقطوعة السويت السادسة من العمل ألف واثني عشر ري ماجور لجوهان سيباستيان باخ، ألّفها في كوتين وما كانت بحاجة لتعلم الموسيقى كي تعرف أنّها كُتبت، مثل سيمفونيّة بتهوفن التاسعة، على إيقاع سعادة البشر ووحدتهم، على إيقاعات الصداقة والمحبّة. عندئذ حدث شيء لم يُرَ قطّ، شيء لا يمكن تصوّره، انهارت موت على ركبتيها، وكانت هي كلّها الآن جسدا استعاد قوامه، فكانت له ركبتان، وساقان، وقدمان، وذراعان، ويدان، ووجه تخفيه بين يديها، وكتفان يرتعشان لسبب غير معروف، لأنّه ليس بكاء، ولا يمكن طلب هذا ممّن تترك خلفها أثرا من الدموع أينما مرّت، ولكن لا وجود بينها لدمعة واحدة منها. وهكذا، مثلما كانت، لا مرئيّة ولا غير مرئيّة، لا هيكلا

عظميًا ولا امرأة، نهضت عن الأرض مثل نسمة ودخلت إلى الحجرة. لم يكن الرجل قد تحرّك. وفكّرت موت، لم يعد لديّ ما أفعله هنا، سأذهب، فليس هناك ما يستحقّ المجيء لمجرّد رؤية رجل وكلب نائمين، ربّما يحلم كلّ منهما بالآخر، الرجل يحلم بالكلب، والكلب بالرجل، الكلب يحلم بأنّ الصباح قد طلع وأنّه يضع رأسه إلى جانب رأس الرجل، والرجل يحلم بأنّ الصباح قد طلع وأنّ ذراعه اليسرى تطوّق جسد الكلب الدافئ والطريّ وتشدّه إلى الصدر. إلى جانب الخزانة التي يخفيها الباب المطلّ على الممرّ توجد أريكة، مضت موت للجلوس عليها. لم تقرّر ذلك مسبقا، ولكنّها جلست عليها، في ذلك الركن، ربّما لأنّها تذكّرت البرودة التي تكون عليها قاعة الأرشيف تحت الأرضيّة. صارت عيناها على مستوى رأس الرجل النائم، تميّز بروفيله المرسوم بدقّة على خلفيّة الإضاءة البرتقاليّة الخفيفة التي تدخل من النافذة وتكرّر بينها وبين نفسها بأنّه لم يعد لديها أيّ مسوّغ معقول للبقاء هناك، ولكنّها تتذرّع على الفور بأنّ لديها مسوّغا، أجل، ومسوغ قويّ، لأنّ هذا هو البيت الوحيد في المدينة، في البلاد، في العالم بأسره، الذي يوجد فيه شخص يخالف أشدّ قوانين الطبيعة صرامة، ذلك القانون الذي يفرض الحياة مثلما يفرض الموت، القانون الذي لم يسألك إن كنت تريد العيش، ولن يسألك إن كنت تريد الموت. وفكّرت، هذا الرجل ميت، كلّ من عليه أن يموت شابّا يأتي ميتا مسبقا، ولا يحتاج إلاّ إلى أن أوجّه إليه لمسة خفيفة بالإبهام أو أن أرسل إليه رسالة بنفسجيّة لا يمكن له رفضها. وفكّرت، هذا الرجل ليس ميتا، سيستيقظ خلال ساعات قليلة، سيستيقظ كما في كلّ يوم، وسيفتح باب الفناء ليتمكّن الكلب من إفراغ ما يحمله من فضلات في بدنه، وسيتناول فطوره، وسيدخل الحمّام ويخرج منه مرتاحا، نظيفا، حليقا، وربّما يخرج إلى الشارع مع الكلب ليشتريا معا الصحيفة من الكشك الذي على

الناصية، وربّما سيجلس قبالة مسند النوتات الموسيقيّة ويعزف مرّة أخرى مقطوعات شومان الثلاث، وإن كان لا يعرف في هذه اللحظة أنّه شبه خالد لأنّ موت هذه التي تنظر إليه لا تدري كيف ستقتله. غيّر الرجل وضعه، أدار ظهره للخزانة التي يخفيها الباب وترك ذراعه اليمنى تسقط في الجهة التي يقبع فيها الكلب. وبعد دقيقة من ذلك استيقظ. إنّه عطشان. أضاء مصباح الكوميدينو، نهض، دسّ قدميه في الخفّ الموجود، كالعادة، تحت رأس الكلب، وذهب إلى المطبخ. لحقت به موت. سكب الرجل ماءً في كأس وشرب. وفي هذه اللحظة ظهر الكلب، وأطفأ ظمأه من الإناء الموضوع إلى جانب الباب المؤدّي إلى الفناء ثمّ رفع رأسه نحو سيّده. تريد الخروج طبعا، قال عازف الفيولونسيل. فتح الباب وانتظر رجوع الحيوان. لقد ظلّ في الكأس قليل من الماء. نظرت إليه موت، وبذلت جهدا عظيما لتتخيّل ما الذي يعنيه الظمأ، ولكنّها لم تتمكّن من ذلك. مثلما لم تتمكّن من ذلك أيضا عندما كان عليها أن تُميت أناسا من العطش في الصحراء، ولكنّها لم تحاول مجرّد التفكير في الأمر آنذاك. بعد أن رجع الحيوان وهو يهزّ ذيله، قال الرجل، فلنذهب للنوم. ورجعا إلى الحجرة، دار الكلب ثلاث لفّات وتكوّر على نفسه. غطّى الرجل جسمه حتّى الرقبة، سعل مرّتين، وبعد قليل استغرق في النوم. كانت موت تنظر إليه وهي جالسة في ركنها. بعد وقت طويل من ذلك، نهض الكلب عن السجّادة وصعد على الأريكة. وعرفت موت أوّل مرّة في حياتها ما الذي يعنيه وجود كلب في حضن أحدهم.



يمكن لأيّ شخص أن يمرّ بلحظات ضعف في الحياة، وإذا كنّا لا نمرّ بها الآن، فإنّنا متأكّدون من أنّنا سنحصل عليها في الغد. فبالطريقة نفسها التي نرى فيها وراء درع آخيل البرونزيّ قلبا عاطفيّا ينبض، يكفي أن نتذكّر ما عاناه البطل من الغيرة على امتداد عشر سنوات بعد أن سلبه أغاممنون حبيبته، السبيّة بريزيدا، ثمّ ذلك الغضب الرهيب الذي جعله يعود إلى الحرب صارخا بصوت جهوريّ ضدّ الطرواديّين عندما مات صديقه باتروكليس على يد هيكتور، وكذلك في أشدّ الدروع التي صُنعت حتّى اليوم متانة، مع الوعد بأنّها ستظلّ كذلك حتّى نهاية العصور - ونحن نشير الآن إلى هيكل موت العظمي - توجد على الدوام إمكانيّة أن يأتي يوم يراود فيه الضعف قدمها المخيف، وهكذا كمن هو غير راغب، يمكن لنغمة فيولونسيل ناعمة، لكركرة بيانو ساذجة، أو لمجرّد رؤية نوتة موسيقيّة مفتوحة على كرسيّ أن تجعلكِ تتذكّرين ذاك الذي ترفضين التفكير فيه، بأنكِ لم تعيشي، وأنّك مهما فعلت، لن تستطيعي العيش أبدا، اللهمّ إلاّ إذا. كنتِ قد تأمّلتِ باهتمام فاتر عازفَ الفيولونسيل نائما، هذا الرجل الذي لم تتمكّني من قتله لأنّكِ لم تصلي إليه إلاّ بعد أن كان الوقت قد فات، وكنتِ قد رأيتِ الكلب متكوّرا على السجّادة، وليس مسموحا لكِ ولو مجرّد لمس هذا الحيوان، لأنّكِ لستِ أنت موته، وفي عتمة حجرة النوم الدافئة، أفاد هذان الكائنان الحيّان المستسلمان للنوم في زيادة وعيكِ بثقلكِ الحديديّ. أنتِ من اعتدت على استطاعة ما لا يستطيعه أحد، وجدتِ نفسك هناك عاجزة، مقيّدة اليدين والقدمين،

وتصريحك بالقتل، صفر صفر سبعة، بلا صلاحيّة في هذا البيت، لم تعرفي قطّ، منذ أن كنتِ موتا، وأنت تعترفين بذلك، لم تعرفي مثل هذه المذلّة. وكان أن خرجتَ عندئذ من حجرة النوم ودخلتِ إلى قاعة الموسيقى، وكان أن جثوتِ أمام مجموعة مقطوعات السويت السادسة على الفيولونسيل لجوهان سيباستيان باخ وحرّكتِ كتفيكِ بتلك الحركة التي يرفقها البشر عادة بالبكاء المكبوت، وكان عندئذ، وركبتاك لا تزالان راكعتين على الأرض القاسية، أن تمدّد ظلّ سخطكِ فجأة مثل الضباب عديم الوزن الذي تتحوّلين إليه أحيانا عندما لا تريدين أن تكوني غير مرئيّة بالكامل. رجعتِ إلى حجرة النوم، لحقتِ بعازف الفيولونسيل حين ذهبَ إلى المطبخ ليشرب ماء وليفتح الباب للكلب، في البدء رأيته مضطجعا ونائما، والآن ترينه مستيقظا وواقفا، وربّما بفعل وهم بصريّ تسبّبه خطوط البيجاما الطولانيّة، بدا أطول قامة منكِ، ولكن ذلك غير ممكن، إنّه خداع من العينين، تشويه للمنظور، وهناك منطق الأمور الذي يقول لنا إنّ الأكبر هي أنت أيّتها الموت، أكبر منّا جميعا. أو ربّما لستِ كذلك على الدوام، فربّما تُفسّر الأمور التي تحدث في العالم حسب المناسبة، فالقمر المبهر الذي يتذكّره الموسيقيّ من طفولته، على سبيل المثال، كان يمكن له أن يمرّ دون أيّ أثر لو أنّ الموسيقيّ كان نائما، أجل، الأمر مرتبط بالمناسبة، لأنّكِ أنت صرت منيّة صغيرة حين رجعتِ إلى حجرة النوم وجلستِ على الأريكة، وصرت أصغر أيضا حين نهض الكلب عن السجّادة وصعد إلى حضنك الذي هو أشبه بحضن طفلة، وعندئذ خطرت لكِ فكرة من أجمل ما يكون، فكّرت في أنّه من غير العدل أن تأتي موت، ليس أنت، وإنّما موت الأخرى، أن تأتي ذات يوم لتطفئ جمر ذلك الدفء الحيوانيّ الناعم، هكذا فكّرتِ، من يصدّق ذلك، أنت المعتادة على البرودة القطبيّة الشماليّة والجنوبيّة المنتشرة في القاعة التي أنتِ

فيها الآن، وحيث صوت واجبكِ الفظيع يناديك، صوت واجبك بقتل ذلك الرجل الذي تبدو عليه، وهو نائم، تكشيرة مريرة لمن كانت لديه طوال حياته رفقة بشريّة حقّا في الفراش، وأنّه توصّل إلى اتّفاق مع كلبه كي يحلم كلّ منهما بالآخر، الكلب يحلم بالرجل، والرجل يحلم بالكلب، وأن ينهض في الليل بالبيجاما ذات الخطوط كي يذهب إلى المطبخ ليطفئ ظمأه، طبعا سيكون أكثر راحة له أن يحمل كأس ماء إلى الحجرة عند ذهابه للنوم، ولكنّه لا يفعل ذلك، إنّه يفضّل مشواره الليليّ القصير عبر الردهة حتّى المطبخ، وسط سلام الليل وصمته، مع الكلب الذي يمضي وراءه في كلّ مرّة، ويطلب في بعض الأحيان الخروج إلى الفناء، وفي أحيان أخرى لا يطلب، لا بدّ لهذا الرجل من أن يموت، تقولين.

ومن جديد تحوّلت موت إلى هيكل عظميّ ملتفّ بكفن، مع القلنسوة نصف المتهدّلة إلى الأمام، بحيث يظلّ أسوأ ما في الجمجمة مغطّى، ولكنّه أمر لا يستحقّ الاهتمام، إذا كان هذا هو مصدر قلقها، لأنّه لا وجود لأحد هنا يرتعب من المشهد القبوريّ، لاسيما وأنّ أطراف عظام اليدين والقدمين تظلّ ظاهرة للعيان، فالقدمان تستقرّان على بلاط الأرضيّة وتشعران ببرودته الجليديّة، واليدان تتصفّحان، كأنّهما مكشط، صفحات المجلّد الكامل لأنظمة الموت التاريخيّة، ابتداء من أَوّل القوانين الذي كُتب بكلمة واحدة وبسيطة، ستَقتلين، حتّى أحدث الإضافات والملاحق، حيث توجد متشابكة كلّ أساليب الموت وتنوّعاته المعروفة حتّى الآن، والتي يمكن القول إنّ قائمتها لا تُستنفد أبدا. لم تفاجأ موت بالنتيجة السلبيّة لبحثها، والواقع أنّه سيكون من غير الملائم، بل سيكون فوق ذلك غير مجدٍ أن تظهر في كتاب يحدّد للجميع ولكلّ واحد من الجنس البشريّ نقطة نهاية، خاتمة، الحكم المبرم عليه، الموت، أن تظهر فيه كلمات مثل حياة، عيش، مثل أعيش وسأعيش.

فهناك لا يوجد متّسع إلاّ للموت، ولا يمكن الحديث فيه عن فرضيّات سخيفة حول تمكّن أحدهم من الإفلات ذات مرّة، ومرّة واحدة يظهر زمن الفعل أنا عشتُ في ملاحظة غير ضروريّة في أسفل الصفحة، ولكن مثل هذا المسعى لم تجر محاولته بجدّ قطّ، وهو ما يدفعنا إلى الاستنتاج بأنّ هناك مسوّغات أكثر من قويّة لأن لا يكون واقع أنّ المرء قد عاش أمرا يستحقّ أن يرد في كتاب الموت. ذلك أنّ التسمية الأخرى لكتاب الموت، ومن الملائم أن نعرف ذلك، هي كتاب العدم. أزاح الهيكل العظميّ مجلّد الأنظمة جانبا ونهض. قام بجولتين في القاعة، مثلما يفعل عادة كلّما احتاج إلى لبّ قضيّة مّا، ثمّ فتح درج الأرشيف الذي فيه ملفّ عازف الفيولونسيل وأخرجه. هذه الحركة ذكّرتنا للتوّ بأنّ هذه هي اللحظة المناسبة، وإلاّ لن تتاح لنا أبدا، لتوضيح المظهر المهمّ المتعلّق بسير عمل الأرشيف الذي هو محطّ اهتمامنا والذي لم ننوّه به حتّى الآن، وهذا إهمال من الراوي يستحقّ اللوم. ففي المقام الأوّل، وخلافا لما يمكن تخيّله، فإنّ العشرة ملايين ملفّ الموجودة مرتّبة في هذه الأدراج لم تملأ موتُ استماراتها، لم تكن هي من كتبتها. لم يكن ينقصها إلاّ هذا، فموت هي موت، وليست مجرّد كاتبة بالعدل عاديّة. فالملفّات تظهر في أمكنتها على الفور، هذا يعني مرتّبة أبجديّا، في اللحظة نفسها التي يولد فيها الشخص، وتختفي في لحظة موته بالضبط. وقبل اختراع الرسائل البنفسجيّة، لم تكن موت تزعج نفسها بفتح الأدراج، فدخول الملفّات وخروجها يتمّ على الدوام دون اختلاط ودون عقبات، ولا يوجد أيّ ذكر لوقوع أحداث مؤسفة كأن يقول بعضهم إنّهم لا يريدون الولادة أو يعترض آخرون لأنّهم لا يريدون الموت. ملفّات الأشخاص الميّتين تذهب، دون أن يأخذها أحد، إلى قاعة موجودة تحت هذه القاعة، أو أنّها، بكلمة أدقّ، تأخذ مكانها في قاعات تحت أرضيّة تتوالى في مستويات أعمق

فأعمق في الطريق إلى مركز الأرض الناريّ، حيث سينتهي الأمر بهذه الأوراق كلّها إلى الاحتراق ذات يوم. أمّا هنا، في قاعة موت والمنجل طويل الساق، فسيكون من المستحيل إقرار وجهة نظر مماثلة للّتي تبنّاها ذلك القيّم على السجلّ المدنيّ الذي قرّر أن يجمع في أرشيف واحد كافّة الأسماء والأوراق التي تحت حراسته، الخاصّة بالأحياء والأموات، متذرّعا بأنّه يمكن لها، بجمعها كلّها معا، أن تمثّل البشريّة مثلما يجب أن تُفهم، ككلٍّ مطلق، بغضّ النظر عن الزمان والأمكنة، وأنّ إبقاء الأرشيف منفصلا هو اعتداء على الروح. هذا هو الفارق الهائل القائم بين الموت هنا وذلك القيّم الرصين على أوراق الحياة والموت، كما أنّ موت تحتفي بازدراء من ماتوا ازدراءً أولمبيّا، ولنتذكّر الجملة القاسية التي تكرّرت مرارا، والقائلة إنّ الماضي قد مضى، بينما يرى القيّم بالمقابل، بفضل ما نسمّيه في اللغة الدارجة وعيا تاريخيّا، أنّه لا يتوجّب فصل الأحياء عن الأموات أبدا، وأنّ العمل خلافا لذلك، لا يُبقي الميّتين ميّتين إلى الأبد وحسب، بل إنّ الأحياء أيضا سيعيشون حياتهم حتّى النصف فقط، حتّى لو امتدّت هذه الحياة أطول من حياة نوح الذي توجد شكوك في أنّه مات عن تسعمائة وتسعة وستّين عاما مثلما يقول العهد القديم التوراتيّ أو عن سبعمائة وعشرين عاما مثلما تؤكّد التوراة السامريّة. الحقيقة أنّه لن يكون الناس جميعا متّفقين مع اقتراح الأرشفة الجريء للقيّم على كلّ الأسماء الموجودة والتي ستوجد، ولكن، من أجل ما يمكن أن يكون مفيدا في المستقبل، نترك الأمر مودعا هنا.

تتفحّص موت الملفّ ولا تجد فيه شيئا لم تره من قبل، أي أنّه سيرة حياة موسيقيّ يتوجّب أن يكون ميتا منذ أكثر من أسبوع وأنّه، على الرغم من ذلك، مازال يحيا مطمئنّا في منزله المتواضع كفنّان، مع كلبه الأسود الذي يصعد إلى أحضان السيّدات، ومع البيانو والفيولونسيل، وظمئه

الليليّ وبيجامته المخطّطة. وفكّرت موت، لا بدّ من وجود طريقة لحلّ هذه المشكلة، والحلّ المفضّل بالطبع هو التمكّن من إنهاء الموضوع دون ضجّة كبيرة، ولكن لو كانت المراجع العليا تنفع في شيء، لو أنّها ليست موجودة لتلقّي التكريم والتمجيد وحسب، لكانت لديها الآن فرصة جيّدة لتثبت أنّها ليست غير مبالية بمن هي هنا تحت، على الهضبة، تنجز العمل الصعب، فلتبدّل تلك المراجع الأنظمة، ولتُقرَّ إجراءات استثنائيّة، ولتسمح إذا تطلّب الأمر بالوصول إلى هذا الحدّ، في عمل تبدو شرعيّته موضع ريبة، ولتسمح بأيّ شيء غير السماح لمثل هذه الفضيحة أن تستمرّ. المثير للفضول في القضيّة هو أنّه ليس لدى موت أدنى فكرة عمّن تكون، بالتحديد، تلك المراجع العليا التي يتوجّب عليها، كما هو مفترض، أن تحلّ لها المشكلة. صحيح أنّها أتت في إحدى الرسائل التي نُشرت في الصحافة، هي الرسالة الثانية إذا لم أكن مخطئا، على ذكر موت كونيّ سيُنهي، لا أحد يعلم متى، كلّ مظاهر الحياة في الكون حتّى آخر جرثومة فيه، ولكن هذا الأمر، فضلا عن أنّه بديهة فلسفيّة باعتبار أن لا شيء يدوم إلى الأبد، بما في ذلك الموت، فقد كان، بمصطلحات عمليّة، نتيجة استخلصها الحسّ السليم، ويجري تداولها منذ زمن طويل بين المنيّات الفرعيّة، وإن كان ينقصها الإثبات بمعارف مؤكّدة عن طريق الاختبار والتجربة. والمنيّات الفرعيّة تبذل الكثير للحفاظ على الإيمان بموت عامّ لم يقدّم حتّى اليوم أبسط إشارة إلى قدراته المتخيّلة. ونحن، المنيّات الفرعيّة، فكّرت موت، من نعمل بجدّ حقّا، ننظّف الميدان من الزوائد اللحميّة، والحقيقة أنّني لن أفاجأ أبدا إذا ما جاء يوم يختفي فيه الكون بأسره، ليس نتيجة صيحة وقورة من الموت الكونيّ، تتردّد أصداؤها بين المجرّات والثقوب السوداء، بل كنتيجة أخيرة لتراكم الميتات الصغيرة الخاصّة والشخصيّة التي هي من مسؤوليّاتنا، ميتة فميتة، كما لو أنّ

دجاجة المثل السائر، بدل أن تملأ حوصلتها حبّة فحبّة، تفرغها ببلاهة حبّة فحبّة، وهذا ما يبدو لي أنّه سيحدث للحياة، هي نفسها تعدّ العدّة لنهايتها، دون أن تحتاج إلينا، ودون أن تنتظر منّا أن نعطيها دفعة صغيرة.
إن حيرة موت وارتباكها أكثر من مفهوم. فقد وضعوها في هذا العالم منذ زمن بعيد لم تعد تتذكّر معه ممّن تلقّت التعليمات الضروريّة لتولّيها النظاميّ للعمل الذي تؤدّيه. وضعوا أنظمة المهمّة بين يديها، وأشاروا لها إلى كلمة ستقتلين على أنّها المنارة الوحيدة لنشاطاتها، وطلبوا منها، ربّما دون أن تنتبه إلى السخرية القبوريّة، أن تعيش حياتها. وراحت هي تعيشها معتقدة أنّها، في حالة الشكّ أو وقوع مشكلة، ستجد على الدوام من يغطّي ظهرها، وأنّه سيكون هناك أحد على الدوام، رئيس، مسؤول أعلى رتبة، دليل روحيّ، تطلب منه النصح والتوجيه.

من غير المعقول مع ذلك، وهنا ندخل في التفحّص البارد والموضوعيّ الذي صار يتطلّبه وضع موت وعازف الفيولونسيل، أن يكون نظام معلومات بالغ الدقّة كالذي حافظ هذا الأرشيف على ضبطه يوميًا على امتداد ألفيّات من السنين، يُحَدِّث معطياته باستمرار، يُظهر الملفات ويخفيها وفق الولادات والوفيات، ليس من المعقول، نكرّر، أن يكون مثل هذا النظام بدائيًا ومن طرف واحد، وأنّ مصدر المعلومات، أينما كان مكانه، لا يتلقّى بدوره باستمرار المعطيات الناتجة عن نشاطات موت اليوميّة في ممارستها لوظيفتها. وإذا كان يتلقّاها بالفعل ولا يبدي أيّ ردّ فعل على الخبر الاستثنائيّ بأنّ هناك من لم يمت في موعده المقرّر، فلدينا أحد احتمالين، إمّا أنّ الواقعة، خلافا لمنطقنا وتوقّعاتنا الطبيعيّة، لا تهمّه وبالتالي لا يشعر بأنّه مضطرّ إلى التدخّل من أجل تحييد الخلل الذي ظهر في العمليّة، أو سيُفهم عندئذ أنّ موت، وخلافا لما تظنّه هي نفسها، لديها بطاقة بيضاء لأن تحلّ، على طريقتها، أيّ مشكلة تعترضها

فـي عملها اليوميّ. كان من الضروريّ لهذه الكلمة، شكّ، أن ترد هنا مرّة أو مرّتين كي توقظ فـي ذاكرة موت أخيرا مقطعا معيّنا من الأنظمة لم يكن، بسبب كتابته بحروف صغيرة فـي أسفل إحدى الصفحات، يلفت انتباه الدارس، فما بالك ببقائه ثابتا في الذاكرة. تركت موت ملفّ عازف الفيولونسيل جانبا وعادت إلى الكتاب. كانت تعرف أنّ ما تبحث عنه لن تجده فـي الملاحق ولا فـي الإضافات، وأنّه يجب أن يكون فـي القسم البدئيّ من الأنظمة، في أقدمها، وهي الأقلّ استشارة بالتالي، مثلما يحدث بصورة عامّة مع النصوص التاريخيّة الأساسيّة، وهناك عثرت موت على المقطع المطلوب. وهو يقول ما يلي، فـي حالة الشكّ، يتوجّب على موت المعنيّة، وفي أقصر مهلة ممكنة، أن تتّخذ الإجراءات التي تنصح بها تجربتها السابقة بهدف إنجاز المطلوب بالحزم الذي يتوجّب دوما، فـي كافّة الحالات وفي أيّ ظرف، أن يوجّه سلوكها، هذا يعني إنهاء الحيوات البشريّة عندما ينفد الزمن الذي خصّص لها منذ الولادة، وإن كان عمل ذلك يتطلّب اللجوء إلى أساليب أقلّ صرامة فـي حالات مقاومة غير طبيعيّة من جانب الشخص المعنيّ للقدر المرسوم، أو بفعل اجتماع ظروف شاذّة ولم يُلحظ توقّعها فـي الزمن الذي وُضعت فيه هذه الأنظمة. الأمر أكثر وضوحا من الماء، فموت طليقة اليدين للعمل كما تشاء. وهذا ليس بالأمر الجديد مثلما يثبت التقصّي الذي انطلقنا منه. وإذا لم يكن كذلك، فلنعد إلى البدء. فعندما قرّرت موت، بنفسها وعلى مسؤوليّتها، وقف نشاطها منذ اليوم الأوّل من كانون الثاني (يناير) من هذه السنة، لم تخطر لبالها فكرة أنّه يمكن لمرجع أعلى فـي سلّم المراتب أن يطلب منها حسابا عن سخائها السخيف، كما أنّها لم تفكّر فـي الاحتمال الكبير جدّا بأن يكون اختراع رسائلها البنفسجيّة الطريف قد نُظر إليه بعين الاستياء من المرجعيّة المذكورة وأخرى أعلى مقاما منها.

هذه هي مخاطر الممارسات الآليّة، الروتين المنوّم، البركسيس المتعبة. فأيّ شخص، أو موت نفسها، لا فرق في هذه الحالة، يقوم بعمله يوما إثر يوم بدقّة موسوسة، دون مشاكل، دون شكوك، مكرّسا اهتمامه كلّه على اتّباع القواعد الثابتة، فإذا ما مضى الزمن ولم يأت أحد ليدسّ أنفه في الطريقة التي يتولّى فيها مسؤوليّاته، فمن المؤكّد والمعروف أنّ الأمر سينتهي بهذا الشخص، وهو ما حدث لموت، إلى التصرّف، دون أن ينتبه، كما لو أنّه الملك والسيّد المطلق في ما يفعله، وليس هذا وحسب، وإنّما كذلك متى وكيف عليه أن يفعل ذلك. هذا هو التفسير العقلانيّ الوحيد في أنّ موت لم تعتبر نفسها بحاجة إلى طلب إذن من المراتب العليا عندما اتّخذت القرارات الخطيرة التي نعرفها ووضعتها موضع التطبيق، وهي القرارات التي لولاها ما كان لهذه القصّة، السعيدة أو التعيسة، أن توجد أصلا. المسألة أنّها لم تفكر في هذا كلّه من قبل. والآن، وبصورة متناقضة ظاهريّا، في اللحظة التي لا تتّسع لها نفسها من السعادة لأنّها اكتشفت أنّ سلطة التصرّف بالحيوات البشريّة هي رهن يدها وليس عليها أن تُرضي أحدا بعملها، لا اليوم ولا في أيّ وقت على الإطلاق، إنّها اللحظة التي يهدّد فيها دخان المجد بأن يُغشي بصرها، ولا تتمكّن من تجنّب هذا التأمّل الحذر الخاصّ بالشخص الذي كان على وشك أن يُفاجأ وهو يرتكب خطأ، ويتوصّل بطريقة إعجازيّة إلى الإفلات في اللحظة الأخيرة، لقد نجوتُ من هذا الخطإ.

وعلى الرغم من كلّ شيء، فإنّ موت التي تنهض الآن عن الكرسيّ هي إمبراطورة. لا يتوجّب عليها أن تكون في هذه القاعة تحت الأرضيّة الجليديّة، كما لو أنّها مدفونة حيّة، وإنّما أن تترأّس مصير العالم من فوق قمّة أعلى جبل، تتأمّل القطيع البشريّ بعطف، ترى كيف يتحرك ويموج في كلّ الاتّجاهات دون أن يدرك أنّها كلّها تؤدّي إلى المصير نفسه، وأنّ

خطوة إلى الوراء تقرّبه من الموت بقدر ما تقرّبه منه خطوة إلى الأمام، وأنّ كلّ شيء مشابه لكلّ شيء لأنّ لكلّ شيء نهاية، هذا ما يتوجّب على جزء منكِ أن يفكّر فيه على الدوام وهو العلامة السوداء على إنسانيّتك التي لا خلاص منها. كانت موت تمسك بيدها ملفّ الموسيقيّ. إنّها واعية أنّه عليها أن تفعل به شيئا مّا، ولكنّها مازالت لا تعرف ما الذي ستفعله. يتوجّب عليها في المقام الأوّل أن تهدأ، وأن تفكّر في أنّها ليست الآن موتا أكثر ممّا كانته من قبل، وأنّ الفرق الوحيد بين اليوم والأمس هو أنّه صار لديها يقين أكبر بما هي عليه. وفي المقام الثاني، واقع تمكّنها أخيرا من ضبط حساباتها مع عازف الفيولونسيل، لا يشكّل سببا لنسيان إرسال رسائل هذا اليوم. فكّرت في ذلك، وعلى الفور ظهر على المنضدة مائتان وأربعة وثمانون ملفّا، نصفها لرجال ونصفها لنساء، وظهرت معها مائتان وأربع وثمانون ورقة رسائل ومائتان وأربعة وثمانون مغلّفا. عادت موت للجلوس، أزاحت ملفّ الموسيقيّ جانبا وبدأت الكتابة. وقد أسقطت ساعة رمليّة، تُوقت لأربع ساعات، آخر حبّة رمل فيها في اللحظة نفسها التي انتهت فيها موت من توقيع الرسالة الرابعة والثمانين بعد المئاتين. وبعد ساعة من ذلك كانت المغلّفات قد أغلقت وصارت جاهزة للإرسال. بحثت موت عن الرسالة التي أُرسلت ثلاث مرّات واعيدت ثلاث مرّات، ووضعتها فوق كومة المغلّفات البنفسجيّة، وقالت لها، سأمنحكِ فرصة أخيرة. قامت بالإيماءة المعهودة بيدها اليسرى فاختفت الرسائل. لم تكن قد انقضت خمس ثوان عندما عادت رسالة الموسيقيّ، بصمت، إلى الظهور فوق المنضدة. فقالت لها موت، أنت شئت هذا، وسيكون لكِ ما شئت. شطبت تاريخ ميلاد الموسيقيّ من الملفّ وجعلته بعد سنة ممّا كان عليه، ثمّ صحّحت السنّ، فحذفت رقم خمسين المكتوب وجعلته تسعة وأربعين. لا يمكنكِ فعل ذلك، قال لها المنجل طويل الذراع، لقد فعلتُه

وانتهيت، ستترتّب عليه نتائج، بل نتيجة واحدة فقط، ما هي، موت عازف الفيولونسيل اللعين أخيرا، هذا الذي يتسلّى على حسابي، ولكن الرجل المسكين يجهل أنّه كان عليه أن يكون ميتا، الأمر بالنسبة إليّ كما لو أنّه يعرف، أيّا يكن الأمر، ليس لكِ سلطة التعديل في الملفّات، إنّك مخطئ أيّها المنجل، فلديّ كلّ السلطات وكامل الأهليّة، فأنا موت، وسجّل عندك أنّني لم أكن كذلك قطّ مثلما أنا عليه ابتداء من هذا اليوم، أنتِ لا تعرفين ما الذي تحشرين نفسك فيه، حذّرها المنجل، هناك مكان وحيد في العالم لا يمكن لموت أن تحشر نفسها فيه، أيّ مكان هذا، إنّه ما يسمّونه إجانة الرماد، أو الصندوق، أو القبر، أو التابوت، أو النعش، أو الضريح، أو الرجمة، هناك لا أدخل أنا، لأنّ الأحياء وحدهم هم من يدخلون هناك، بعد أن أقتلهم أنا طبعا، كلمات كثيرة من أجل شيء وحيد كئيب، إنّها عادة هؤلاء البشر، فهم لا يقولون أبدا ما يريدون قوله دفعة واحدة.



موت لديها خطّة. واستبدالها سنة موت الموسيقيّ لم يكن سوى الحركة الابتدائيّة من عمليّة ستلجأ فيها، ويمكن لنا أن نستبق ذلك منذ الآن، إلى استخدام وسائل استثنائيّة بالمطلق، لم تُستخدم قطّ على امتداد تاريخ علاقات الجنس البشري مع عدوّته اللدود. فكما في لعبة شطرنج، تقدّمت موت بالملكة. وبعد بضع حركات أخرى ستفتح الطريق إلى كش مات وتنتهي اللعبة. الآن يمكن السؤال لماذا لم ترجع موت إلى الوضع الذي كان سائدا من قبل، عندما كان الناس يموتون ببساطة لأنّه عليهم أن يموتوا، دون انتظار أن يأتيهم ساعي البريد بالرسالة البنفسجيّة. للسؤال منطقيّته، ولكنّ الجواب لن يكون أقلّ منطقيّة. الأمر يتعلّق في المقام الأوّل بمسألة عزّة نفس، حماسة، كرامة مهنيّة، لأنّ عودة الموت، أمام عيون العالم بأسره، إلى براءة تلك الأزمنة سيكون أشبه باعتراف بالهزيمة. وحيث إنّ العمليّة سارية المفعول اليوم هي الرسائل البنفسجيّة، فلا بدّ لعازف الفيولونسيل من أن يموت بهذه الطريقة. يكفي أن نضع أنفسنا مكان الموت كي ندرك طيبة مسوّغاتها. من الواضح أنّ المشكلة الكبرى، مثلما أتيحت لنا فرصة رؤيتها أربع مرّات، هي جعل الرسالة المتعِبة تصل إلى مستقرّها، وهنا، من أجل التوصل إلى إنجاز الهدف المنشود، تدخل في العمل الوسائل الاستثنائيّة التي تحدّثنا عنها أعلاه. ولكنّنا لن نستبق الوقائع، وسنراقب ما الذي تفعله موت في هذه اللحظة. فموت، في هذه اللحظة بالذات، لا تفعل شيئا أكثر ممّا كانت تفعله على الدوام، هذا يعني، وباستخدام تعبير شائع، تمضي هناك، وإن يكن من

الأدقّ القول إنّ موت موجودة، بدل تمضي. في آن واحد، وفي كلّ مكان. لا تحتاج إلى الركض وراء الأشخاص للإمساك بهم، فهي موجودة على الدوام حيث يوجدون. والآن، بفضل أسلوب الإشعار بالمراسلة، يمكن لها البقاء مطمئنة في القاعة تحت الأرضيّة وانتظار أن يتولّى البريد القيام بالعمل، ولكن طبيعتها أشدّ قوّة، وهي تحتاج إلى الشعور بأنّها حرّة، طليقة. مثلما كانت تقول التعاليم القديمة، دجاجة الريف لا تحتاج إلى حظيرة. وبالتالي فإنّ موت تمضي، بالمعنى المجازيّ، في الريف. لن تعود إلى الوقوع في البلاهة، أو في الضعف الذي لا يغتفر بكبح أفضل ما فيها، أي قدرتها غير المحدودة على التمدّد، ولهذا لن تكرّر العمليّة المجهدة في التركيز على العتبة الأخيرة لما هو مرئيّ والبقاء عندها، دون أن تعبر إلى الجانب الآخر، مثلما فعلت في الليلة السابقة، والله يعلم بأيّ ثمن، خلال الساعات التي أمضتها في قاعة الموسيقى. ولأنّها حاضرة في كلّ الأمكنة، مثلما قلنا ألف مرّة ومرّة، فإنّها حاضرة هناك أيضا. الكلب ينام في الفناء، تحت الشمس، بانتظار عودة سيّده إلى البيت. فهو لا يدري إلى أين ذهب ولا ما الذي يفعله، وفكرة تتبّع أثره، إذا كانت قد راودته ذات مرّة، هي أمر لم يعد يفكّر فيه، لأنّ الروائح الطيّبة والكريهة كثيرة ومختلطة جدّا في مدينة عاصمة. ونحن لا نفكّر أبدا في أنّ ما تعرفه الكلاب عنّا هي أمور أخرى لا تتوفّر لدينا عنها أدنى فكرة. أمّا موت فتعرف أنّ عازف الفيولونسيل يجلس على منصّة مسرح، إلى يمين قائد الأوركسترا، في المكان المخصّص للآلة الموسيقيّة التي يعزف عليها، تراه يحرّك القوس بيده اليمنى البارعة، وترى يده اليسرى، يسرى ولكنّها لا تقلّ براعة عن الأخرى، تصعد وتنزل على امتداد الأوتار، مثلما تفعل هي بصورة نصف غائمة، بالرغم من أنّها لم تتعلّم موسيقى، ولا حتّى أدنى مبادئ الصولفاج، ما يسمّى ثلاثة بأربعة. أوقف قائد الأوركسترا

التدريب، طرق بعصاه على حافّة حاملة النوتات من أجل تقديم تعليق، وأصدر أمرا، إنّه يريد من عازفي الفيولونسيل، ومن عازفي الفيولونسيل بالتحديد، أن يجعلوا آلاتهم تُسمع في هذا المقطع دون أن يبدو أنّها تُعزف، نوع من أحجية سمعيّة يبدو على الموسيقيّين أنّهم قد حلّوها دون صعوبة، هكذا هو الفن، فيه أمور تبدو للدنيويّين مستحيلة تماما ولا تكون كذلك في نهاية المطاف. كانت موت، ولا حاجة بنا إلى قول ذلك، تملأ المسرح حتّى أعلاه، حتّى رسوم السقف الرمزيّة والنجفة الهائلة المطفأة الآن، ولكن نقطة الرؤية التي تفضّلها في هذه اللحظة هي شرفة فوق مستوى المنصّة، مقابلة، وإن يكن بصورة منحرفة قليلا، لمجموعات الآلات الوتريّة ذات النغمات الخفيضة، الفيولات، وهي الأكثر انخفاضا في أسرة الكمانات، والفيولونسيلات التي هي ضمن الآلات الخفيضة الأكثر جهرا، وتُعتبر أثخنها صوتا. إنّها جالسة هناك على مقعد صغير مغلّف بمخمل قرمزيّ، تنظر بثبات إلى الفيولونسيل الأوّل، ذاك الذي رأته ينام مستخدما بيجامة مخطّطة، ذاك الذي لديه كلب ينام في هذا الوقت تحت الشمس في فناء البيت بانتظار عودة صاحبه. ذاك الذي هو رجل، موسيقيّ، ولا شيء أكثر من موسيقيّ، مثلما هم قرابة مائة رجل وامرأة يجلسون بانتظام في نصف دائرة قبالة ساحر القبيلة الخاصّ بهم، أي قائد الأوركسترا في هذه الحالة، وسوف يتلقّون في بيوتهم ذات يوم آت، من ذات أسبوع وشهر وسنة في المستقبل، سيتلقّون الرسالة البنفسجيّة ويتركون المكان فارغا إلى أن يأتي عازف كمان آخر، أو عازف فلوت، أو ترمبون، ليجلس على الكرسيّ نفسه، وربّما مع ساحر آخر يحرّك عصاه كرقية للأصوات، الحياة هي أوركسترا في عزف متواصل، عزف متناسق أو نشاز، هي تايتنك تغرق باستمرار وتعود على الدوام إلى السطح، وحينئذ يكون أن تفكّر موت في أنّها ستظلّ بلا عمل تعمله إذا

ما لم تستطع السفينة الغارقة الصعود مغنّية ذلك النشيد الاستحضاريّ للأمواه التي تسيل على جانب السفينة، مثلما يتوجّب أن يكون قد حدث، في انزلاق بنعومة خرير آخر يسبّبه تموّج جسد الربّة، لأمفيتريت[1] في لحظة ولادتها الوحيدة، لتحويلها إلى تلك التي تجوب البحار، وهذا هو معنى الاسم الذي أطلقوه عليها. وتتساءل موت أين هي الآن أمفيتريت، ابنة نيريوس ودوريس، أين هي التي لم توجد قطّ في الواقع، وسكنت الذهن البشريّ لوقت قصير لتخلق فيه، لزمن قصير أيضا، طريقة معيّنة وخاصّة لمنح العالم مغزى، للبحث عن فهم لهذا الواقع بالذات. ولم يفهموه، فكّرت موت، ولن يفهموه مهما فعلوا، لأنّ كلّ شيء في حياتهم مؤقّت، كلّ شيء غير ثابت، كلّ شيء بلا علاج، الآلهة، البشر، ما كان قد انتهى، وما هو كائن الآن لن يكون إلى الأبد، وحتّى أنا نفسي، موت، سأنتهي عندما لا أجد من أميته، سواء بالطريقة التقليديّة أو بالمراسلة. نحن نعلم أنّها ليست المرّة الأولى التي تمرّ فيها فكرة مثل هذه عبر ما تفكّر هي فيه، أيّا كان، ولكنْ هذه أوّل مرّة يسبّب لها التفكير فيه شعورا براحة عميقة، مثل شخص أنهى عمله ويضطجع ببطء ليستريح. وفجأة صمتت الأوركسترا، ولم يعد يُسمع سوى الفيولونسيل بخفوت، هذا يسمّى صولو، إنّه صولو متواضع لن يستمرّ لأكثر من دقيقتين، إنّه كما لو أنّ القوّة التي استحضرها الساحر قد انتصبت صوتا، تتكلّم مصادفة باسم جميع أولئك المحتفظين بالصمت الآن، قائد الأوركسترا نفسه ثابت بلا حراك، ينظر إلى ذلك الموسيقيّ الذي ترك مفتوحا على كرسيّ دفترَ نوتة السويت السادسة من العمل ألف واثني عشر ري ماجور لجوهان سيباستيان باخ، السويت التي لن يعزفها هو أبدا في هذا المسرح، لأنّه مجرّد عازف فيولونسيل في أوركسترا، وإن يكن الأوّل في فريقه، وليس

---

(1) إلهة البحر عند الإغريق، وقد اختطفها الإله نبتون (بوزيدون) وتزوجها.

واحدا من عازفي الكونشرتو المشهورين الذين يجوبون العالم بأسره عازفين ومقدّمين مقابلات، متلقّين زهورا وتصفيقا وتكريما وأوسمة، وهو محظوظ جدّا بأن تخرج له مرّة أو مرّتين بضع نغمات يعزفها وحيدا، فقد يذكر مؤلّف موسيقيّ كريم هذا الجانب من فرقة الأوركسترا، حيث قليلة هي الأمور الخارجة عن الروتين التي تحدث عادة. وعندما ينتهي التدريب سيحفظ الفيولونسيل في علبته ويرجع إلى بيته في سيّارة أجرة من تلك التي فيها محفظة حقائب كبيرة، وربّما سيعمد هذه الليلة، بعد تناول العشاء، إلى فتح نوتة سويت باخ على مسند النوتات، ويتنفّس بعمق ويلامس الأوتار بالقوس كي تأتي النغمة الأولى المتولّدة لتواسيه من ابتذال العالم الذي لا سبيل إلى إصلاحه، وتجعله النغمة الثانية ينساها إذا أمكن. لقد انتهى عزف الصولو، وطغت آلات الفرقة كلّها على آخر أصداء الفيولونسيل، وعاد الساحر، بحركة آمرة من عصاه، إلى دوره كمتضرّع للأرواح الصوتيّة الرنّانة ودليل لها. أحسّت موت بالفخر لجودة عزف عازفها على الفيولونسيل. وكما لو أنّها أحد أفراد الأسرة، الأمّ، الأخت، الخطيبة، وليس الزوجة، لأنّ هذا الرجل لم يتزوّج قطّ.

خلال الأيّام الثلاثة التالية، وباستثناء الوقت اللازم للذهاب مسرعة إلى القاعة تحت الأرضيّة، وكتابة الرسائل بأقصى سرعة وإرسالها إلى البريد، تحوّلت موت إلى ما هو أكثر من ظلّ للموسيقيّ، بل إلى الهواء نفسه الذي يتنفّسه. فالظلّ يعاني عيبا خطيرا، إنّه يفقد مكانه، ولا يمكن إدراكه عندما يفتقد مصدرا مضيئا. تنقّلت موت معه في سيّارة الأجرة التي تنقله إلى البيت، ودخلت معه حين دخل، وتأمّلت برفق تدفّق ابتهاج الكلب لمجيء سيّده، واستقرّت بعد ذلك مثلما يفعل شخص مدعوّ. والأمر بسيط لمن هو بلا حاجة إلى الحركة، فسيان لديه الجلوس على الأرض أو الصعود إلى أعلى خزانة. كان تدريب الأوركسترا قد انتهى متأخّرا، قبل قليل من حلول الليل. قدّم عازف الفيولونسيل الطعام للكلب، وأعدّ بعد

ذلك عشاءه من محتويات علبتين فتحهما وسخّن ما يحتاج إلى تسخين، ثمّ وضع شرشفا على منضدة المطبخ، ووضع أدوات المائدة والفوطة، وسكب نبيذا في كأس، ودون تسرّع، وكما لو أنّه يفكّر في شيء آخر، أدخل أوّل شوكة ممتلئة بالطعام إلى فمه. ربض الكلب إلى جانبه، فقد يترك السيّد بعض البقيّة في طبقه ويمكن أن تُقدّم إليه تلك البقيّة باليد وتكون بمثابة تحلية له. تنظر موت إلى عازف الفيولونسيل. لم تكن تميّز في البدء بين أشخاص قبيحين وأشخاص وسيمين، ربّما لأنّها لم تكن تعرف من نفسها شيئا آخر غير الجمجمة التي هي عليها، ولديها ميل لا يُقاوم لإبراز جماجمنا من تحت اللحم الذي يمنحنا المظهر. وفي العمق، في العمق، والحقيقة تتطلّب قول ذلك، جميعنا نبدو لعيون الموت قبيحين بالطريقة نفسها، حتّى في الوقت الذي كنّا فيه ملكات جمال أو ملوك ما يعادل ذلك بصيغة التذكير. إنّها تقدّر أصابعه القويّة، وترى أن رؤوس أصابع يده اليسرى راحت تتصلّب شيئا فشيئا إلى أن صارت قاسية ربّما كالثآليل، فالحياة فيها هذا النوع وغيره من الجور، وانظر حالة هذه اليد اليسرى التي تتحمّل مسؤوليّة العمل الأقسى على الفيولونسيل، وتتلقّى من الجمهور تصفيقا أقلّ بكثير من الذي تتلقّاه اليد اليمنى. بعد الانتهاء من العشاء، غسل الموسيقيّ يديه، وطوى الشرشف والفوطة بعناية ووضعهما في أحد أدراج الخزانة، وقبل خروجه من المطبخ نظر في ما حوله ليرى إن كان هناك شيء ظلّ خارج مكانه. لحق به الكلب إلى قاعة الموسيقى، حيث كانت موت بانتظاره. وخلافا للافتراض الذي توقّعناه في المسرح، لم يعزف موسيقى سويت باخ. ففي أحد الأيّام، بينما هو يتبادل الحديث مع بعض زملائه في الأوركسترا ويتكلّمون بصوت خافت عن إمكانيّة تأليف صور موسيقيّة، صور حقيقيّة، وليس أنماطا، كصور صمويل غولدنبرغ وشمويل، وموسورغسكي، خطر له أن يقول إنّ

صورته، في حال وجودها في الموسيقى، لن توجد فيها أيّة نغمات من الفيولونسيل، ولكنّها ستوجد في دراسة مقتضبة لشوبان، في العمل الخامس والعشرين، رقم تسعة، صول بيمول ماجور. أراد زملاؤه معرفة السبب، فأجاب بأنّه لا يتمكّن من رؤية نفسه في أيّ شيء أكثر ممّا يراها في ما كُتب في نوتة وأنّ هذا السبب في رأيه هو أفضل الأسباب، وأنّ شوبان قد قال في ثمان وخمسين ثانية كلّ ما يمكن قوله عن شخص لا يمكن له أن يكون قد تعرّف إليه. ولعدّة أيّام، ظلّ الظرفاء منهم، وبمداعبة لطيفة، يسمّونه ثمان وخمسين ثانية، لكنّ اللقب كان طويلا جدّا بحيث لا يمكن له الاستمرار، ولأنّه لا يمكن إقامة أيّ حوار كذلك مع شخص قرّر التمهّل ثمان وخمسين ثانية قبل الردّ على ما يسألونه عنه. وانتهى الأمر بعازف الفيولونسيل إلى كسب تلك المعركة الوديّة. وكما لو أنّه أحسّ بأنّ هناك حضورا ثالثا في البيت، وأنّه عليه أن يتحدّث إليه، لأسباب لا يمكن تفسيرها، عن نفسه، وكي لا يضطرّ إلى إلقاء الخطبة الطويلة التي تحتاجها حتّى أبسط حياة كي يقول عن نفسه شيئا يستحقّ العناء، جلس عازف الفيولونسيل إلى البيانو، وبعد توقّف قصير، من أجل أن يتّخذ الحضور وضعيّة مريحة، بدأ عزف المقطوعة. لم يبدُ على الكلب الرابض عند مسند النوتة وشبه الغافي أنّه يولي اهتماما للعاصفة الصوتيّة التي انطلقت فوق رأسه، ربّما لأنّه سمعها في مرّات سابقة، وربّما لأنّها لا تضيف شيئا إلى ما يعرفه عن سيّده. أمّا موت التي كانت قد سمعت، بحكم المهنة، معزوفات موسيقيّة كثيرة أخرى، لاسيما المارش الجنائزيّ لشوبان نفسه، أو المقطع البطيء جدّا من سيمفونيّة بتهوفن الثالثة، فقد أدركت أوّل مرّة في حياتها الطويلة جدّا ما يمكن أن تكون عليه الرابطة المكتملة بين ما يقال والطريقة التي يقال بها. لم يكن يهمّها في شيء أن تكون تلك هي الصورة الموسيقيّة لعازف الفيولونسيل،

والاحتمال الأكبر هو أنّ التشابهات المزعومة، سواء الفعليّة أو المتخيّلة، إنّما اصطنعها هو في رأسه، لكن ما أثّر في موت هو ما بدا لها من أنّها سمعت في تلك الثماني والخمسين ثانية من الموسيقى أفولا إيقاعيّا وميلوديّا لكلّ حياة البشريّة على انفراد وللحيوات جميعها معا، العاديّة منها والاستثنائيّة، بفعل إيجازها المأساويّ، بفعل كثافتها اليائسة، وكذلك بسبب ذلك التوافق النهائيّ الذي كان مثل نقطة وقف معلّقة في الهواء، في الفراغ، في أيّ مكان، كما لو أنّه مازال هناك، بصورة لا مفرّ منها، شيء آخر لقوله. كان عازف الفيولونسيل قد وقع في إحدى الخطايا البشريّة التي قلّما تُغتفر، خطيئة الزهو، عندما تخيّل أنّه يرى هيئته الخاصّة والحصريّة في صورة تضمّ الجميع في نهاية المطاف، هو على كلّ حال زهو، إذا ما أمعنّا النظر فيه، إذا ما دقّقنا جيّدا، إذا نحن لم نبقَ على سطح الأشياء، يمكن أن يُفسّر بالطريقة نفسها كمظهر لنقيضه الجذريّ، أي المذلّة، لأنّني أنا أيضا، على اعتبار أنّ هذه هي صورة الجميع، يجب أن أكون مصوّرا فيها. تردّدت موت، ولم تستطع حسم أمرها بين الزهو والمذلّة، ومن أجل بلوغ التعادل، من أجل الخروج من التردّد، شغلت نفسها في مراقبة الموسيقيّ، آملة أن يكشف لها تعبير الوجه عن العيب، أو ربّما تعبير اليدين، فاليدان كتابان مفتوحان، ليس لقراءة الكفّ، المزعومة أو الحقيقيّة، بخطوطها الخاصّة بالقلب والحياة، أجل، بالحياة، ما سمعتموه صحيح أيّها السادة، بالحياة، وإنّما لأنّهما تتكلّمان عندما تنفتحان أو تنطبقان، عندما تداعبان أو تضربان، عندما تمسحان دمعة أو تخفيان بسمة، عندما تحطّان على الكتف أو تعبّران عن وداع، عندما تعملان، عندما تهدآن، عندما تنامان، عندما تستيقظان، وعندئذ، بانتهاء المراقبة، انتهت موت إلى أنّه ليس صحيحا أنّ نقيض الزهو هو المذلّة، حتّى لو أقسمت على ذلك كلّ معاجم العالم،

يا للمعاجم المسكينة. فهي تريد أن تحكم نفسها وتحكمنا نحن بكلمات موجودة، بينما هي كثيرة تلك التي مازالت ناقصة، مثل هذه التي ستكون النقيض الفعّال لكلمة زهو، وهي ليست بأيّ حال مع ذلك حال الرأس المنخفض للمذلّة، إنّها تلك الكلمة التي نراها مكتوبة بوضوح في وجه ويدي عازف الفيولونسيل، ولكنّها عاجزة عن إخبارنا باسمها.

كان اليوم التالي يوم أحد. ومن عادة عازف الفيولونسيل حين يكون الطقس حسن الوجه، مثلما هو اليوم، أن يخرج في الصباح للنزهة إلى إحدى حدائق المدينة برفقة كلبه وكتاب أو كتابين. الحيوان لا يبتعد كثيرا عن سيّده أبدا، حتّى عندما تدفعه الغريزة للتنقل من شجرة إلى شجرة متشمّما بول أبناء جنسه. فيرفع قائمته بين حين وآخر، ولكنّه يتوقّف عند هذا الحدّ في ما يتعلّق بإرضاء حاجاته الخروجيّة. فهذه الحاجات التكميليّة، من أجل تسميتها بطريقة مّا، يحلّها بانضباط في فناء البيت الذي يعيش فيه، ولهذا لا يجد عازف الفيولونسيل نفسه مضطرّا إلى اللحاق به من أجل التقاط الفضلات في كيس بلاستيكيّ باستخدام رفش صغير مصمّم خصّيصا لهذا الغرض. قد يكون ذلك مثالا باهرا على نتائج حسن التربية الكلبيّة لولا الظرف الاستثنائيّ في أنّ الأمر كان فكرة خاصّة من هذا الحيوان بالذات، لأنّه يرى أنّ موسيقيّا، عازف فيولونسيل، فنّانا يبذل جهده ليتوصّل إلى أن يعزف بجدارة السويت السادسة من العمل ألف واثني عشر ري ماجور لباخ، يرى، كما قلنا، أنّه من غير اللائق لموسيقيّ، لعازف فيولونسيل، لفنّان أن يكون قد أتى إلى الدنيا كي يرفع عن الأرض براز كلبه أو أيّ كلب آخر مازال يتصاعد منه البخار. إنّه أمر غير مناسب، قال هذا الكلب في أحد الأيّام وهو يتبادل الحديث مع سيّده، وباخ، على سبيل المثال لم يفعل ذلك قطّ. وقد ردّ عليه الموسيقيّ بأنّ الأزمنة تغيّرت كثيرا منذ ذلك الحين، ولكنّه لم يجد بدّا

من الاعتراف بأنّ باخ لم يفعل ذلك قطّ بالفعل. ومع أنّ الموسيقيّ محبّ للأدب عموما، ويكفي النظر إلى الرفوف الوسطى من مكتبته للتأكّد من ذلك، إلاّ أنّ لديه ميلا خاصًا إلى كتب الفلك والعلوم الطبيعيّة أو الطبيعة، وقد خطر له أن يحمل معه اليوم مرجعا في علم الحشرات. وهو لا يأمل الخروج بفائدة كبيرة من الكتاب، بسبب قصور في الاستعداد المسبق، ولكنّه يتسلّى بقراءة أنّ هناك في العالم قرابة مليون جنس من الحشرات وأنّها تنقسم إلى مجموعتين، المجنّحات، وهي المزوّدة بأجنحة، وعديمات الأجنحة، وهي غير المزوّدة بها، وتُصنّف في مستقيمات الأجنحة، مثل الجراد، وعديمات الأجنحة، مثل الصرصار، والمانتيديوس، مثل فرس النبي، وشبكيّات الأجنحة، مثل الجدجد المذهّب، والرَعّاشات، مثل اليعسوب، وسريعات الزوال، مثل ذبابة بنت يوم، وثلاثيّات الأجنحة، مثل يرقة الماء، ومتساويات الأجنحة، مثل الأرضة، والماصّات، مثل البرغوث، وعديمات الأجنحة، مثل القمل، والمالوفاجيات، مثل قمل الطيور، ومغايرات الأجنحة، مثل البقّة، ونصفيّات الأجنحة، مثل قملة النبات، ومزدوجات الأجنحة، مثل الذبابة، وغشائيّات الأجنحة، مثل الزنبور، وحرشفيّات الأجنحة، مثل فراشة الجمجمة، ومغمدات الأجنحة، مثل الجعل، وأخيرا هدبيّات الأجنحة، مثل سُميكة الفضّة. وحسب ما يمكن رؤيته في صور الكتاب، فإنّ فراشة الجمجمة هي جنس فراشات، اسمها اللاتيني acherontia Átropos. إنّها ليليّة، ويوجد على الجزء الظهريّ للفراشة رسم يشبه الجمجمة البشريّة، تصل إلى اثني عشر سنتيمترا عند بسط جناحيها وهي ذات تدرّجات لونيّة قاتمة، والجناحان الخلفيّان أصفران وأسودان. ويسمّونها كذلك أتروبوس، أي موت. الموسيقيّ لا يعرف، ولا يمكنه أن يتصوّر قطّ، أنّ موت تنظر مفتونة من فوق كتفه إلى صورة الفراشة الملوّنة. مفتونة ومرتبكة أيضا.

علينا أن نتذكّر أنّ موت المكلّفة بتحويل حياة الحشرات إلى لا حياة، أي قتلها بكلمة أخرى، هي موت أخرى، وليست هذه، وعلى الرغم من أنّ أسلوب العمل هو نفسه لكليهما في حالات كثيرة، إلاّ أنّ الاستثناءات كثيرة أيضا، ويكفي القول إنّ الحشرات لا تموت بالأسباب نفسها التي يموت بها البشر، كذات الرئة مثلا، أو السلّ، أو السرطان، أو تناذر نقص المناعة المكتسبة المعروف بالعامّيّة بالسيدا أو الإيدز، أو حوادث المرور، أو علل الأوعية الدمويّة والقلبيّة. وحتّى هنا يمكن لأيّ شخص أن يفهم ذلك. أمّا ما يصعب فهمه، وما يربك موت التي مازالت تنظر من فوق كتف عازف الفيولونسيل هو أنّ جمجمة بشريّة، مرسومة بدقّة استثنائيّة، قد ظهرت، لا يُعرف في أيّ مرحلة من الخلق، على الظهر الزغبيّ لإحدى الفراشات. صحيح أنّه تظهر على الجسد البشريّ أحيانا بعض الفراشات، ولكن ذلك لا يتجاوز كونه عنصرا بدائيّا، مجرّد وشم، لا يأتي مع الشخص منذ الولادة. وتفكّر موت، من المحتمل أنّ هناك زمنا كانت فيه الكائنات الحيّة جميعها الشيء نفسه، ولكنّها بعد ذلك، ومع التخصّص، راحت تنقسم إلى خمسة ممالك هي، أحاديّات الخليّة، الفَرطسيّات، الفطريّات، النباتات، الحيوانات، وضمنها، ونعني ضمن الممالك، ما لا حصر له من الرتب الفرعيّة الكبرى والرتب الفرعيّة الصغرى التي توالت على امتداد العصور، ولن يكون مستغربا وسط مثل هذه البلبلة، هذا التزاحم البيولوجيّ، أن يكون شيء من سمات بعض أنواع الكائنات قد ظهر مكرورا في أخريات. وهذا يفسّر، على سبيل المثال، ليس الحضور المثير للقلق لجمجمة بيضاء على ظهر هذه الفراشة الـ acherontia Átropos والتي، يا للفضول، فضلاً عن أنّها تعني موت، يتضمّن اسمها اسم نهر في الجحيم، وإنّما كذلك التشابه المثير لقلق لا يقلّ عن ذاك بين جذر نبتة تفّاح الجنّ والجسم البشري. لا يعرف المرء

ما الذي يمكن أن يفكّر فيه حيال عجائب الطبيعة الكثيرة، حيال غرائب مدهشة بهذه العظمة. ومع ذلك، فإنّ تفكير موت التي مازالت تنظر من فوق كتف عازف الفيولونسيل قد اتّخذ سبيلا آخر. إنّها حزينة الآن لأنّها تقارن ما سيكون عليه الأمر لو أنّها استخدمت فراشات الجمجمة كرسل موت بدل هذه الرسائل البنفسجيّة البلهاء التي بدت لها في البدء من أعظم الأفكار عبقريّة. ففراشة من هذه الفراشات لا يمكن أن تخطر لها أبدا فكرة الرجوع، لأنّها تحمل إشارة واجبها مطبوعة على ظهرها، وهي ولدت لتؤدّي هذا العمل. أضف إلى ذلك أنّ المفعول الاستعراضيّ سيكون مختلفا تماما، فبدلا من ساعي بريد يسلّم إلينا رسالة، سنرى اثني عشر سنتيمترا من فراشة تحوم فوق رؤوسنا، ملاك ظلام يعرض جناحيه الأسودين والأصفرين، وفجأة، بعد أن تلامس الفراشة الأرض وترسم الدائرة التي لن نخرج منها، تحلّق صاعدة عموديّا أمامنا وتضع جمجمتها في مواجهة جمجمتنا. ومن المؤكّد أنّنا لن نساوم على التصفيق للحركة البهلوانيّة. من هنا يظهر كيف أنّ موت التي تتحمّل مسؤوليّة الكائنات البشريّة مازال أمامها الكثير لتتعلّمه. ولكنّ الفراشات، مثلما نعرف، ليست تحت سلطتها القانونيّة. لا الفراشات ولا سائر الأجناس الحيوانيّة الأخرى، وهي بأعداد غير متناهية عمليّا. سيكون عليها أن تفاوض على اتّفاق مع زميلتها في الدائرة الحيوانيّة، تلك التي تتولّى مسؤوليّة إدارة المنتجات الطبيعيّة، والطلب منها أن تقرضها عددا من هذه الفراشات، وإن كان الاحتمال الأكبر، للأسف، مع الأخذ في الاعتبار الفارق السحيق بين اتّساع أراضي كلّ منهما والسكّان التابعين لها، هو أنّ زميلتها المعنيّة ستردّ عليها أن لا، بتكبّر غير مهذّب وحازم، كي ندرك أنّ انعدام حسّ الرفاقيّة ليس بالتعبير الفارغ، حتّى في دائرة الموت. فكّر في ذلك المليون من الحشرات الموجودة في مرجع علم الحشرات الأوّلي، وتصوّر، إذا

كان التصوّر ممكناً، عدد الأفراد الموجودين في كلّ نوع منها، وقل لي إذا لم يكن هناك على الأرض أعداد من هذه الكائنات تزيد على عدد نجوم السماء، أو في الفضاء الكونيّ، إذا ما فضّلنا منح تسمية شاعريّة على الواقع المضطرب للكون الذي نحن فيه خيط براز على وشك أن يتحلّل. إنّ موت المتخصّصة بالبشر، وهؤلاء في هذه اللحظة مجرّد أضحوكة من سبعة آلاف مليون رجل وامرأة سيّئي التوزّع على القارّات الخمس، ما هي إلا موت ثانويّة، مرؤوسة، وهي نفسها تعي مكانتها في السلّم التراتيبيّ، وكانت لديها النزاهة للاعتراف بذلك في رسالتها المرسلة إلى الصحيفة التي أوردت اسمها بادئة إيّاه بحرف كبير. ومع ذلك، وبما أنّه من السهل فتح باب الأحلام، واقتحامه سهل المنال لا تُطلب منّا عليه حتّى ضريبة استهلاكيّة، فإنّ موت، هذه التي توقّفت الآن عن النظر من فوق كتف عازف الفيولونسيل، تستمتع بتخيّل ما ستكون عليه الحال إذا ما امتلكت تحت تصرّفها كتيبة فراشات مصطفّة بانتظام فوق المنضدة، وتستدعيها واحدة فواحدة وتعطيها التعليمات، ستذهبين إلى مكان كذا، تبحثين عن الشخص فلان، وتضعين رسم الجمجمة أمامه ثمّ تعودين هنا. عندئذ سيظنّ الموسيقيّ أنّ فراشة الـ acherontia Átropos قد انطلقت محلّقة من الصفحة المفتوحة، وسيكون هذا هو آخر ما يفكّر فيه، وستكون تلك هي الصورة الأخيرة التي ستظلّ عالقة في شبكيّته، ولن تعلن موته أيّ امرأة بدينة مرتدية السواد، مثلما رأى مارسيل بروست كما يقال، ولا أيّ هيكل عظميّ أخرق ملتفّ بملاءة بيضاء، مثلما يؤكّد المحتضرون ذوو النظرة الثاقبة. فراشة، ولا شيء أكثر من خفق أجنحة فراشة كبيرة وقاتمة عليها رسم أبيض يشبه جمجمة.

نظر عازف الفيولونسيل إلى ساعته ورأى أنّ موعد الغداء قد حان. وكان الكلب قد بدأ يفكّر في ذلك منذ عشر دقائق، كان قد جلس إلى

جانب سيّده، مسندا رأسه إلى ركبته، ينتظر بصبر رجوعه إلى العالم. غير بعيد من هناك يوجد مطعم صغير يقدّم سندويتشات وصغائر غذائيّة أخرى من طبيعة مماثلة. وكان الموسيقيّ زبونا في كلّ مرّة يأتي إلى هذه الحديقة، ولا يبدّل في الطعام الذي يختاره. ساندويتشان من التونا مع المايونيز وكأس نبيذ له، وساندويتش لحم قليل الطهو للكلب. وإذا كان الطقس لطيفا، مثلما هو اليوم، فإنّهما يجلسان على الأرض تحت ظلّ شجرة، ويتبادلان الحديث بينما هما يأكلان. كان الكلب يحتفظ بالأفضل إلى النهاية، فهو يبدأ بقطع الخبز وبعد ذلك فقط يستسلم لمتعة اللحم، ماضغا دون تسرّع، متلذذا بوعي بمذاق العصارة. وكان عازف الفيولونسيل ساهيا، يأكل كمن هو آخذ في التهاوي، يفكّر في السويت ري مايور لباخ، في مطلعها التمهيديّ، وفي مقطع محدّد من ألف زوج من الشياطين اعتاد أن يتوقّف عنده في بعض الأحيان، يتردّد، يترنّح، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لموسيقيّ في الحياة. بعد الانتهاء من تناول الطعام، استلقيا أحدهما على جانب الآخر، نام عازف الفيولونسيل قليلا، وكان الكلب قد غفا قبله بدقيقة. وعندما استيقظا ورجعا إلى البيت، ذهبت موت معهما. وبينما الكلب يجوب الفناء ليفرغ أمعاءه، وضع عازف الفيولونسيل نوتة سويت باخ على مسند النوتات، فتحها على المقطع الصعب، مقطع بيانو شيطانيّ بالمطلق، وتكرّر تردّده المتمادي. أحسّت موت بحزنه، يا للمسكين، السيّئ في الأمر هو أنّه لن يجد متّسعا من الوقت للتوصّل إلى عزفه، بل أكثر من ذلك، لن يتمكّنوا من عزفه قطّ، حتّى أولئك الذين تمكّنوا من الاقتراب ظلّوا بعيدين عنه. عندئذ، انتبهت موت أوّل مرّة أنّه لا وجود في البيت كلّه لصورة امرأة، باستثناء صورة سيّدة متقدّمة في السنّ لها مظهر أمّ بالكامل ويرافقها رجل لا بدّ أن يكون الأب.

أريد أن أطلب منكَ معروفا كبيرا، قالت موت. وكعادته، لم يردّ المنجل عليها، والإشارة الوحيدة إلى أنّه قد سمع كانت رعشة أكثر قليلا من ملحوظة، تعبير عامّ عن اضطراب جسديّ، فهو لم يسمع من قبل قطّ من ذلك الفم مثل هذه الكلمات، طلب معروف، والأدهى أنّه معروف كبير. سيكون عليّ أن أظلّ خارجا لمدّة أسبوع، واصلت موت كلامها، وأريدك أن تحلّ محلّي خلال هذه الفترة في إرسال الرسائل، لن أطلب منك بكلّ تأكيد أن تكتبها، وإنّما أن ترسلها فقط، يكفي أن تصدر نوعا من الأمر الذهنيّ وتهزّ شفرتك قليلا من الداخل، كإحساس، كانفعال، أيّ حركة تبيّن أنّك حيّ، وسيكون ذلك كافيا لأن تصل الرسائل إلى وجهتها. ظلّ المنجل صامتا، غير أنّ الصمت يوازي سؤالا. المسألة أنّني لا أستطيع أن أظلّ داخلةً وخارجة من أجل متابعة بالبريد، قالت موت، ثمّ أضافت، عليّ أن أركّز تماما على حلّ مشكلة عازف الفيولونسيل، واكتشاف الطريقة المناسبة لإيصال الرسالة اللعينة إليه. كان المنجل ينتظر. وواصلت موت، فكرتي هي التالية، سأكتب دفعة واحدة الرسائل كلّها عن الأسبوع الذي سأتغيّب فيه، وهي طريقة أسمح لنفسي باستخدامها تقديرا منّي للطابع الاستثنائيّ للوضع، ومثلما قلت لك، ما عليك أنت سوى إرسالها، ولن تحتاج إلى الخروج من مكانك، ستظلّ مستندا هناك إلى الجدار، وانظر كيف أتحوّل إلى طيّبة، إنّني أطلب منك معروفا كصديقة في حين أنّني قادرة، دون تردّد، على أن أصدر إليك أمرا بكلّ بساطة، فواقع أنّني تخلّيت في الفترة الأخيرة عن استخدامك لا يعني

أنّك لم تعد في خدمتي. صمتُ المنجل المستسلم يثبت أنّه كذلك. إنّنا متّفقان إذا، أنهت موت كلامها، سأكرّس هذا اليوم لكتابة الرسائل، أقدّر أنّها ألفان وخمسمائة، تصوّر، إنّني واثقة من أنّ يدي ستنفتح مع وصولي إلى نهاية العمل، وسأترك لك الرسائل مرتّبة على المنضدة، في مجموعات منفصلة، من اليسار إلى اليمين، إيّاك أن تخطئ، من اليسار إلى اليمين، انتبه جيّدا، من هنا إلى هناك، وسيكون تعقيد ألف شيطان إذا ما تلّقى الأشخاص إشعاراتهم في غير موعدها، سواء أكانت متقدّمة أم متأخّرة. يقال إنّ الصمت علامة الرضا. وقد ظلّ المنجل صامتا، وهو بالتالي موافق. جلست موت لتعمل وهي ملتفّة بملاءتها والقلنسوة إلى الوراء لتريح الرؤية. كتبت وكتبت، مرّت الساعات وهي لا تزال تكتب، وكانت الرسائل، وكانت المغلّفات، وكان طيّها، وكان إغلاقها، ويمكن التساؤل كيف تمكّنت من إغلاقها طالما ليس لها لسان ولا مكان يخرج منه اللعاب، ولكن هذا الأمر يا سادتي الأعزّاء كان في أزمنة الحِرفيّة السعيدة، عندما كنّا لا نزال نعيش في كهوف حداثة في بدء بزوغها، أمّا المغلّفات الآن فهي من تلك التي تسمّى مغلّفات اللصق الذاتيّ، يكفي أن يُنزع عنها شريط ورقيّ وينتهي الأمر، ومن بين الوظائف الكثيرة التي يقوم بها اللسان، يمكن القول إنّ هذه الوظيفة قد صارت من التاريخ. لم تصل موت إلى النهاية بمعصم مخلوع بعد ذلك الجهد الكبير لأنّ معصمها كان مخلوعا في الواقع منذ الأزل. إنّها أساليب في الكلام تلتصق باللغة، ونواصل استخدامها بالرغم من انحرافها منذ زمن بعيد عن معناها الأصليّ، ولا ننتبه إلى بعض الحالات، كما هي حال موت هذه التي تجول هنا على هيئة هيكل عظميّ، ومعصمها جاء مخلوعا منذ الولادة، ويكفي رؤية صورة شعاعيّة له. حركة الإرسال غيّبت في الفضاء الفسيح المغلفات المئتين والثمانين الخاصّة بهذا اليوم، وبالتالي سيكون

على المنجل ابتداء من الغد أن يتولّى مهمّات إرسال البريد الذي عُهد به إليه. ودون أن تنطق بأيّ كلمة، لا وداعا، ولا إلى اللقاء، نهضت موت عن الكرسيّ، وتوجّهت إلى الباب الوحيد الموجود في القاعة، هذا الباب الضيّق الذي أشرنا إليه عدّة مرّات دون أن ندري ما حقيقة فائدته، فتحته موت، ودخلت وأعادت إغلاقه وراءها. الانفعال جعل المنجل يرتعش رعشة قويّة على امتداد نصله، من رأسه المستدقّ حتّى طرفه الأقصى. فهذا الباب، في ذاكرة المنجل، لم يُستخدم من قبل قطّ.

انقضت الساعات، كلّ الساعات اللازمة لتولد الشمس هناك في الخارج، وليس هنا في هذه القاعة البيضاء والباردة، حيث تبدو المصابيح الشاحبة، المضاءة دائما، كأنّها وُضعت لتُبعد الأشباح عن ميت يخاف من الظلام. مازال الوقت مبكّرا على إصدار المنجل الأمر الذهنيّ الذي سيجعل رزمة الرسائل الثانية تختفي من القاعة، ويمكن له بالتالي أن ينام لوقت قصير آخر. هذا ما يقوله عادة المؤرّقون الذين لا يغمضون عيونهم طوال الليل، لأنّ البائسين يعتقدون أنّهم قادرون على خداع النعاس بطلب وقت قصير آخر، وقت قصير آخر وحسب، وهم الذين لم يُمنحوا دقيقة واحدة من الراحة. وحيدا، طيلة هذه الساعات كلّها، بحث المنجل عن تفسير لتصرّف موت الفريد التي خرجت من باب أعمى كان يبدو، منذ الزمن الذي رُكّب فيه أنّه محكوم بأن يظلّ مغلقا طوال بقيّة الأزمنة. وأخيرا تخلّى عن تقليب الأمر في رأسه، فعاجلا أو آجلا سيعرف ما الذي يحدث هناك وراء الباب، إذ من المستحيل تقريبا أن تكون هناك أسرار بين موت والمنجل الطويل مثلما ليست هنالك أسرار بين منجل الحصاد واليد التي تحمله. لم يكن عليه أن ينتظر طويلا. فبعد انقضاء نصف ساعة فُتح الباب وظهرت امرأة عند العتبة. لقد سمع المنجل من قبل أنّ ذلك ممكن الحدوث، أن تتحوّل موت

إلى كائن بشريّ، ويفضّل أن يكون امرأة بسبب مسألة الجنس هذه، ولكنّه كان يظنّ أنّ ذلك مجرّد قصّة، خرافة، أسطورة مثل كثير وكثير غيرها، مثل أسطورة طائر الفينيق الذي تتجدّد ولادته من رماده بالذات مثلا، أو رجل القمر الذي يحمل حزمة حطب على كاهله لأنّه تجرّأ على العمل في يوم مقدّس، أو البارون مونشهاوزن الذي نجا من الموت في مياه مستنقعيّة بشدّ نفسه من شعره بالذات، وأنقذ كذلك الحصان الذي كان يمتطيه، ودراكولا ترنسيلفانيا الذي لا يموت مهما قتلوه، إلاّ بغرس وتد في قلبه، وحتّى في هذه الحال لا يعدم من يشكّك بموته، والحجر المشهور في أيرلندا القديمة الذي يصرخ عندما يلمسه الملك الحقيقيّ، وينبوع إبيرو الذي يطفئ المشاعل المشتعلة ويشعل المنطفئة، والنساء اللاتي يتركن دماء حيضهنّ تسقط على الحقول المزروعة من أجل زيادة خصوبة الزرع، والنمل الذي بحجم الكلاب، والكلاب التي بحجم النمل، والقيامة في اليوم الثالث لأنّها لم تكن ممكنة في اليوم الثاني. إنّكِ باهرة الجمال، علّق المنجل، وكان ذلك صحيحا، فموت تبدو جميلة جدّاً وشابّة، في حوالي السادسة أو السابعة والثلاثين مثلما قدّر الأنثروبولوجيّون، ها قد تكلّمتَ أخيرا، هتفت موت، لقد بدا لي أنّ هناك سببا جيّدا للكلام، فموت لا تتحوّل في كلّ يوم إلى نموذج من الجنس البشريّ الذي تعاديه، تعني أنّك لم تتكلّم لأنّك وجدتني جميلة، بلى، بلى، ولكنّني كنت سأتكلّم أيضا لو أنّكِ ظهرتِ لي بهيئة امرأة بدينة ترتدي السواد كالتي ظهرت للمسيو مارسيل بروست، لست بدينة ولا أرتدي السواد، وأنتَ ليس لديك أدنى فكرة عمّن كان مارسيل بروست، المناجل جميعها، سواء أكان هذا الذي يحصد البشر أم تلك العاديّة التي تحصد الحشيش، ولأسباب واضحة، لم تستطع تعلّم القراءة قطّ، ولكنّنا جميعنا كنّا مزوّدين بذاكرة جيّدة على الدوام، تلك تحتفظ بذاكرة

النسغ، وأنا بذاكرة الدم، وقد سمعت أحيانا اسم بروست وجمعت وقائع إلى بعضها، لقد كان كاتبا عظيما، أحد أعظم الكتّاب الذين وجدوا على الإطلاق، ولا بدّ أنّ ملفّه في خزائن الأرشيف القديمة، أجل، ولكن ليس في أرشيفي أنا، فلم أكن أنا موت التي قتلته، لم يكن من هذه البلاد إذا ذلك المسيو مارسيل بروست، سأل المنجل، لا، كان من بلاد أخرى، من بلاد تسمّى فرنسا، أجابته موت، وكان يبدو في نبرة كلامها شيء من الأسى، أرجو أن تجدي العزاء من غمّ أنّكِ لم تكوني من قتلته في الجمال الذي أراكِ عليه، فليبارِكْ الربّ، ساعدها المنجل، لقد اعتبرتُكِ صديقا على الدوام، ولكنّ استيائي لم يأتِ من أنّني لم أكن أنا من قتلته، ماذا إذا، لا أعرف كيف أشرح ذلك. نظر المنجل إلى موت باستغراب ورأى أنّه من الأفضل تغيير الموضوع، أين وجدتِ ما ترتدينه، سألها، هناك الكثير للاختيار وراء هذا الباب، إنّه أشبه بمخزن، أشبه بحجرة حفظ ملابس هائلة في مسرح، مئات دمى المانيكان، آلاف المشاجب، خذيني هناك، طلب منها المنجل، لا جدوى من ذلك، فأنت لا تفهم شيئا في الموضة والأزياء، للوهلة الأولى لا يبدو أنّكِ أنت أيضا تفهمين كثيرا، لا أظنّ أنّ مختلف القطع التي ترتدين تنسجم كثيرا بعضها مع بعض، بما أنّكَ لم تخرج قطّ من هذه القاعة، فإنّكَ تجهل ما الذي يُستخدم في هذه الأيّام، يمكنني أن أقول لكِ إنّ هذه البلوزة تشبه كثيرا بلوزات أخرى أتذكّرها عندما كانت لي حياة فعّالة، موضة الأزياء دوّارة، تذهب وتجيء، تعود وتذهب، لو أنّني أخبرتك بما أراه في هذه الشوارع، أصدّق ذلك دون أن تكوني مضطرّة إلى إخباري به، ألا تظنّ أنّ البلوزة تتناسب مع لون البنطال والحذاء، أظنّ أنّها متناسبة، وافق المنجل، ومع هذه القبّعة التي أضعها على رأسي، بلى، إنّها متناسبة، ومع هذه السترة الجلديّة، بلى أيضا، ومع هذه الحقيبة التي تُعلّق بالكتف، لا يمكنني أن أقول لا، ومع

هذين القرطين في أذني، إنّني أستسلم، إنّ لي جمالا لا يُقاوَم، اعترف بذلك، هذا يعتمد على نوعيّة الرجل الذي تريدين إغواءه، أنتَ ترى على أيّ حال أنّني جميلة حقّا، لقد كنتُ أنا من قال إنّكِ جميلة أوّلا، بما أنّ الأمر كذلك، وداعا، سأرجع يوم الأحد، أو الاثنين على أبعد تقدير، لا تنسَ إرسال البريد كلّ يوم، ولا أظنّ أنّه سيكون عملا كثيرا لمن يقضي الوقت مستندا إلى الجدار، أتحملين معك الرسالة، سألها المنجل الذي قرّر عدم الإتيان بردّ فعل على سخريتها، إنّني أحملها معي، هنا في الداخل، ردّت موت وهي تلمس الحقيبة بأطراف أصابعها الرفيعة والمعتنى بها جيّدا بحيث يرغب أيّ شخص منّا في تقبيلها.

ظهرت موت تحت ضوء النهار في شارع ضيّق، بين جدران من الجانبين، وخارج المدينة تقريبا. لا يُرى هناك باب أو بوّابة يمكن أن تكون قد خرجت منها، ولا تُلحظ كذلك أيّة إشارة تتيح لنا تصوّر الطريق الذي أوصلها من القاعة تحت الأرضيّة إلى هنا. الشمس لا تضايق محاجر العيون الفارغة، ولهذا لا تحتاج الجماجم المستخرجة في أعمال التنقيب الأركيولوجيّة إلى إطباق جفونها عندما يصفع الضوء المفاجئ وجوهها مباشرة ويعلن الأنثروبولوجيّ السعيد أنّ لقيته العظمية لها المظهر الكامل لإنسان نياندرتال البدائيّ، مع أنّ فحصا تاليا سيثبت أنّها في نهاية المطاف عظام إنسان عاقل عاديّ. وموت التي تحوّلت إلى امرأة، تُخرج من الحقيبة نظّارة قاتمة تحمي بها عينيها البشريّتين الآن من خطر رمدٍ أكثر من محتمل لمن مازال عليها أن تعتاد على انعكاسات ضوء صباح صيفيّ. نزلت موت الشارع إلى حيث ينتهي الجداران وتنتصب أولى العمارات. وابتداء من هناك تجد نفسها في ميدان معروف، فلا وجود لبيت واحد من هذه البيوت وكلّ تلك التي تمتدّ أمام عينيها حتّى حدود المدينة والبلاد إلاّ وكانت فيه ذات مرّة، بل إنّ عليها أن تدخل ورشة البناء

تلك بعد أسبوعين لتدفع سقالة بنّاء ساهٍ لن ينتبه أين سيضع قدمه. ومن عادتنا أن نقول في مثل هذه الحالات هكذا هي الحياة، بينما سيكون أكثر دقّة أن نقول هكذا هو الموت. وهذه الفتاة ذات النظّارة التي تصعد الآن إلى سيّارة أجرة لن نطلق عليها نحن ذلك الاسم، ومن المحتمل أن نفكّر أنّها الحياة نفسها مجسّدة وقد نركض لاهثين وراءها، ولكنّنا إذا أمرنا سائق سيّارة أجرة أخرى، إن وجدناها، اتّبع تلك السيّارة، فسيكون ذلك دون جدوى لأنّ سيّارة الأجرة التي هي فيها قد انعطفت عند الناصية ولا توجد هنا سيّارة أخرى يمكننا التوسّل إلى سائقها، أرجوك أن تلحق بسيّارة الأجرة تلك. والآن يمكن أن يكتسب مغزى كاملا أن نقول هكذا هي الحياة ونهزّ كتفينا باستسلام. أيّا يكن الأمر، وربّما يكون في ذلك عزاء لنا، الرسالة التي تحملها موت في حقيبتها عليها اسم مُرسل إليه آخر وعنوان آخر، أمّا دورنا في السقوط عن سقالة فلم يحن بعد. وخلافا لما يمكن التنبّؤ به عقلانيّا، لم تقدّم موت لسائق سيّارة الأجرة عنوان عازف الفيولونسيل، وإنّما عنوان المسرح الذي يعزف فيه. صحيح أنّها قرّرت الرهان على المضمون بعد تعرّضها لإهانات متتالية، ولكنّها لم تبدأ التحوّل إلى امرأة لمجرّد المصادفة، ولا لذلك السبب المتعلّق بالجنس كما يمكن لنفسٍ نحويّة أن تظنّ أيضا، باعتبار أنّ كلتيهما في هذه الحالة، المرأة وموتٌ، تنتميان إلى الجنس المؤنّث. وعلى الرغم من انعدام تجربته المطلق بشؤون العالم الخارجيّ، لاسيما في فصل العواطف والشهوات والإغواءات، إلاّ أنّ المنجل أصاب عين الحقيقة عندما تساءل، في إحدى لحظات حديثه مع موت، عن نوعيّة الرجل الذي تسعى لإغوائه. لقد كانت هذه هي كلمة السرّ، الإغواء. كان يمكن لموت أن تذهب مباشرة إلى بيت عازف الفيولونسيل، وأن تقرع الجرس، وعندما يفتح لها الباب، ترميه بأوّل شِصّ ابتسامة عذبة بعد أن تنزع النظّارة السوداء وتُعرّف

بنفسها، على سبيل المثال، بأنّها بائعة موسوعات، وهذه ذريعة واسعة التداول، ولكنّها مضمونة النتيجة على الدوام تقريبا، وعندئذ يحدث أحد أمرين، فإمّا أن يدعوها للدخول من أجل مناقشة الموضوع بهدوء مع فنجان قهوة، وإمّا أن يخبرها على الفور بأنّه غير مهتمّ بالأمر ويتحرّك لإغلاق الباب في الوقت نفسه الذي يطلب منها برقّة أن تعذره لرفضه، لو أنّها موسوعة موسيقيّة على الأقل، سيحاول التبرير بابتسامة خجولة. إنّ تسليم الرسالة في كلّ الأحوال سيكون سهلا، بل يمكن القول إنّه سهل بصورة مهينة، وهذا هو ما لا يروق لموت. الرجل لا يعرفها، أمّا هي فتعرف الرجل، فقد أمضيا ليلة في الحجرة نفسها، وقد سمعته وهو يعزف، وهو أمر، شئنا أو أبينا، يولّد روابط، يُقرّ انسجاما، وهذه أمور ترسم بداية علاقة، والقول له، ستموت، لديك ثمانية أيّام كي تبيع الفيولونسيل وتجد سيّدا آخر للكلب، سيكون فظاظة غير مناسبة من المرأة حسنة المظهر التي تحوّلت إليها. لقد كانت لديها خطّة أخرى مختلفة.

في لوحة الإعلان عند مدخل المسرح يُعلن للجمهور المحترم عن تقديم حفلتين موسيقيّتين هذا الأسبوع ستحييهما الفرقة السيمفونيّة الوطنيّة، واحدة يوم الخميس، أي بعد غد، وأخرى يوم السبت. من الطبيعيّ أن فضول من يتابع هذه القصّة باهتمام موسوس وهاجسيّ بحثا عن تناقضات، وزلّات، وسهوات، وانعدام منطق، يطالب بأن نفسّر له بأيّة نقود ستدفع موت قيمة تذكرتي حضور الحفلتين إذا كانت قد خرجت قبل ساعتين فقط من قاعة تحت أرضيّة لم يُشر إلى أنّ فيها صرّافين آليّين ولا مصارف مفتوحة الأبواب. وبما أنّنا في ميدان التساؤلات، فإنّه يريد أن نخبره إذا ما كان سائقو سيّارات الأجرة قد تحوّلوا عن تقاضي أجورهم المستحقّة من النساء اللواتي يضعن نظّارة شمسيّة ويتمتّعن بابتسامة لطيفة وجسد حسن القوام. حسن، قبل أن يبدأ سوء التفاهم

بترسيخ جذوره، نسارع إلى التوضيح بأنّ موت لم تدفع المبلغ الذي أشار إليه عدّاد سيّارة الأجرة وحسب، بل لم يفتها أن تضيف إليه إكراميّة أيضا. أمّا مصدر النقود، إذا كان هذا الأمر لا يزال يهمّ القارئ، فيكفي أن نقول إنّ النقود خرجت من الحقيبة نفسها التي خرجت منها النظّارة الشمسيّة، أي من الحقيبة التي تحملها معلّقة إلى كتفها، لأنّه لا يمكن لشيء منذ البدء، وليكن هذا معلوما، أن يحول دون إمكانيّة خروج شيء من مكان كان قد خرج منه شيء آخر. وما يمكن أن يكون قد حدث بالفعل هو أنّ النقود التي دفعت بها موت أجرة التاكسي وستدفع بها ثمن بطاقتي دخول حفلتي الكونشرتو، إضافة إلى الفندق الذي ستنزل فيه خلال الأيّام التالية، قد تكون نقودا خارج التداول. ولن تكون هذه هي المرّة الأولى التي ننام فيها على عملة ونستيقظ على عملة أخرى. ولا بدّ من الافتراض مع ذلك بأنّ النقود من نوعيّة جيّدة، ومغطّاة حسب القوانين السارية المفعول، اللهمّ إلاّ إذا كان سائق سيّارة الأجرة، ودون أن ينتبه إلى أنّه قد خُدع، ونحن نعرف كيف هي مواهب موت في الخداع، تلقّى من المرأة ذات النظّارة الشمسيّة ورقة بنكوت ليست من هذا العالم، أو ليست من هذا الزمان على الأقلّ، تحمل صورة رئيس جمهوريّة بدلا من الصورة الموقّرة لجلالته وأسرته السعيدة. كان بيع تذاكر المسرح قد بدأ الآن بالذات، دخلت موت، ابتسمت، وجّهت تحيّة الصباح وطلبت تذكرتي شرفة من الدرجة الأولى، واحدة ليوم الخميس وأخرى ليوم السبت. وأصرّت على موظّفة شبّاك التذاكر أنّها تريد الشرفة نفسها للحفلتين وأن تكون الشرفة، وهذه مسألة أساسيّة، إلى الجانب الأيمن من منصّة المسرح وأقرب ما يمكن إليها. أدخلت موت يدها في حقيبتها وأخرجت منها محفظة النقود وقدّمت ما بدا لها أنّه ضروريّ. أعادت لها موظّفة شبّاك التذاكر البقيّة، تفضّلي، وآمل أن تروقك حفلاتنا

الموسيقيّة، أعتقد أنّها المرّة الأولى التي تأتين فيها، فأنا لا أتذكّر على الأقلّ أنّني رأيتك من قبل، مع أنّني أتمتّع بذاكرة جيّدة لحفظ ملامح الوجوه، ولا يفلت منّي أيّ وجه، صحيح أيضا أنّ النظّارات تبدّل ملامح وجوه الأشخاص كثيرا، وخاصّة إذا كانت سوداء مثل نظّارتك. نزعت موت النظّارة وسألتها، وما رأيك الآن، إنّني متأكّدة الآن من أنّي لم أركِ من قبل، ربّما لأنّ الشخصيّة التي أمامك، هذه التي أنا عليها الآن، لم تحتج قطّ إلى شراء بطاقات دخول إلى كونشرتو، فمنذ أيّام قليلة سعدت بحضور تمرين للفرقة الموسيقيّة ولم يلحظ أحد وجودي، لستُ أفهمك، ذكّريني بأن أوضّح لك الأمر ذات يوم، متى، ذات يوم، اليوم الذي لا يمكن له إلاّ أن يأتي، لا تخيفيني. ابتسمت موت ابتسامة رائعة وسألت، فلنتكلم بصراحة، أتظنّين أنّ لي مظهرا يُخيف أحدا، لا، ماذا تقولين، لم يكن هذا ما عنيتُه، افعلي مثلي إذا، ابتسمي وفكري في أمور مبهجة، موسم الحفلات الموسيقيّة سيستمرّ لشهر، هذا خبر جيّد، وربّما سنلتقي ثانية في الأسبوع القادم، إنّني هنا دائما، فأنا أشبه بقطعة أثاث في المسرح، اطمئنّي، سأجدك حتّى لو لم تكوني هنا، سأنتظرك إذا، لن أتخلّف عن موعدي. توقّفت موت لحظة ثمّ سألت، وبالمناسبة، هل تلقّيت أنت أو أحد من أسرتك الرسالة البنفسجيّة، أتعنين رسالة الموت، أجل، رسالة الموت، لا والحمد لله، ولكن الأيّام الثمانية الممنوحة لجارنا ستنتهي غدا، والمسكين في حالة محزنة من اليأس، ماذا يمكننا أن نفعل له، هكذا هي الحياة، معك حقّ، تنهّدت الموظّفة، هكذا هي الحياة. ولحسن الحظّ أنّ أشخاصا آخرين جاؤوا لشراء بطاقات الدخول، وإلاّ ما كان ليُعرف إلى أين ستنتهي هذه المحادثة.

المسألة الآن هي في العثور على فندق لا يكون بعيدا جدّا عن بيت الموسيقيّ. نزلت موت ماشية باتّجاه مركز المدينة، دخلت إلى وكالة رحلات، وطلبت أن يسمحوا لها برؤية خريطة المدينة، حدّدت بسرعة

موقع المسرح، ومن هناك سافرت إصبعها السبّابة على الورق نحو الحيّ الذي يعيش فيه عازف الفيولونسيل. كانت المنطقة بعيدة إلى حدّ مّا، غير أنّ هناك فنادق في محيطها. اقترح عليها الموظّف أحد تلك الفنادق، ليس فاخرا، ولكنّه مريح. وقد تولّى هو نفسه الحجز لها هاتفيّا، وعندما سألته موت بكم هي مدينة له مقابل العمل أجابها مبتسما، ضعيه في حسابي. وهذا معهود، فالأشخاص يقولون أشياء بلهاء، يلقون الكلام على عواهنه ولا يخطر لهم التفكير في النتائج، ضعيه في حسابي، قال الرجل، وربّما كان يتصوّر، بغرور الرجال الذي لا سبيل إلى إصلاحه، لقاءً لطيفا معها في مستقبل قريب. لقد اقترف بذلك مجازفة يمكن لها أن تدفع موت إلى الردّ عليه بنظرة باردة، كن حذرا، فأنت لا تعرف مع من تتكلّم، ولكنّها اكتفت بالابتسام بغموض، وشكرته وخرجت دون أن تترك رقم هاتف أو بطاقة تعريف. وظلّت في الجوّ رائحة عطر هو مزيج من الورد والأقحوان، الواقع أنّ هذا ما كانت تبدو عليه، نصف ورد ونصف أقحوان، تمتم الموظّف بينما هو يطوي خريطة المدينة ببطء. وفي الشارع، كانت موت توقف سيّارة أجرة وتقدّم للسائق عنوان الفندق. لم تكن تشعر بالرضا عن نفسها. فقد أخافت سيّدة شبّاك التذاكر اللطيفة، وتسلّت على حسابها، وهذا استغلال لا يغتفر. فلدى الناس ما يكفي من الخوف من الموت ولا يحتاجون معه لأن تظهر هي لهم باسمة وتقول، مرحبا، إنّني أنا، وهذه هي النسخة الشائعة، ويمكننا القول الشائعة، للتذكير اللاتينيّ البغيض، homo, qui pulvis es et in pulverem revérteos[1]، وبعد ذلك، كما لو أنّ هذا قليل، كانت على وشك أن توجّه إلى شخص لطيف قدّم لها معروفا ذلك السؤال الأبله الذي من عادة الطبقات الاجتماعيّة المدعوّة راقية أن تستفزّ به الطبقات التي تحت بوقاحة متعجرفة، أنت

(1) باللاتينية: أيها الإنسان، من تراب أنت وإلى التراب ستعود.

لا تعرف مع من تتكلّم. لا، موت ليست سعيدة بسلوكها. إنّها موقنة من أنّه ما سيخطر لها أبدا أن تتصرّف بهذه الطريقة لو أنّها بهيئة الهيكل العظميّ، وفكّرت، ربّما لأنّني في هيئة بشريّة، ولا بدّ أنّ هذه الأمور تلتصق. نظرت مصادفة من نافذة سيّارة الأجرة وتعرّفت إلى الشارع الذي تمرّ فيه، فهنا يعيش عازف الفيولونسيل، هنا هو الطابق الأرضيّ الذي يسكن فيه. بدا لموت أنّها تشعر بصدمة مفاجئة في الحزمة الشمسيّة، رعشة عصبيّة فجائيّة، يمكن لها أن تكون رعشة الصيّاد حين يلمح الطريدة، عندما تصير ضمن خطّ تصويب بندقيّته، يمكن أن يكون نوعا من الخوف الغامض، كما لو أنّها بدأت تخاف من نفسها بالذات. توقّفت سيّارة الأجرة، هذا هو الفندق، قال السائق. دفعت موت الأجر من البقيّة التي أعادتها إليها موظّفة شبّاك تذاكر المسرح، احتفظ لنفسك بالباقي، قالت ذلك دون أن تلحظ أنّ الباقي يزيد على المبلغ الذي حدّده عدّاد سيّارة الأجرة. إنها معذورة، فهي لم تبدأ سوى اليوم باستخدام خدمات النقل العامّة هذه.

عندما اقتربت من منضدة الاستقبال تذكّرت أنّ موظّف وكالة السفر لم يسألها عن اسمها، بل اكتفى بإخبار الفندق، سأرسل لكم زبونة، أجل، زبونة، الآن بالذات، وها هي الآن هناك، هذه الزبونة التي لا يمكنها أن تقول إنّ اسمها موت، وأنّه يبدأ بحرف صغير، أرجوكم، إنّها لا تعرف أيّ اسم تقدّم، آه، هناك الحقيبة، الحقيبة التي تحملها معلّقة على كتفها، الحقيبة التي خرجت منها النظّارة الشمسيّة والنقود، الحقيبة التي ستخرج منها وثيقة هويّة شخصيّة، مساء الخير، بماذا يمكنني أن أخدمك، سألها موظّف الاستقبال، لقد اتّصلوا من وكالة سفر قبل ربع ساعة ليحجزوا غرفة باسمي، أجل يا سيّدتي، أنا من تلقيّت المكالمة، ها أنذا هنا إذا، يمكنك أن تملئي هذه البطاقة من فضلك. إنّ موت تعرف

الآن الاسم الذي ستستخدمه، إنّه في وثيقة إثبات الشخصيّة المفتوحة فوق منضدة الكونتوار، وبفضل النظّارة الشمسيّة يمكنها أن تستنسخ المعلومات خفية دون أن ينتبه موظّف الاستقبال إلى ذلك، استنسخت اسما، وتاريخ ميلاد، وجنسا، وحالة مدنيّة، ومهنة، وقالت، إليكَ البطاقة، كم يوما ستمكثين في فندقنا، أنوي المغادرة يوم الاثنين القادم، اسمحي لي أن أستنسخ صورة لبطاقة ائتمانك، لم أجلبها معي، ولكنّني أستطيع أن أدفع مقدّما إذا كنت ترغب بذلك، آه، لا، لا حاجة إلى ذلك، قال موظّف الاستقبال. تناول وثيقة إثبات الشخصيّة ليدقّق المعلومات المنقولة إلى البطاقة، وبملامح استغراب في وجهه رفع بصره. فالصورة التي في الوثيقة لامرأة أكبر سنا منها. نزعت موت النظّارة الشمسيّة وابتسمت. وبارتباك، نظر موظّف الاستقبال مجدّدا إلى الوثيقة، وكانت الصورة والمرأة التي أمامه متطابقتين الآن مثل قطرتي ماء. هل لديك أمتعة، سألها بينما هو يمرّ بيده على جبهته الرطبة، لا، لقد جئت إلى المدينة من أجل المشتريات، أجابته موت.

ظلّت في الغرفة طيلة اليوم، تناولت الغداء والعشاء في الفندق. شاهدت التلفزيون حتّى وقت متأخّر. وبعد ذلك اندسّت في الفراش وأطفأت النور. لم تنم. فموت لا تنام أبدا.



بفستانها الجديد الذي اشترته بالأمس من أحد متاجر مركز المدينة، حضرت موت الكونشرتو. إنّها تجلس، وحيدة، في شرفة الدرجة الأولى، وتنظر إلى عازف الفيولونسيل كما في المرّة الأولى. وأمعن هو النظر إلى تلك المرأة قبل أن تخفت أنوار الصالة، بينما كان عازفو الأوركسترا ينتظرون دخول المايسترو. لم يكن الموسيقيّ الوحيد الذي انتبه إلى وجودها. في المقام الأوّل لأنّها الوحيدة التي تشغل الشرفة، ومع أنّه لم يكن بالأمر الغريب، إلاّ أنّه لم يكن كثير الحدوث أيضا. وفي المقام الثاني لأنّها كانت جميلة، ربّما ليست الأجمل بين الحضور الأنثويّ، ولكنّها جميلة بصورة غير محدّدة، بصورة خاصّة، لا يمكن شرحها بالكلمات، مثل بيت شعر يفلت معناه من المترجم، إذا كان ثمّة وجود لهذا الشيء في بيت شعر. وأخيرا لأنّ صورتها المعزولة، هناك في الشرفة، محاطة بالفراغ والغياب من كلّ الجهات، كما لو أنّها تسكن العدم، تبدو كأنّها تعبير عن العزلة المطلقة. وموت التي ابتسمت بكثرة وبصورة خطرة منذ خروجها من قبوها الجليديّ، لم تبتسم الآن. ومن بين الجمهور، راقبها الرجال بفضول متردّد، والنساء بغيرة قلقة. أمّا هي، مثل نسر ينقضّ بسرعة على حَمَل، فلم تكن ترى أحدا سوى عازف الفيولونسيل. ومع وجود فارق مع ذلك. ففي نظرة هذا النسر الذي يصل دوما إلى طرائده يوجد شيء أشبه بحجاب شفقة رقيق، فالنسور، ونحن نعلم ذلك، مضطرّة إلى القتل، هذا ما تفرضه طبيعتها، أمّا هذه، هنا، في هذه اللحظة، فربّما تفضّل، أمام الحَمَل غير المبالي، أن تفتح بسرعة جناحيها القويّين

وتحلّق من جديد نحو الأعالي، نحو هواء الفضاء البارد، نحو قطعان السحب التي لا يمكن بلوغها. صمتت الفرقة الموسيقيّة. وبدأ عازف الفيولونسيل عزفا منفردا كما لو أنّه ولد من أجل ذلك وحسب. إنّه لا يعرف أنّ المرأة التي في الشرفة تخبّئ في حقيبتها اليدويّة المدشّنة للتوّ رسالة بنفسجيّة موجّهة إليه، لا يعرف ذلك، لا يمكنه معرفته، ولكنّه يعزف مع ذلك كما لو أنّه يودّع العالم، كما لو أنّه يقول أخيرا كلّ ما صمت عنه: الأحلام المقطوعة، التلهّفات المحبطة، وباختصار، الحياة. وكان الموسيقيّون الآخرون ينظرون إليه بذهول، والمايسترو بمفاجأة واحترام، والجمهور يتنهّد، يرتعش، وحجاب الشفقة الخفيف الذي يشوّش نظرة النسر الحادّة تحوّل الآن إلى دمعة. انتهى العزف المنفرد، وتقدّمت الأوركسترا، مثل بحر كبير وبطيء، وأغرقت برفق نشيد الفيولونسيل، امتصّته، وسعته، كما لو أنّها ترغب في اقتياده إلى مكان تتسامى فيه الموسيقى إلى صمت، إلى ظلّ رعشة تجوب الجلد مثل آخر صدى لا يدركه السمع من طبلة نفرت عنها فراشة. وفي هذه اللحظة عَبَرَ طيران فراشة الـ acherontia Átropos الحريري الخبيث ذاكرة موت بسرعة، ولكنّها أبعدته بإيماءة من يدها تشبه كثيرا حركتها التي تجعل الرسائل تختفي من فوق المنضدة في القاعة تحت الأرضيّة، كإيماءة شكر لعازف الفيولونسيل الذي يدير رأسه الآن باتّجاهها شاقّا طريقا للعينين عبر ظلمة صالة المسرح الدافئة. كرّرت موت الحركة وكانت كما لو أصابعها المرهفة قد ذهبت لتحطّ على اليد التي تحرّك القوس. وعلى الرغم من أن القلب فعل كلّ ما يستطيعه كي يحدث ذلك، إلاّ أنّ عازف الفيولونسيل لم يخطئ النغمة. لن تعود الأصابع للمسه، فقد أدركت موت أنّه لا يتوجب أبدا إلهاء الفنّانٍ عن فنّه. عندما انتهى الكونشرتو انفجر الجمهور في الهتاف، وحين أضيئت الأنوار وأمر المايسترو الأوركسترا

بالنهوض، وبعد أن أومأ لعازف الفيولونسيل أن ينهض، هو وحده، ليتلقّى جزءا من التصفيق الذي يستحقّه بجدارة، قاطعت موت الواقفة في الشرفة والباسمة، أخيرا، يديها على صدرها بصمت، نظرت، ولا شيء أكثر من ذلك، إلى الآخرين الذين يضربون أكفهم، الآخرين الذين يطلقون الصرخات، الآخرين الذين يمجّدون المايسترو عشر مرّات، بينما هي تنظر وحسب. بعد ذلك، وبما يشبه الاستياء، بدأ الجمهور بالخروج في حين كانت الفرقة الموسيقيّة تنسحب. وعندما التفت عازف الفيولونسيل إلى الشرفة، لم تكن هي، المرأة، موجودة هناك. فتمتم، هكذا هي الحياة.

إنّه مخطئ، الحياة ليست هكذا على الدوام، فقد كانت المرأة تنتظره عند بوّابة خروج الفنّانين. كان بعض الموسيقيّين الآخذين في الخروج ينظرون إليها متعمّدين، ولكنّهم يلاحظون، دون أن يدروا كيف، أنّها محميّة بسياج غير مرئيّ، بدارة توتّر عالٍ يمكن لهم أن يحترقوا فيها مثل فراشات ليليّة صغيرة. وعندئذ ظهر عازف الفيولونسيل. وحين رآها توقّف، بل حاول التقهقر، كما لو أنّ المرأة، برؤيتها عن قرب، قد صارت شيئا آخر غير امرأة، شيئا من جوّ آخر، من عالم آخر، من الجانب الخفيّ للقمر. أخفض رأسه، حاول الانضمام إلى زملائه الخارجين، الهرب، غير أنّ علبة الفيولونسيل المعلّقة بإحدى كتفيه تجعل مناورة تفاديها صعبة. كانت المرأة أمامه، وقالت له، لا تهرب منّي، لقد جئت لأشكرك على الانفعال الممتع بسماعك، شكرا جزيلا، ولكنّني مجرّد موسيقيّ في الأوركسترا، ولا شيء أكثر، لست عازفا مشهورا من أولئك الذين ينتظر المعجبون ساعة للمسهم أو طلب توقيعهم، إذا كانت هذه هي المسألة، فأنا أيضا يمكنني طلب توقيعك، لم أحضر معي دفتر الأوتوغراف، ولكن لدي هنا مغلّف ينفع تماما للتوقيع، لم تفهميني، فما أردت قوله، على

الرغم من ابتهاجي باهتمامك بي، هو اعتقادي بأنّني لا أستحقّ هذا الاهتمام، يبدو أنّ الجمهور لا يوافقك الرأي، إنّها أيّام، بالضبط، إنّها أيّام، وشاءت المصادفة أن يكون هذا اليوم هو الذي أظهر لكَ فيه، لا أريد أن تري فيَّ شخصا جاحدا، غير مهذّب، ولكنّ الاحتمال الأكبر أنّ ما تبقّى من انفعال يكون قد فارقك في الغد، وهكذا ستختفين غدا مثلما جئت إليّ اليوم، أنت لا تعرفني، فأنا ثابتة في نواياي، وما هي نواياك، إنّها واحدة فقط، التعرّف إليك، ها أنتِ قد عرفتني، ويمكننا الآن أن نقول وداعا، هل أنت خائف منّي، إنّكِ تربكينني وحسب، شيء ضئيل هو الشعور بالارتباك وحده في حضوري، الارتباك لا يعني بالضرورة الخوف، فقد يكون مجرّد تنبيه بتوخّي الحذر، الحذر لا يفيد إلاّ في تأخير ما لا يمكن تجنّبه، وعاجلا أو آجلا سينتهي إلى الاستسلام، آمل ألاّ تكون هذه هي حالتي، وأنا واثقة من أنّها ستكون. نقل الموسيقيّ علبة الفيولونسيل من كتف إلى الآخر، هل أنتَ متعب، سألته موت، الفيولونسيل ليس ثقيلا جدا، السيّئ هو العلبة، وخاصة هذه العلبة، فهي من النوع القديم، إنّني بحاجة إلى التكلّم معكَ، لا أعرف كيف يمكننا ذلك، فالوقت منتصف الليل تقريبا، والجميع قد انصرفوا، مازال هناك بعض الناس، هؤلاء ينتظرون خروج المايسترو، يمكننا تبادل الحديث في أحد البارات، كيف ترين دخولي حاملا الفيولونسيل إلى مكان مزدحم بالناس، وأضاف الموسيقيّ مبتسما، وتصوّري أن يذهب زملائي جميعهم وهم يحملون آلاتهم الموسيقيّة، يمكن لنا عندئذ تقديم كونشرتو آخر، يمكن لنا، سألها الموسيقيّ مذهولا لصيغة الجمع، أجل، فقد كان هناك زمن عزفتُ فيه الكمان، بل توجد صور لي أظهر فيها وأنا أعزف، يبدو أنّكِ مصمّمة على مفاجأتي في كلّ كلمة تقولينها، بين يديك معرفةُ إلى أي حدّ مازلتُ قادرة على مفاجأتك، ألا يمكنك

أن تكوني أكثر وضوحا، إنّك مخطئ، فأنا لم أعنِ ما فكّرتَ أنت فيه، وما الذي فكّرتُ أنا فيه إذا كان بإمكاني أن أعرف، فكّرتَ في الفراش، وفيَّ أنا على ذلك الفراش، اعذريني، بل أنا المذنبة، فلو أنني كنتُ رجلا لسمعتُ الكلمات التي قلتها لك، ولكنتُ فكّرت بالتأكيد في الأمر نفسه، فالالتباس له ثمن يُدفع، أشكركِ على صراحتك. خطت المرأة بضع خطوات وقالت، هلمّ بنا، إلى أين، سألها عازف الفيولونسيل، أنا إلى الفندق الذي أنزل فيه، وأنتَ إلى بيتك على ما أعتقد، ألن أعود لرؤيتكِ، ها أنتَذا قد تجاوزتَ الارتباك، لم أكن مرتبكا قطّ، لا تكذب، موافق، لقد كنتُ مرتبكا، ولكنّني لم أعد كذلك. ظهر على وجه موت نوع من الابتسامة ليس فيها أيّ ظلّ من السعادة، مع أنّه بالضبط الوقت الذي تتوفّر فيه أكبر الأسباب لأن تكون كذلك، قالت، إنّني أجازف، ولهذا أعيد عليكِ السؤال، أيّ سؤال، إذا كنتُ لن أعود لرؤيتكِ، سوف أحضر حفلة يوم السبت، وسأكون في الشرفة نفسها، برنامج يوم السبت مختلف، ولن أعزف فيه منفردا، أعرف ذلك، يبدو أنّكِ حسبتِ حسابا لكلّ شيء، أجل، وماذا ستكون نهاية هذا كلّه، مازلنا حتّى الآن في البداية. كانت هناك سيّارة أجرة غير مشغولة تقترب. أشارت لها المرأة لتتوقّف والتفتت إلى عازف الفيولونسيل، سأوصلك إلى بيتك، لا، سأوصلك أنا إلى الفندق وأواصل بعد ذلك إلى بيتي، بل سيكون ما قلته أنا، وإلاّ عليكَ أن تذهب في سيّارة أخرى، أنتِ معتادة على تنفيذ مشيئتك، أجل، دوما، لا بدّ أن تكوني قد أخفقتِ ذات مرّة، الربّ هو الربّ ولم يفعل شيئا آخر تقريبا، يمكنني أن أُثبتَ لكَ الآن بالذات أنّني لا أخطئ، إنّني مستعدّ لتقبّل هذا الإثبات، لا تكن أحمق، قالت موت فجأة، وكان في صوتها تهديد دفين، قاتم، رهيب. وُضع الفيولونسيل في حقيبة الأمتعة. ولم يتفوّه الاثنان خلال الطريق بكلمة واحدة. وعندما توقّفت سيّارة الأجرة

عند وجهتها الأولى، قال عازف الفيولونسيل قبل أن يخرج، لا أتوصّل إلى فهم ما يحدث بيننا، أظنّ أنّه من الأفضل ألاّ نعود لرؤية أحدنا الآخر، لا يمكن لأحد أن يمنع ذلك، بمن في ذلك أنتِ التي تفرضين مشيئتك على الدوام، سألها الموسيقيّ باذلا جهده ليكون ساخرا، بمن في ذلك أنا، أجابته موت، هذا يعني أنّك ستخطئين، هذا يعني أنّني لن أخطئ. كان السائق قد خرج ليفتح حقيبة الأمتعة وكان ينتظر أن يؤخذ الفيولونسيل. لم يتبادل الرجل والمرأة الوداع، لم يقولا إلى اللقاء يوم السبت، لم يلمس أحدهما الآخر، كان ذلك أشبه بقطيعة عاطفيّة، من النوع الدراماتيكيّ، الفظّ، كما لو أنّهما قد أقسما ويداهما على الدم والماء أنّهما لن يعودا إلى اللقاء أبدا. ابتعد الموسيقيّ حاملا الفيولونسيل على كتفه ودخل إلى العمارة. لم يلتفت إلى الوراء، حتّى عندما توقّف لبرهة عند عتبة الباب. وكانت المرأة تنظر إليه وهي تشدّ بقوّة على الحقيبة اليدويّة. وانطلقت سيّارة الأجرة.

دخل عازف الفيولونسيل إلى البيت وهو يتمتم ساخطا، إنّها مجنونة، مجنونة، مجنونة، إنّها المرّة الوحيدة التي ينتظرني فيها أحد عند المخرج ليقول لي إنّني عزفت جيّدا، وتكون من خرجت لي مختلّة عقليّا، وأنا أسألها كأبله إذا ما كنت سأعود لرؤيتها، وأدخل نفسي في المشاكل بقدميّ، ثمّة عيوب يمكن لها أن تنطوي على شيء من الاحترام، تكون جديرة بالاهتمام على الأقلّ، أمّا الغرور فمضحك، الإعجاب بالنفس مضحك، وأنا مضحك. أبعد عنه وهو ساه الكلبَ الذي ركض لاستقباله عند الباب ودخل إلى قاعة البيانو. فتح العلبة المبطّنة، أخرج منها بمنتهى الحذر آلته الموسيقيّة التي يتوجّب عليه أن يعيد دوزنتها قبل أن يذهب إلى النوم، لأنّ المشوار في سيّارة الأجرة، حتّى لو كان قصيرا، ليس صحّيّا بأيّ حال للآلة الموسيقيّة. ذهب إلى المطبخ ليضع شيئا من

الطعام للكلب، وأعدّ ساندويتشا له أيضا وأرفقه بكأس نبيذ. لقد انقضى أسوأ ما في استيائه، ولكنّ الشعور الذي يحلّ محلّه شيئا فشيئا لم يكن مطمئنا. كان يتذكّر عبارات قالتها المرأة، تلميحها إلى الالتباسات التي لها ثمن يُدفع، وراح يكتشف أنّ كلّ الكلمات التي تلفّظت بها، وإن كان صحيحا أنّها متناسبة مع سياقها، بدت كما لو أنّها تتضمّن معنى آخر، تتضمّن شيئا لا يَسمح بالتقاط مغزاه، شيئا متفلّتا، مثل ماء يبتعد عند محاولتنا شربه، مثل غصن ينأى عنّا عندما نريد قطف الثمرة. وفكّر، لا يمكن أن أقول إنّها مجنونة، ولكنّها امرأة غريبة الأطوار، وهذا أمر لا شكّ فيه. انتهى من تناول الطعام ورجع إلى قاعة الموسيقى، أو البيانو، وهما الطريقتان اللتان ميّزناها بهما حتّى الآن، في حين أنّه كان المنطقيّ أن ندعوها قاعة الفيولونسيل، لأنّ الموسيقيّ يكسب عيشه بالعزف على هذه الآلة، ولا بدّ من الاعتراف على أيّ حال أنّها تسمية ليست لطيفة الوقع على السمع، وسيكون ذلك إنقاصا من قيمة المكان، أشبه بأن يفقد جزءا من كرامته، ويكفي متابعة السلّم الموسيقيّ هبوطا من أجل فهم مسوّغنا، قاعة موسيقى، قاعة بيانو، قاعة فيولونسيل، حتّى هنا لا يزال الأمر مقبولا، ولكن فلنتخيّل إلى أين سنصل إذا ما بدأنا بقول قاعة الكلارينيت، وقاعة المزمار، وقاعة الطبل، وقاعة الصنوج. فللكلمات أيضا تراتبيّتها، وبروتوكولها، وألقاب نبالتها، وسماتها العامّيّة. لقد جاء الكلب مع سيّده وقبع إلى جانبه بعد أن قام بالدوران ثلاث مرّات حول نفسه، وهذه هي الذكرى الوحيدة المتبقّية له من الأزمنة التي كان فيها ذئبا. كان الموسيقيّ يدوزن الفيولونسيل مستعينا بمعيار النغم، ويعيد بمحبّة ضبط تناسق نغمات الآلة بعد ما أنزله بها سوء معاملة ارتجاج سيّارة الأجرة على أحجار الشارع. وقد توصّل خلال بضع دقائق إلى نسيان امرأة الشرفة، ليس نسيانها هي بالضبط، وإنّما نسيان الحديث

المقلق الذي تبادلاه عند بوّابة الفنّانين، وإن كانت الكلمات العنيفة المتبادلة في سيّارة الأجرة مازالت تُسمع في الخلفيّة، كأنّها دويّ طبول. لا يمكنه نسيان امرأة الشرفة، ولا يريد أن ينسى امرأة الشرفة. إنّه يراها واقفة، بيدين متقاطعتين على صدرها، يشعر بأنّ نظرتها المركّزة تلامسه، صلبة كالماس، ومثله مشعّة أيضا عندما ابتسمت. فكّر في أنّه سيعود لرؤيتها يوم السبت، أجل، سيراها، ولكنّها لن تنهض واقفة ولن تقاطع يديها على صدرها، ولن تنظر إليه من بعيد، هذه اللحظة قد ابتُلعت، تلاشت في اللحظة التالية، عندما التفت ليراها آخر مرّة، هذا ما اعتقده، ولم تكن موجودة في الشرفة.

عاد معيار النغم إلى الصمت، فقد انتهت دوزنة الفيولونسيل ورنّ جرس الهاتف. فوجئ الموسيقيّ، نظر إلى الساعة، كانت الواحدة والنصف تقريبا. أيّ شيطان سيكون في مثل هذا الوقت، فكّر. رفع السمّاعة وظلّ ينتظر بضع ثوان. كان ذلك سخيفا بالطبع، فهو من عليه أن يبدأ التكلّم، أن يقول الاسم أو رقم الهاتف، وربّما سيردّون من الجانب الآخر، المعذرة، لقد أخطأنا بالرقم، غير أنّ من تكلّم فضّل السؤال، هل الكلب هو من يردّ على الهاتف، إذا كنتَ الكلب، فتفضل بالنباح على الأقل. فأجاب عازف الفيولونسيل، أجل، أنا الكلب، ولكنّني فقدت منذ زمن طويل عادة النباح، وقد فقدت كذلك عادة العضّ، اللهمّ إلاّ عضّ نفسي عندما تجافيني الحياة، لا تغضب، أنا أتّصل بكَ لتسامحني، فقد اتّخذت محادثتنا توجّها خطرا على الفور، وقد رأيت كيف كانت النتيجة، إنّها كارثة، هناك من حرّف مسار المحادثة، ولم أكن أنا من فعلت ذلك، إنّني أتحمّل المسؤوليّة كاملة، مع أنّني متوازنة في العادة وهادئة، لم ألحظ فيكِ هذا ولا ذاك، ربّما أعاني من ازدواج الشخصيّة، لا بدّ أن نكون متماثلين في هذه الحالة، فأنا كلب ورجل، السخريات ليست حسنة

الوقع من فمكَ، ولا شكّ في أنّ حاسّة سمعك الموسيقيّة قد أخبرتك بذلك، النغمات الناشزة تشكّل جزءا من الموسيقى كذلك أيّتها السيّدة، لا تنادني بالسيّدة، لا أجد طريقة أخرى لمناداتك، فأنا لا أعرف اسمك، ولا عملك، ولا من تكونين، ستعرف ذلك في حينه، فالتسرّع ناصح سيّئ، ونحن لم نتعارف إلاّ قبل قليل، إنّكِ تتقدّمين عليّ، فلديك رقم هاتفي، من أجل الحصول عليه تكفي الاستعلامات الهاتفيّة، وقد تولّوا في قسم الاستقبال في الفندق الحصول عليه، لسوء الحظّ أنّ جهاز هاتفي قديم، لماذا الأسف، لأنّه لو كان من الهواتف الحديثة لعرفتُ من أين تكلّمينني، إنّني أكلّمك من غرفتي في الفندق، يا للخبر الجديد، أمّا بشأن قِدم هاتفك، فقد كنت أتوقّع أن يكون كذلك، ولم أفاجأ بالأمر أبدا، لماذا، لأنّ كلّ ما فيكَ يبدو قديما، كما لو أنّ عمرك خمسمائة سنة وليس خمسين سنة، كيف تعرفين أنّ عمري خمسين سنة، لأنّني بارعة في تقدير الأعمار، لا أخطئ فيها أبدا، بدأتُ أرى أنّكِ تبالغين كثيرا في ادّعاء عدم الخطإ، معك حقّ، فاليوم مثلا، أخطأتُ مرّتين، ويمكنني أن أقسم لك أنّ ذلك لم يحدث من قبل قطّ، لستُ أفهم، لديّ رسالة يتوجّب عليّ تسليمها لك ولم أسلّمها، كان يمكن لي أن أفعل ذلك عند مخرج المسرح أو في سيّارة الأجرة، أيّ رسالة هي هذه، فلنتّفق على أنّني كتبتها بعد حضوري التمرين على عزفك الكونشرتو الخاصّ بك، هل كنت هناك، كنتُ هناك، لم أركِ، هذا طبيعي، لم يكن بإمكانك رؤيتي، إنّه ليس اختصاصي على كلّ حال، أنت دائم التواضع، ولنتّفق على أنّ هذا لا يعني أنّ ما تقولينه صحيح، أحيانا، أجل، أمّا في هذه الحالة فلا، تهانيّ، فأنتَ بعيد النظر فضلا عن تواضعك، وما هي هذه الرسالة، ستعرف ذلك في حينه، لماذا لم تسلّميني إيّاها، وقد أتيحت لك فرصة لذلك، بل فرصتان، أكرّرُ بإلحاح، لماذا لم تسلّميها، هذا ما

أريد التوصّل إلى معرفته، ربّما سأتمكّن من تسليمها يوم السبت، بعد الكونشرتو، فيوم الاثنين لن أكون في المدينة، ألا تعيشين هنا، العيش هنا، بمعنى العيش، لا أعيش، لست أفهم شيئا، التكلّم معك أشبه بالوقوع في متاهة بلا أبواب، هذا تعريف جيّد حقّا للحياة، أنتِ لستِ الحياة، إنّني أقلّ تعقيدا منها بكثير، لقد كتب أحدهم أنّ كلّ واحد منّا هو الحياة في اللحظة الراهنة، أجل، في اللحظة الراهنة، وفقط في اللحظة الراهنة، إنّني راغب في أن يتّضح كلّ هذا التشوّش بعد غد، الرسالة، وسبب عدم إعطائي إيّاها، كلّ شيء، فقد تعبتُ من الأسرار الغامضة، هذا الذي تسمّيه أسرارا غامضة يكون حماية في أحيان كثيرة، فهناك من يحتمون بدروع، وهناك من يحتمون بأسرار غامضة، حماية أو لا حماية، أريد رؤية هذه الرسالة، ستراها إذا أنا لم أخطئ مرّة ثالثة، ولماذا ستخطئين مرّة ثالثة، إذا ما حدث هذا فسيكون السبب هو نفسه الذي أخطأت فيه في المرّتين السابقتين، لا تلعبي بي، نحن نتكلّم كما في لعبة القطّ والفأر، اللعبة التي ينتهي فيها القطّ دوما إلى اصطياد الفأر، إلاّ إذا تمكّن الفأر من تعليق الجرس للقطّ، جواب جيّد، أجل يا سيّدي، ولكنّه ليس سوى حلم عقيم، مجرّد وهم رسوم متحرّكة، فحتّى لو كان القطّ نائما، فإنّ الضجّة ستوقظه، وعندئذ وداعا أيّها الفأر، أنا الفأر الذي تقولين له وداعا، لو أنّنا داخل اللعبة فعلى أحدنا أن يكون الفأر بالضرورة، وأنا لا أرى أنّ لكَ هيئة القطّ أو مكره، سيُحكم عليّ بعد ذلك أن أكون فأرا مدى الحياة، بقدر ما تدوم هذه الحياة، أجل، فأر عازف فيولونسيل، رسم متحرّك آخر، لم ألحظ حتّى الآن أنّ الكائناتِ البشريّة تبدو أشبه بالرسوم المتحرّكة، وأنتِ أيضا كما أفترض، لقد أُتيحت لي فرصة معرفة ما الذي أبدو عليه، تبدين امرأة جميلة، شكرا، لا أدري إن كنتِ قد انتبهتِ إلى أنّ هذه المحادثة تشبه المغازلة كثيرا، إذا كانت عاملة

مقسم الهاتف في الفندق تتسلّى بالاستماع إلى محادثات النزلاء، فلا بدّ أن تكون قد توصّلت إلى هذه النتيجة أيضا، حتّى لو كان الأمر كذلك، لن يتمخّض عن نتائج خطيرة، فامرأة الشرفة التي مازلتُ أجهل اسمها، ستغادر يوم الاثنين، كي لا تعود إلى الأبد، إنّكِ واثقة جدّا ممّا تقولين، من الصعب أن تتكرّر الأسباب التي دفعتني إلى المجيء هذه المرّة، الصعوبة لا تعني أنّ ذلك مستحيل، سأتّخذ الاحتياطات الضروريّة كي لا أضطرّ إلى تكرير الرحلة، لقد كانت رحلة تستحقّ العناء على الرغم من كلّ شيء، على الرغم من أيّ شيء تعني، المعذرة، لم أكن دقيقا، ما أردتُ قوله، لا تزعج نفسك بإظهار اللطف معي، فأنا معتادة، أضف إلى ذلك أنّه من السهل تخمين ما كنت ستقوله لي، وإذا كنت ترى أنه عليكَ أن تقدّم لي تفسيرا كاملا، فربّما يمكننا مواصلة حديثنا يوم السبت، ألن أراكِ حتّى ذلك الحين، لا. انقطع الاتّصال. نظر عازف الفيولونسيل إلى الهاتف الذي مازال في يده الرطبة من العصبيّة، لا بدّ أنّني كنت أحلم، تمتم، هذه ليست مغامرة يمكن لها أن تحدث لي. ترك سمّاعة الهاتف تسقط على مسندها وسأل، بصوت عالٍ هذه المرّة، متوجّها إلى البيانو، إلى فيولونسيل، إلى رفوف الكتب، ما الذي تريده منّي هذه المرأة، من تكون، لماذا ظهرت في حياتي. استيقظ الكلب على الضجّة ورفع رأسه. وقد كان في عينيه جواب، ولكن عازف الفيولونسيل لم يوله انتباهه، كان يقطع القاعة من جانب إلى آخر، بأعصاب أكثر اضطرابا من السابق، وكان جواب الكلب هو التالي، بما أنّك تتكلّم الآن في هذا الأمر، فإنّ لديّ ذكرى غامضة عن أنّني قد نمتُ في حضن امرأة، ويمكن أن تكون هذه. وكان يمكن لعازف الفيولونسيل أن يسأل، عن أيّ حضن تتكلّم، وعن أيّة امرأة، أنتَ كنتَ نائما، أين، هنا، في فراشك، وأين كانت هي، هنا، يا للنكتة اللطيفة أيّها السيّد كلب، منذ متى لم تدخل امرأة هذا البيت، هذا

المخدع، هيّا، أخبرني، مفهوم الزمن لدى الكلاب، مثلما لا بدّ أنّك تعلم، ليس كما هو لدى البشر، ولكنّني أظنّ أنّ زمنا طويلا قد انقضى منذ آخر مرّة استقبلتَ فيها امرأة في فراشك، وليكن واضحا أنّني أقول هذا دون سخرية، وهذا يعني أنّكَ كنت تحلم، هذا هو الاحتمال الأكبر، فنحن الكلاب حالمون لا يمكن إصلاحنا، يصل بنا الأمر إلى الحلم وعيوننا مفتوحة، ويكفي أن نرى شيئا في الظلمة لنتخيّل أنّه حضن امرأة، ونقفز إليه، وسيقول عازف الفيولونسيل عندئذ، إنّها شؤون كلاب، وسيردّ الكلب، وحتّى لو لم يكن صحيحا ما نتخيّله، فإنّنا لا نتذمّر. وفي غرفتها في الفندق، كانت موت تقف عارية أمام المرآة. ولم تكن تدري من تكون.

طيلة اليوم التالي لم تتّصل المرأة. لم يخرج عازف الفيولونسيل من البيت، كان ينتظر. وانقضى الليل دون أيّ كلمة. نام عازف الفيولونسيل أسوأ من نومه في الليلة السابقة. وفي صباح يوم السبت، قبل أن يذهب إلى التمرين، مرّت في ذهنه فكرة عابرة بالسؤال في الفنادق المجاورة إذا ما كانت لديهم نزيلة بهذه الملامح، لون الشعر كذا، ولون العينين كذا، وشكل الفم كذا، والابتسامة كذا، وحركة اليدين كذا، ولكنّه استبعد الفكرة الهذيانيّة، فمن المؤكّد أنّه سيُصرف فورا بحركة ارتياب لا جدال فيها والقول له بجفاء، لسنا مخوّلين بتقديم المعلومات التي تطلبها. لم يكن في التمرين جيّدا ولا سيّئا، اكتفى بعزف ما هو مكتوب على الورق، دون أيّ مسعى آخر سوى عدم الخطإ في نغمات كثيرة. وعندما انتهى هرع ثانية إلى البيت. وكان يفكّر في أنّها لن تجد، إن اتّصلت خلال غيابه، مجيبا آليّا في الهاتف كي تترك ملاحظة، وتمتم متأفّفا، لستُ رجلا يعود إلى خمسمائة سنة، إنّني ساكن كهوف من العصر الحجريّ، فالناس جميعهم يستخدمون مجيبا آليّا هاتفيّا إلاّ أنا. وإذا كان بحاجة إلى دليل على أنّها لم تتّصل، فإنّ الساعات التالية قدّمته إليه. فمن حيث

المبدأ، من يتّصل ولا يتلقّى ردّا، يعاود الاتّصال مرّة أخرى، ولكنّ الجهاز اللعين ظلّ صامتا طوال ما بعد الظهر، غير عابئ بالنظرات متزايدة اليأس التي يوجّهها إليه عازف الفيولونسيل. الصبر، فكلّ شيء يشير إلى أنّها لن تتّصل، ربّما لم تستطع الاتّصال لسبب أو لآخر، ولكنّها ستذهب إلى الكونشرتو، وسيعودان معا في سيّارة الأجرة مثلما حدث بعد الكونشرتو الأوّل، وعندما سيصلان إلى هنا، سيدعوها للدخول، وسيتمكّنان عندئذ من تبادل الحديث بهدوء، وستسلّمه أخيرا الرسالة التي يتلهّف إليها وسيجد كلاهما بعد ذلك الكثير من الظرافة في المديح المبالغ به الذي كتبته، مدفوعة بحماسة فنّيّة، بعد التمرين الذي لم يرها فيه، وسيقول هو إنّه ليس روستروفيتش بأيّ حال، وستقول هي له إنّه لا يعرف ما الذي يخبّئه له المستقبل، وعندما لا يظلّ لديهما ما يقولانه أو عندما تبدأ الكلمات بالذهاب إلى جانب والأفكار إلى جانب آخر، فسوف يرى عندئذ إن كان بالإمكان حدوث شيء جدير بأن نتذكّره عندما نشيخ. وبهذه الحالة المعنويّة خرج عازف الفيولونسيل من البيت، حمل هذه الحالة الروحيّة معه إلى المسرح، وبهذه الحالة الروحيّة دخل إلى المنصّة وجلس في مكانه. كانت الشرفة خاوية. لقد تأخّرت، قال لنفسه، لا بدّ أنّها على وشك المجيء، فمازال هناك أناس يدخلون إلى القاعة. وكان ذلك صحيحا، فالمتأخّرون كانوا يحتلّون مقاعدهم طالبين المعذرة ممّن هم جالسون لإزعاجهم بالنهوض، ولكنّ المرأة لم تظهر. ربّما ستأتي خلال الاستراحة. لا شيء من ذلك. ظلّت الشرفة خاوية حتّى نهاية الحفلة. ومع ذلك، مازال هناك أمل معقول، إذ يمكن أن يكون قد تعذّر عليها المجيء إلى العرض لأسباب ستبيّنها له، وقد تكون في انتظاره خارجا، عند بوّابة الفنّانين. لم تكن هناك أيضا. وبما أنّ للآمال هذا الدور الذي لا بدّ لها من أدائه، بتوالدها أملا بعد آخر، وعلى الرغم

من كثرة الإحباطات، فإنّ الآمال لم تنفد من العالم، يمكن أن تكون في انتظاره عند مدخل العمارة وعلى شفتيها ابتسامة والرسالة في يدها، إليك الرسالة، فالوفاء بالوعد واجب. ولكنّها لم تكن هناك أيضا. دخل عازف الفيولونسيل إلى البيت كإنسان آليّ، من النوع القديم، من أوّل جيل من البشر الآليّين، من تلك التي يتوجّب عليها أن تطلب الإذن من إحدى الساقين كي تحرّك الساق الأخرى. دفع جانبا الكلب الذي هرع لتحيّته. ترك الفيولونسيل كيفما اتّفق له وذهب لينبطح على السرير. تعلَّم، تعلَّم، تعلَّم دفعة واحدة يا شقفة الأبله، لقد تصرّفت كأحمق كامل، وضعتَ المعاني التي ترغبُ فيها لكلمات كان لها في نهاية المطاف معانٍ أخرى، والأدهى أنّك لا تعرف هذه المعاني الأخرى ولن تعرفها، صدقتَ ابتسامات ليست سوى تقلّصات عضليّة محضة ومتعمّدة، ونسيتَ أنّك تحمل على كاهلك خمسمائة سنة على الرغم من أنّهم ذكّروك بذلك بطريقة مشفقة، وها أنت هنا الآن مطروح مثل خرقة على السرير الذي كنتَ تأمل أن تستقبلها عليه، بينما هي تضحك الآن من الهيئة المحزنة التي صرتَ إليها ومن بلاهتك التي لا شفاء لها. اقترب الكلب لمواساته وقد تناسى الإهانة المتمثّلة بصدّه. وضع قائمتيه الأماميّتين فوق الفراش، ورفع جسده حتّى صار على مستوى يد سيّده اليسرى المهجورة هناك كشيء بلا جدوى، بلا نفع، وعليها أسند رأسه برفق. كان يمكن له أن يلحسها، وأن يعود للحسها، مثلما تفعل الكلاب العاديّة، ولكنّ الطبيعة، وقد كانت رقيقة هذه المرّة، احتفظت له بحساسيّة خاصّة إلى حدّ يمكنه معه ابتكار إيماءات مختلفة للتعبير عن الانفعالات الوحيدة نفسها على الدوام. التفت عازف الفيولونسيل نحو الكلب، حرّك جسده وأحناه إلى أن صار رأسه على بعد شبر واحد من رأس الحيوان، وظلاّ على تلك الحال، يتبادلان النظرات، والكلام، دون حاجة إلى كلمات، إذا

ما فكّرتُ جيّدا، لن أجد لديّ فكرة عمّن تكون، ولكن هذا لا يؤخذ في الحسبان، المهمّ أنّنا متحابّان. راحت مرارة عازف الفيولونسيل تتناقص شيئا فشيئا، الحقيقة أنّ العالم أكثر من متخم بحوادث مثل هذه، هو انتظر وهي تخلّفت، هي انتظرت وهو لم يأت، وفي العمق، وليبقَ هذا بيننا نحن الارتيابيّين والجاحدين، هذا أفضل من كسر في الساق. كان من السهل قول ذلك، لكنّ الصمت كان أفضل، لأنّ للكلمات في أحيان كثيرة مفاعيل مناقضة لما يراد منها، حتّى إنّه يحدث في أحيان غير قليلة أنّ أولئك الرجال أو أولئك النساء يُقسمون ويعيدون القسم، إنّني أمقتها، إنّني أمقته، ثمّ ينفجرون في البكاء على إثر تلك الكلمات. جلس عازف الفيولونسيل على السرير، احتضن الكلب الذي وضع قائمتيه على ركبتي الرجل في إيماءة تضامن أخيرة، ثمّ قال كمن يؤنّب نفسه، قليلا من الوقار، أرجوك، يكفي تحسّرا وبكاء. ثمّ توجّه إلى الكلب بعد ذلك، أنت جائع طبعا. هزّ الكلب ذيله، في ردّ يعني أجل يا سيّدي، إنّه جائع، فمنذ ساعات كثيرة لم يأكل شيئا، وذهبا معا إلى المطبخ. عازف الفيولونسيل لم يأكل، لا يشعر بشهيّة. أضف إلى ذلك أنّ العقدة التي في حلقه لن تتيح له ابتلاع الطعام. بعد نصف ساعة من ذلك كان في الفراش، وكان قد تناول قرصا يساعده على النوم، ولكنّه لم يفده كثيرا. كان يستيقظ ويغفو، يستيقظ ويغفو طوال الوقت على فكرة أنّ عليه أن يركض وراء النعاس كي يمسك به ويمنع الأرق من المجيء ليحتلّ الجانب الآخر من السرير. لم يحلم بامرأة الشرفة، ولكن كانت هناك لحظة استيقظ فيها ورآها واقفة، في وسط قاعة الموسيقى، ويداها متقاطعتان على صدرها.

في اليوم التالي، وكان الأحد، والأحد هو اليوم الذي يُخرج فيه الكلب للنزهة، الحبّ يقابل بالحبّ، بدا أنّ الحيوان يقول له ذلك حين صار الحزام في فمه، وهو يستعدّ للخروج. وفي الحديقة، بينما عازف

الفيولونسيل يتوجّه نحو المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه، رأى من بعيد أنّ هناك امرأة تجلس عليه. المقاعد في الحدائق مشاعة، عامّة، وهي مجّانيّة عموما، ولا يمكن القول لمن جاء قبلنا، هذا المقعد لي، تفضّل وابحث عن مقعد آخر. لا يمكن لرجل حسن التربية مثل عازف الفيولونسيل أن يفعل ذلك، والآن أقلّ من أيّ وقت آخر، بعد أن بدا له التعرّف في تلك الجالسة على المرأة التي رآها وسط قاعة الموسيقى متقاطعة اليدين على الصدر. والعينان مثلما هو معروف لا تتمتّعان بالثقة في سنّ الخمسين، فهما تبدآن بالارتعاش، وتكونان نصف مغمضتين كما لو أنّنا نريد محاكاة أبطال أفلام الغرب الأمريكيّ أو بحّارة الأزمنة الغابرة، فوق الحصان أو في مقدّمة السفينة الشراعيّة، بيد موضوعة فوق الحاجبين، لتفحّص الأفق البعيد. المرأة ترتدي الملابس بطريقة مختلفة، بنطلونا وسترة من الجلد، إنّها امرأة أخرى بالتأكيد، يقول عازف الفيولونسيل لقلبه، ولكنّ هذا الأخير، وله عينان أفضل، يقول لك افتح عينيك جيّدا، إنّها هي، ولنر الآن كيف ستتصرّف معها. رفعت المرأة رأسها ولم تعد لدى عازف الفيولونسيل أيّة شكوك، إنّها هي. صباح الخير، قال عندما توقّف بجانب المقعد، كان يمكن لي أن أتوقّع أيّ شيء اليوم، إلاّ اللقاء بكِ هنا، صباح الخير، قالت، لقد جئتُ لأودّعكَ وأعتذر منك لأنّي لم أظهر أمس في الكونشرتو. جلس عازف الفيولونسيل، فكّ الحزام من عنق الكلب وقال له، اذهب، ثمّ أجاب دون أن ينظر إلى المرأة، لا وجود لما تعتذرين عنه، فهذه أمور تحدث دائما، يشتري الناس بطاقات دخول وبعد ذلك لا يستطيعون الذهاب لسبب أو لآخر، إنّه أمر طبيعي، وماذا تقول عن وداعنا، ألا رأي لديك، سألته المرأة، إنّه لطف كبير من جانبكِ أن تري أنّه عليك وداع شخص تجهلينه، وإن كنتُ غير قادر على تخيّل كيف عرفتِ أنّني أجيء إلى هذه الحديقة كلّ يوم أحد، هنالك أشياء قليلة

لا أعرفها عنك، أرجوكِ، لا أريد أن نرجع إلى المحادثات العبثيّة التي قمنا بها يوم الخميس عند بوّابة المسرح وبالهاتف، أنتِ لا تعرفين شيئا عنّي، فنحن لم نلتق من قبل قطّ، تذكّر أنّني كنت في التمرين، ولا أفهم كيف توصّلتِ إلى ذلك، فالمايسترو صارم جدّا بشأن حضور الغرباء، ولا تقولي لي الآن إنّك تعرفينه، ليس كثيرا مثلما أعرفك، فأنت استثناء، من الأفضل ألاّ أكون كذلك، لماذا، أتريدينني أن أخبرك، أتريدين حقّا أن أخبرك، سألها عازف الفيولونسيل باندفاع يلامس اليأس، أجل، لأنّني وقعتُ في حبّ امرأة لا أعرف شيئا عنها، امرأة تلعب بي، وغدا ستغادر إلى حيث لا أعرف ولن أعود لرؤيتها، سأغادر اليوم وليس غدا، هذا أدهى، وليس صحيحا أنّني كنت ألعب بك، إذا كنت لا تفعلين ذلك، فإنّك تجيدين التظاهر به، أمّا بشأن وقوعك في حبّي فلا تنتظر أن أبادلك إيّاه، هناك كلمات ممنوع عليها الخروج من فمي، سرّ غامض آخر، ولن يكون الأخير، بهذا الوداع ستُحلّ كلّ الأسرار، وستبدأ أسرار أخرى، أرجوكِ، دعيني، لا تعذّبيني أكثر، والرسالة، لا أريد معرفة شيء عن الرسالة، حتّى لو شئتَ لن أستطيع أن أعطيك إيّاها، فقد تركتها في الفندق، قالت المرأة باسمة، مزّقيها إذا، سأفكّر في ما عليّ أن أفعله بها، لا حاجة بكِ إلى التفكير، مزّقيها وكفى. نهضت المرأة واقفة. هل ستذهبين، سألها عازف الفيولونسيل. لم ينهض، وكان يطرق برأسه، وكان لا يزال لديه ما يودّ قوله. لم ألمسكِ قطّ، تلعثم، أنا التي لم أشأ أن تلمسني، وكيف توصّلتِ إلى ذلك، الأمر ليس صعبا عليّ، ولا تشائينه حتّى الآن، ولا حتّى الآن، مصافحة باليد على الأقل، يداي باردتان. رفع عازف الفيولونسيل رأسه. ولم تكن المرأة هناك.

خرج الرجل والكلب من الحديقة بسرعة، اشتُريت الساندويتشات لتناولها في البيت، لم تكن هناك قيلولة تحت الشمس. كان المساء طويلا

وكئيبا، تناول الموسيقيّ كتابا، قرأ نصف صفحة وتركه جانبا. جلس إلى البيانو ليعزف قليلا، ولكنّ يديه لم تنصاعا له، كانتا متعثّرتين، باردتين، كأنّهما ميّتتان. وعندما رجع إلى الفيولونسيل، كانت آلته الحبيبة هي من أنكرته. نام على الأريكة، أراد الاستغراق في حلم بلا نهاية، لا يستيقظ منه أبدا. وكان الكلب مستلقيا على الأرض، ينظر، بانتظار إشارة لا تأتي. وفكّر، ربّما تكون المرأة التي ظهرت في الحديقة هي سبب كآبة السيّد، وليس صحيحا في نهاية المطاف ما يقوله ذلك المثل عن أنّ ما لا تراه العين، لا يحزن له. الأمثال تخدعنا على الدوام، هذا ما انتهى إليه الكلب. كانت الساعة الحادية عشرة عندما قُرع جرس الباب. جارٌ مّا في مشكلة، فكّر عازف الفيولونسيل، ونهض ليفتح الباب. مساء الخير، قالت امرأة الشرفة وهي تطأ العتبة، مساء الخير، ردّ الموسيقيّ باذلا الجهد للسيطرة على الذهول الذي يغلق حلقه، ألن تطلب مني الدخول، بلى بالطبع، تفضّلي، أرجوكِ. ابتعد جانبا ليفسح لها الطريق، أغلق الباب، وفعل كلّ شيء ببطء، بتمهّل، كي لا ينفجر قلبه. رافقها بساقين مرتجفتين إلى قاعة الموسيقى، وبيده المرتعشة أشار إلى الأريكة. قال، ظننتُ أنّكِ قد غادرتِ، قرّرتُ البقاء كما ترى، ردّت المرأة، ولكنّكِ ستغادرين غدا، هذا ما وعدت نفسي به، أفترضُ أنّكِ جئتِ لتوصلي لي الرسالة، وأنّك لم تمزّقيها، أجل، إنّها في حقيبتي، أعطني إيّاها إذا، مازال لدينا وقت، وأتذكّر أنّني قلت لكَ إنّ التسرّع ناصح سيّئ، مثلما تشائين، إنّني تحت تصرفك، أتقول هذا بجدّ، إنّها نقيصتي الكبرى، فأنا أقول كلّ شيء بجدّ، حتّى عندما أريد إضحاك الآخرين، وخاصّة عندما أضحك الآخرين، أتجرّأ في هذه الحالة على طلب معروف منك، ما هو، أن تعوّضني عن غيابي عن الكونشرتو أمس، لا أدري بأيّ طريقة، لديك البيانو هنا، لا تفكّري في ذلك، فأنا عازف بيانو متواضع، أو

الفيولونسيل، هذا شيء آخر، أجل، يمكنني أن أعزف لك مقطوعة أو اثنتين إذا أصررتِ، أيمكنني أن أختار، أجل، لكِ ذلك، عرض عليها الاختيار، ولكن ضمن ما هو في متناول يدي، ضمن إمكاناتي فقط. تناولت المرأة كتيب السويت السادسة لباخ وقالت، هذه، إنّها طويلة، تحتاج لأكثر من نصف ساعة، وقد بدأ الوقت يتأخّر، أكرّر القول بأنّه مازال لدينا وقت، هنالك مقطع في الافتتاحيّة أجد صعوبة في عزفه، ليس مهمّا، تجاوزه عند الوصول إليه، قالت المرأة، أو أنّه لا حاجة إلى تجاوزه، وسترى كيف أنّك ستعزفه خيرا من روستوبوفيتش. ابتسم عازف الفيولونسيل، يمكن أن تكوني على صواب. فتح كتيّب النوتة على المسند، تنفّس بعمق، وضع يده اليسرى على ذراع الفيولونسيل، وحملت اليد اليمنى القوس حتّى كاد أن يلامس الأوتار، وبدأ العزف. كان يعرف جيّدا أنّه ليس روستوبوفيتش، وأنّه لا يتجاوز كونه عازفا منفردا عندما تتطلّب مصادفات البرنامج ذلك، ولكنّه هنا، أمام المرأة، وكلبه مستلق عند قدميه، وفي هذه الساعة من الليل، وهو محاط بالكتب، وبكتيّبات الموسيقى، كان جوهان سيباستيان باخ نفسه يؤلّف في كوتن ما سيسمى في ما بعد العمل ألف واثني عشر، وهي كثيرة مثلما كانت أعمال الخلق تقريبا. والمقطع الصعب عُزف دون أن ينتبه هو نفسه إلى العثرة التي اقترفها، كانت يدان سعيدتان تجعلان الفيولونسيل يهمس، يتكلّم، يغنّي، يزمجر، وهنا ما كان ينقص روستوبوفيتش، قاعة الموسيقى هذه، وهذا الوقت، وهذه المرأة. عندما انتهى لم تكن يداها باردتين، وكانت يداه تتأجّجان، ولهذا قدّمت اليدان نفسيهما إلى اليدين ولم تستغربا. كان الوقت قد تجاوز الواحدة بعد منتصف الليل بكثير عندما سألها عازف الفيولونسيل، أتريدين أن أطلب سيّارة أجرة تقلّكِ إلى الفندق، وأجابت المرأة، لا، سأبقى معك، وقدّمت إليه فمها. عندئذ، في حجرة

النوم تعرّيا، وما كان مكتوبا أنّه سيحدث حدث أخيرا، ومرّة أخرى، ثمّ أخرى بعد ذلك. نام هو، أمّا هي فلا. وعندئذ نهضت هي، موت، وفتحت حقيبتها التي تركتها في القاعة وأخرجت منها الرسالة البنفسجيّة. نظرت في ما حولها كمن تبحث عن مكان يمكنها ترك الرسالة فيه، فوق البيانو، أو مثبتة بين أوتار الفيولونسيل أو ربما في حجرة النوم بالذات، تحت الوسادة التي يستريح عليها رأس الرجل. لم تفعل ذلك. ذهبت إلى المطبخ، أشعلت عود ثقاب، عود ثقاب بائسا، هي التي تستطيع أن تبدّد الورق بنظرة منها، أن تحوّله إلى غبار غير ملموس، هي التي يمكنها أن تحرقه بلمسة من أصابعها، وكان عود ثقاب بسيطا، عود ثقاب عاديّا، عود ثقاب كلّ يوم، هو الذي أشعل رسالة الموت، هذه التي لا يستطيع أحد سوى موت إتلافها. عادت موت إلى الفراش، احتضنت الرجل، ودون أن تدرك ما الذي كان يحدث، هي التي لم تنم قطّ، أحسّت أنّ النعاس يُنزل جفنيها ببطء. وفي اليوم التالي لم يمت أحد.

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

ساعي بريد نيرودا

المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلّف: قُسطنطين جيورجيو
البلد: رومانيا
ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَوِيّ، فعالم الرواية الافتراضي متاهة يتعذّر أن ينجو منها أحد. وعلى النقيض من معظم الأعمال السردية حيث يختل توازن الأحداث ثم يعاد في النهاية؛ فإن نسق الاختلال يتعمّق بمرور الزمن، ولا يعود إلى سابق عهده أبدا.

رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

آخذك وأحملك بعيدا

المؤلف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

بهذا العمل الصادر في مطلع الألفيّة الثالثة، استردّت الرواية الإيطاليّة حيويّتها على يدي نيكولو أمانيتي، مُفتتحةً عصرا جديدا من السرد لا هاجس له غير التغلغل في أعماق الحياة الحديثة والاكتواء بأسئلتها .

رواية معاصرةٌ، الشبابُ موضوعها وسؤالها ومنتهاها، تتكلّم بلغتهم وتروي حياتهم وتُعلي من أصواتهم المكتومة خلف جدار الصّمت. إنّها رواية جيل جديد بقي خارج اهتمام الأدب وصار وجوده مزعجا ولكنّه حقيقة كالشمس. ماهي أحلام هذا الجيل؟ ماهي هواجسه وتطلّعاته؟ ذلك ما تتكفّل بمحاولة الإجابة عنه هذه الرواية، ولكنّها محاولة لا تخمد الأسئلة بل تولّدها وتطرحها عارية في وجه العالم بلا حذلقة لغويّة. تسمّي الأشياء الجديدة بلغة جديدة، ولا تمرّ بل تبقى حاضرة فينا حتّى تجبرنا مباشرة على النظر، مثلما تتّخذ الفتاة الجميلة في عتبة الرواية القمر مرآة إلى أن يقول لها: «أنت جميلة... أنت جميلة...»

كيف انتقل بنا أمانيتي من منطقة الخيال إلى صميم الواقع؟ كيف قوّض المسافة بينهما بكلّ براعة ويسر؟ وكيف استدرج شخصيّاته إلى النطق ولم ينطق على لسانها؟ ذلك أيضا ما تتكفّل بإبرازه هذه الرواية بلغة متوهّجة حيّة تمزح بين الكوميديا والتراجيديا، بين القسوة والبراءة في ثلاثة أيّام هي كلّ عمر أحداث الرواية ولكنّها تعتصر حياة بأسرها، تأخذنا وتحملنا بعيدا.

لمع نجم الكاتب بعد هذه الرواية التي حصدت العديد من الجوائز، وتمّت ترجمتها إلى 21 لغة وباعت ملايين النسخ.

الناشر

مِيتَتان لرجل واحد

المؤلَف: جورج أمادو
البلد: البرازيل
ترجمة: عبد الجليل العربي

كيف يمكن لرجل في الخمسين من العمر أن يهجر العائلة والبيت ومعارفه القدامى، أن يهجر عادات حياة بأكملها، ليتشرد في الشوارع ويسكر في الحانات الرخيصة، ويمارس الدعارة، أن يعيش متسخا، ملتحيا، يسكن في حظيرة وينام على فراش بائس؟ .

خبر موته مثّل فاجعة المدينة ومأساتها.

وإذا كانت رغبة العائلة، هي دفن «جواكيم سواريس دا كونيا» صاحب كنية، «كينكاس هدير الماء»، بطريقة محترمة، فقد كان لأصدقاء عمره رأي آخر.

لذلك لم يجئ الأصدقاء الأربعة لإلقاء النظرة الأخيرة على جثمان صديقهم العزيز فحسب، و إنما، لتصحيح خطإ في رواية موته حين لم يقتنعوا بأن كينكاس «ملك مشردي باهيا» الذي أقسم ألاّ يموت إلاّ بين الأمواج يمكن أن يلقى حتفه، هكذا، على سرير رث في غرفته في طوباو. ومن هنا سيعيدون تشكيل الحكاية من جديد.

تُرجمت هذه الرواية إلى 50 لغة وأجمع النقّاد على أنّها تمثّل رغم قِصَرِها تحفة أمادو النادرة طوال مسيرته الحافلة بالإصدارات.

الناشر

زوربا اليوناني

المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

«لقد أربكتني هذه القصّة كثيرا. يوم قرأتها شعرت بشيء من الغبطة والحزن معا. كنت أريد أن أحبّ رجلا كهذا... أو أكتب رواية كهذه، ولم يكن ذلك ممكنا، ولهذا ستطاردني حتّى أشفى منها بطريقة أو بأخرى.»

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد

كتاب يوقظ الأسلاف جميعهم مرّة واحدة، يأخذك بدهشة ورفق، ولكنّه حين تنضج عيناك في الرؤية وقلبك في المحبّة ويداك في المسك، يهزّك هزّا. تصبح ورقة صفراء أو زهرة لوز. أنت حرّ، المهمّ أنّك لست الإنسانَ نفسَه الذّي كان قبل القراءة. تعي أن الرّواية ليست فنّ حكي، ولا خرافة فقط، بل مادة تترقرق صافية من آلاف الكتب. تزهر يداك وأنت تحرّك الأوراق وتقرأ، أنا أزهرت مرارا مثل شجرة برقوق جبليّة، فيم العجب؟ نبتت على شفاهي لغة من صمت الغابات، وليل من كلمات الضّوء. وشقيت وأنا أقرأ، في مرّات كثيرة نشر الطلاب حولي قماشا وصعدوا فوق أغصاني لجمع الثّمرات. نعم تحوّلت شجرًا مرّة وكثيرا من المرّات غيما.. رأيت أسلوبا لم أعهده إلاّ في أمّهات النصوص المؤسّسة الحارقة وفي ذلك النّوع من السّرد الشفوي الذّي يقال عند الموت بحرارة اللّوعة وألم الفقد. فهمت أنّ للرّواية أنهارا خفيّة، وأنّ القلمَ آلةٌ غير صالحة لكتابة نصّ عظيم.

لتكتبَ نصّا عظيما تحتاج إلى تلك الأسفنجة المغموسة في ماء الرّحمة، الإسفنجة التّي يمرّرها اللّه على جبين المخطئين.

نصر سامي

المرجومة

المؤلّف: فريدون صاحبجام
البلد: إيران
ترجمة: وليد سليمان

«ثريا مانوتشهري» ليست مجرّد شخصيّة روائيّة من نسج الخيال، إنّما امرأة من لحم ودم، كائن بشريّ جرّدته يد المجتمع من كلّ شيء وقضت عليه بالموت رجما، لا لشيء إلاّ لأنّ زوجها أراد التخلّص منها فاتهمها بالخيانة.

هي دليل إدانة آخر يرفعه الروائيّ والصحفيّ الإيراني «فرايدون صاحبجام» في وجه نظام الخميني الّذي أصدر ضدّه حكما بالإعدام سنة 1979 بسبب نقده المستمرّ له، ولكنّ الكاتب المقيم في باريس تمكّن رغم ذلك في فيفري 1987 من التسلّل خفية إلى بلده الأصليّ لمتابعة وقائع تنفيذ حكم بالرجم حتى الموت ضد «ثريا مانوتشهري» المُتّهمة ظلما بخيانة زوجها.

وهكذا يتحول الكاتب شاهد عيان على جريمة بشعة في حق امرأة انتهكت إنسانيتها، ولفّها الصمت، امرأة تآمر عليها مجتمع بأسره،حتّى والدُها الذي أجبر على إلقاء الحجر الأول في عمليّة الرجم.

لقد تم تحويل هذه الرواية التي ترجمت إلى 30 لغة إلى شريط سينمائي ناجح بعنوان «رجم ثريا» وأخرجه قرش نوراسته سنة 2008.

الناشر

تموت المرأة لكن المجتمع لا يتوقف عن رجم نفسه، رجم هويته وتركيبته ومعناه.

هذه رواية كبيرة، وعملٌ عظيم، وكتابةٌ يُستحى منها..

عبد الله ثابت

الحب في زمن الكوليرا

المؤلّف: غابريال غارسيا ماركيز
البلد: كولمبيا
ترجمة: صالح علماني

هل أصغينا مرّة واحدة إلى صوت الحبّ المتغلغل في بلبال الواقع وفوضاه، هل حدّقنا في وجهه وهو يقاوم آخرَ العُمر على حافّة الهاوية؟ ذلك ما تتكفّل بمعالجته رواية «الحبّ في زمن الكوليرا»: أن نحبّ زمن الحرب والأوبئة، أن نجعل من وباء الكوليرا مبرّرا لإنزال الركّاب من الباخرة حتّى يخلو المكان النّهريّ للعاشقين وهما في السبعين من عمرهما بعد أن عاشا ماضيهما منفصلين، ها هما يعودان بعد عقود ليستعيدا حبّهما المراهق يتحدّيان به الموت شبقيْن، عاشقيْن، وكأنّهما في البرزخ ..

قصّة حبّ طويلة بمئات الشخصيّات تنتهي صفحاتها بعاشقين اثنين على متن باخرة في رحلة لا تنتهي ذهابا وإيّابا... قصّة وطن تمزّقه الحروب والأوبئة تتحوّل بقدرة قادر إلى حكاية حبّ أسطوري.. رواية تستند إلى التاريخ دون أن تقع في شراكه بل تحوّله إلى مادّة للتأمّل في الحبّ وفي الوجود الإنساني.. ها هنا يصير الحبّ ترياقا لكلّ الآفات بدءا بفعل الزّمن وانتهاء بالأحداث والتاريخ.. رواية ظاهرها بطلاها فلورنتينو أريثا وفرمينيا داثا تجري في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين في أمريكا الاّتينيّة... لكنها رواية الإنسانيّة في كلّ الأزمان وفي كلّ الأمكنة ..

ما الإنسان بلا حبّ؟ وهل عاشت الإنسانية زمنا بلا كوليرا؟؟؟ أبدا... فقط سنقول إنّ لكلّ زمان وباءَهُ وآفتَهُ ولا دواء للإنسان غير المقاومة العاشقة ...

ظافر ناجي

عرس الشاعر

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

إنه عراب السرد الشيلي بلا منازع.

هذا المجنون الآسر الذي بعث فينا النشوة بروايته المذهلة «ساعي بريد نيرودا» هو الوحيد الذي يجعلني أتوقف بعد قراءة أي عمل له عن أي قراءة أخرى، إنه قادر أن يختزل البحر في موجة والربيع في باقة من الأزهار والسحر كلّه في رواية، وعلى يديه غدت جزيرة «جيما» المعزولة عن العالم، البدائية بالنسبة إلى بعضنا، جزيرةً حية، ترتعش.

في هذه الرواية تشعر بطعم الدم، والنبيذ، وزيت الزيتون، والسمك المشوي، طعم الخيبة، وألم الهزيمة، ويقين النهايات..

رواية تشنف سمعك بالسخرية والبذاءات، والشعر، وصهيل الثورات، والأغنيات. تهزك بمشاهد الذبح والرقص، والمجون، والسروايل المتسخة بالشراب وكلّ ما يجعل الحياة هنا لا في مكان آخر..

طاهر الزهراني

قصّة حبّ أسطوريّة قوامها المكيدة والسخرية، نظرة ذكيّة وتهكّميّة إلى أوروبا ما قبل الحرب العالميّة الأولى، ولكنّها في الوقت نفسه تأريخ لسلالة من المهاجرين الّذين وصلوا إلى الشيلي في بداية القرن العشرين.

تُرجمت هذه الرواية إلى 32 لغة وفازت في فرنسا سنة 2001 بجائزة ميديسيس لأفضل رواية أجنبيّة في العالم.

الناشر

الحب والظلال

المؤلّف: إيزابيل الليندي
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

أنت في ورطة الآن، كلّ ما يمكنك فعله هو التقدّم والاندهاش، ثمّ التقدّم والاندهاش. والتشويق؟ التشويق مُرّ في «الحبّ والظلال». كلّ لحظة فيها هي نهاية ممكنة، لكنّ البداية لا تنتهي. بداية أبديّة تتسّع دوائرها فتنمو الأحداث وتكبر الشخصيات ويبقى السرد طفلا ليكون خارج الظلال، محافظا على براءته. أوليست البراءة هي ما يقاوم العاشقان من أجله؟

ما دفنه التاريخ تنبش عنه إيزابيل الليندي بألم خانق يكاد يقطع أنفاس الرواية في كل لحظة، وبأمل خالق يضخّ الحياة في عالم كامل ينشأ على حافة الهاوية، تروي من خلاله إيزابيل الليندي تلك المرحلة العمياء من تاريخ الشيلي.. لذلك فإنّ رواية «الحب والظلال» لا يمكن أن تنتهي، فهي تتحرّك في الذاكرة كما في النسيان، أو لنقل هي محاولة «لنسيان ما لا ينسى».

أنور اليزيدي

هذه قصة رجل وامرأة، أحب كلاهُما الآخرَ بكل جوارحه، لينجوا بذلك من حياة مبتذلة. وقد حملت القصة في ذاكرتي بحرص كي لا يبليها الزمن. والآن، في ليالي هذا المكان الصامتة، استطعت روايتها أخيرًا. لقد فعلت هذا من أجلهما، ومن أجل آخرين أودعوني حيواتهم قائلين: «خذي، اكتبي كي لا تمحوه الريح».

إيزابيل الليّندي

قلب كلب

المؤلّف: ميخائيل بولغاكوف
البلد: روسيا
ترجمة: أشرف القرقني

يقدّم ميخائيل بولغاكوف رسما استباقيّا لظلال الكارثة قبل اكتمالها، تلك التي ستلفّ الشّعب الرّوسيّ لأكثر من خمسين سنة.

وبقدرة هائلة على اختزال المتعدّد والمتشعّب في شبكة رمزيّة بسيطة ونافذة، يتمكّن هذا الكاتب الاستثنائيّ من ضيافة الشّعب الرّوسيّ برمّته داخل جسم «كلبٍ صالح»، يتعرّض لمسخ قسريّ عبر إقحام الأعضاء الأكثر حساسيّة لإنسانٍ ميّت في جسده...كلّ ذلك في لغة بسيطة ناقدة، تجعل من السّخرية الحصن الأخير الذي تنطلق منه كلّ حركة مقاومة واستعادة للإنسانيّ العميق من براثن اليوتوبيا الشيوعيّة الفجّة التي قضت على الإنسانيّ تحت شعار خلاصه.

هذه الرواية صوت مضادّ مكتوم لم نستمع إليه لأنّه جعل هاجسه فضح الانتهازيين بعد الثورة بشكل يجمع بين العجائبيّة والواقعيّة الفجّة، محبوكتين في نسيج السّخرية اللاّذعة. نشرت بعض فصولها على حلقات في الجريدة، ولكنّ ستالين سرعان ما تفطّن إلى خطورتها فانتفض إزاءها وجها لوجه، يُصادرها ويجوّع صاحبها لتبقى كاللّغم الممنوع الاقتراب منه أو مجرّد الإشارة إليه طوال 62 سنة، بدءا من سنة 1925 إلى سنة 1987 تاريخ صدورها لأوّل مرّة، أي بعد وفاة صاحبها بـ 33 سنة. ولكنّ نشرها كان كافيا لولوجها عالم الرّوائع الأدبيّة التي لا تنسى وانتشال صاحبها من سطوة النسيان لتضعه على مصاف كبار الكتّاب في العالم.

إنّها رواية تشييع الإنسان الجديد الذي بشّرت به الثورة الشيوعيّة إلى مثواه الأخير.

حديقة الصخور

المؤلِّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

من الصعب أن تحدّد من هو كازنتزاكي في رواية «حديقة الصخور».. فهو هنا كل وجوهه المتعدّدة وما أكثرها.. الرّوائيّ يكتب حكايته، والشاعر ينظم قصيدته، والمسافر يدوّن مذكّرات رحلاته، والفيلسوف يتأمّل العالم وذاته، والسّياسيّ يلاحظ انهيار العالم وأكاذيب الإيديولوجيا ..

لقد تأثّر كازنتزاكي بنيتشة وبرغسون وماركس. فكره مزيج من كلّ تلك الفلسفات وفي روحه تمزّق متجانس بين السماويّ والوضعيّ وخارجهما، بين حكمة الشرق الأقصى مختزلة في بوذا والكثير من مسيحيّة الغرب وعلمانيّة الشّيوعيّين في العالم .. لا يقلقه تناقضه، بل يرى في ذلك عمق الوجود الإنسانيّ وخُلاصة مأساته وخلاصه ..

على امتداد صفحات الرّواية تطالعنا المدن و الوجوه في رحلة لا تنتهي بين عشرات الأماكن ومئات البشر .. لا شيء من ذلك يهمّ فعلا بقدر ما تهمّ التّجربة من ورائها والحكمة من وجودها..

ظافر ناجي

يصدر قريبا

أيّام قوس قزح

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

وردّدت الجبال الصدى

المؤلّف: خالد حسيني
البلد: أفغانستان
ترجمة: منير العليمي

النفق

المؤلّف: إرناستو ساباتو
البلد: الأرجنتين
ترجمة: منير العليمي

رصيف الأزهار ما عاد يجيب

المؤلّف: مالك حدّاد
البلد: الجزائر
ترجمة: عبير مكي



انقطاعات الموت

هذه الرواية تكاد تكون ملحمة فى مديح الموت و«ساراماجو» الذى يكتب دون ضغينة أو كراهية حتى أنه يدعونا إلى محبة الموت يضعنا حسّه الفكاهيّ وسخريته اللاذعة منذ بداية الصفحات أمام مفاجأة فانتازية صاعقة: «فى اليوم التالى لم يمت أحد». لقد انقطع الموت فى دولة صغيرة -لا اسم لها- وأصبح سكانها لا يموتون ويبقى مريضهم على حاله. وقد يبدو الأمر رائعا في البداية لمن يتوقون إلى الخلود ولكن سرعان ما يوضح «ساراماجو» أنها كارثة تهدد البشرية. فقد أثار غياب الموت فوضى ليس لها مثيل ولم تعرفها المجتمعات من قبل وعلى البشرية أن تقبل به بوصفه وجه العملة الآخر للحياة. فالمرء لا يستطيع العيش من دون الموت. ومع أنه يظهر كتناقض ظاهري للحياة فإنّنا في الحقيقة يجب أن نموت لكي تستمر الحياة.

«ساراماجو»... ماكر وخبيث ولذيذ..

الناشر


9789973833341

